فــــى غيابهـــا

(رواية)

نبيل سليمان

لوجو
الهيئة المربع

سلسلة

آفاق عربية

تصدرها

الهيئة العامة لقصور الثقافة

• فى غيابها (رواية)

• نبيل سليمان

الهيئة العامة لقصور الثقافة

القاهرة - 2009 م

328ص- 13,5 × 19,5 سم

• تصميم الغلاف: أحمد اللباد

• المراجعة اللغوية: محمد عز صديق عطية

• رقم الإيداع: ١٩٦٦٨/ ٢٠٠٩

• الترقيم الدولى: 978-977-479-600-5

• المراسلات :

باسم / مدير التحرير

على العنوان التالى : 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى

القاهرة - رقم بريدى 11561

ت : 27947891 (داخلى : 180)

• الطباعة والتنفيذ :

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت : 23904096

(120)

سلسلة شهرية تعنى بنشر أعمال الأدباء العرب

فى غيابها

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى"

رابعة العدوية

- ١ -

"ولست أحتاج أن أقول إنى لست بإبراهيم الذى تصفه الرواية، وإن هذا المخلوق ما كان قط، ولا فتح عينيه على الحياة، إلا فى روايتى".

- ٢ -

"ولكن من الذى قال إن الرواية إما أن تكون على النسق الغربى أو لا تكون؟ وإن الحب إما أن يكون على مثال ما عند الغرب، أو لا، فهو غير موجود؟".

إبراهيم المازنى

مقدمة رواية: إبراهيم الكاتب - ١٩٣١

"أُسْقِطَ في يدى
الحبِ".

وسط قاعة الترانزيت وقفتُ لاهثاً .

أبرقت المقاعد بلون الزيت العكر ، وتخافتت الأضواء . دعكتُ جفنى ونظرتُ إلى ساعة القاعة : السادسة صباحاً ، ولا زال أمامى أربع ساعات قبل أن أواصل الرحلة إلى مدريد .

أرجح المعطفُ يمينى ، وأرجحت الحقيبةُ الصغيرة يسارى . أسرعتُ إلى المقعد الذى تعلوه صورتا الملك وولى العهد . وضعتُ الحقيبة على المقعد الجلدى الفسيح ، ثم نترتها وجررتُ ساقىّ إلى المقعد الذى تعلوه ساعة القاعة . تمددتُ والمعطف يغطينى . لانت الحقيبة تحت رأسى ، والتحم جفناى : ستنام أم ستموت ؟

غلّلنى المعطف بالعتمة وأدفأ أنفاسى .

"لا تجعلْكه . خلّيكْ مرتّبْ" : تأمرين مكشرة .

والله أحب تكشيرتك ، ولولاها ما ابتسمت ، ولا انقلبت على جنبى متلذذاً ، وأنتِ الآن مثلك مساء البارحة : تقودييننى إلى الصالحية ، ومن واجهة إلى واجهة جعلتنى أكشّر ، وأنتِ تتفحصين الألوان والموديلات والأسعار ، ثم تدفعيننى أمامك إلى صالة الرجل العصرى ، وتختارين هذا المعطف .

"هلّقْ سافرْ" : همستِ وأنا حائر بين غضبكِ ورضاك .

خرستُ كأنى ابن عشرة : أمى تشترى لى بذلة العيد للمرة الأولى أو الأخيرة . وفجأة وقفنا . سكتنا كما فعلنا حين التقينا أول مرة . وفجأة تسابقنا إلى التاكسى التى طارت بنا إلى المزة ـ جبل ، كما سيطير بنا درج الطوابق الخمسة إلى الغرفة ـ العش ، وكما

ستطير بنا الغرفة ـ العش حتى تتواصل خبطات سالم وراغدة وعبدالنور .

عبد النور وأنت : لكأن أحداً لم يكذب على أحد ، ولم يقاطع أحداً ، ولم يصالح أحَداً . لكنك تتراءين الآن فى السبات عينه : شلل هو أم انسحاب أم احتجاج أم سؤال أم مقاومة أم ماذا ؟

والخبط ينتر المعطف عن وجهى ، وعيناى تطيران إلى المرأة التى انحنتْ تلتقط ما تبعثرعلى البلاط ، بينما يسرع نحوها الشاب الذى يضحك ويبربر بلغة ما .

وقفت المرأة ساخطة ، وبربرتْ بلغة ما وهى تلحق بالشاب إلى المقعد الذى تعلوه صورتا الملك وولى العهد . وتقلّب رجل ضخم على مقعد قريب من مدخل القاعة ، وأخذت عيناى تحصيان النائمين الذين لم أر أحداً منهم حين دخولى .

دعوتُ الله أن يظلوا قلّة وبعيدين وهادئين ، كى تظل لى هذه الخلوة بك . وكنت صادقاً عندما حرنتُ فى حضنكِ : لن أسافر . لستُ قادراً على أن أبتعد عنك عشرين يوماً . اسمعينى الآن : لستُ قادراً على أن أبتعد عنك لحظة .

"لكنّ شهراً بطوله يمضى وأنتَ فى الضيعة ، وأنا فى الشام" : تقولين الآن ، فأحبس البكاء من جديد : هذا ليس وداعاً . لكأنه فَصْم .

* * *

كان سالم وراغدة قد غادرانا ، وعبد النور يكرر وصاياه العشر

بمعرض الكتاب الذى سيعيد لإسبانيا مجد العروبة والإسلام، وأنا أغضى، أريد أن أنسى ما كان يوماً منه ومنكِ. وحين خرج كانت الثالثةُ التى عليّ أن أسبقها إلى المطار، قد فاتت.

احتضنتْ رأسى مثلما كانت أمى تفعل كلما مرضتُ أو سافرتُ. غفوتُ قريراً حتى أجفلتنى شهقتُها. كان وجهها بعيداً، وكانت تبكى. ابتعدتُ ولعنتُ إسبانيا وحلفت: لن أسافر، فعادت إليّ تشرق بابتسامة، وأمرتْ بصوت أمى:

ـ يلّله يا حبيبى يلّله. يا دوب تلحقُ طيارتك.

كان الصوت مشروخاً، لكنه حاسم، فمن التى كانت إذن تدندن مع سالم مرة، وتنفرد بشجوها مرة، وعبد النور يهمس مرة:

– لماذا لا تتزوجان؟

ومرة:

– ظننتكما متزوجين. أقله زواج عرفى.

ومرة:

– هبة ثلاثينية وأنت أربعينى. لستما صغيرين على الزواج.

ناديتها لتسمعه، لكنها كانت قد رفعتْ صوت المسجّلة، وبدأت ترقص، فانطلقتُ محرفاً الأغنية كعادتى: ولا مرة شرشحنا الهوى ولا مرة، لكن راغدة وقفتْ آمرة:

– سكوت. النشيد الوطنى للأستاذ سعد أيوب والأستاذة هبة عمّار.

حاولتُ أن أصحح لراغدة، لكنى نسيتُ كالعادة مطلع الأغنية

العراقية التى كانت هبة تفتتح بها سهرنا، حتى أطلقتُ أغنية ملحم بركات، وصار نشيد يزاحم نشيداً.

* * *

تضافرت أصواتنا، واندفع سالم وعبد النور إلى الرقص، تتوسطهما راغدة، وتعلقتْ عيناى بكِ: كنتِ ـ أنتِ الآن ـ غيمة بيضاء ويتيمة، تتبدد. وقفتُ مرتاعاً، فأقبلتِ مثل غيمة قزحية رهوانة. جلستُ رانياً أتهجد بما كان صوتُ أمى يتهجّد به: صدر مثل الفضة وصفّ أسنان مثل اللولو. سيقان مسكوبة مثل الشمعة، وشعر ـ يخزى العين ـ شلّة حرير. تضرعتُ لشعركِ أن يبلغ خصركِ قبل أن أعود من إسبانيا، وأنتِ تنحنين على رأسى، تغمريننى وتضوعيننى وتهمسين: الله يمد بعمركِ يا أم سعد.

من أين لكِ هذا الكشف؟

كتمتُ السؤال وقلتُ:

– أنتِ تقرأيننى وقت تشاءين، وكيف تشاءين.

وتوهتنى نظرتك فقلتُ:

– بودى لو بقى فيّ سر واحد أكون قادراً على كتمانه عنكِ.

فابتعدت صادحة:

– أنتَ ورقة بيضاء. لا، أنتَ ورقة ياسمين، هذه أحلى، ولا تحفظ سراً، صحيح، لكن آه من غموضك.

غموضى أم لخبطتى؟ تساءلتُ وأنا أنهض متمنياً أن أكون دقيقاً ومنظماً حد الغيظ، كما تردد هبة. وامتلأ صدرى برائحة الجبنة

الساخنة. تلفتُّ وإذا بثلاثة خلفى يتسابقون فى قضم الساندويش. حملتُ الحقيبة والمعطف الذى اندعك، وأسرعتُ أبحث عن عن سندويشة، وكانت هبة تلقمنى قطعة من الأرضى شوكى وتعنفنى:

– قضيت السهرة بلا لقمة. لمين عملت هالأكل كله؟

– عيونى كانت عم ..

قلتُ فقاطعتنى بلفافة من ورق العنب آمرة:

– عجّلْ. تأخرت.

كررتُ ما كان عبد النور حريصاً على أن يستفزها به كلما جمعتنا سهرة مثل سهرة البارحة:

– يا أخى طبخ الكاتبة غير شكل!

– صديقك ما بيقول الكاتبة، بيقولْ المتحررة. عجّلْ دبّرْ سيارة توصّلك للمطار.

صححتْ لى، فقلتُ وأنا آتى على ما تبقى فى كأسى:

– يا أخى طبخ المتحررة غير شكل!

فتحتْ الباب غاضبة وصاحت:

– بيعيّروا الكاتب إذا طبخ.. آ؟

– بيعيروا المتحرر.

صححتُ لها، وسرقتُ قبلة من شعرها، ولم أجرؤ على أن أقول: عبد النور المربع صديقك كما هو صديقى. وخرجتُ أبحث عن سيارة، وبعد دقائق ممضّة عدتُ لاهثاً أودعها، آخذ الحقيبة الكبيرة والحقيبة الصغيرة، أدخّن، أخشى أن يخوننى الصبر وأنقض اتفاقنا:

لا هاتف ولا رسالة عشرين يوماً، أصغى إلى السائق يشكو لى عرض جاره أن يعمل قواداً له، يقسم برأس المصطفى أن سعر الليلة الواحدة مع زوجة هذا النقيب الذى ابتلى بجيرته: مئة دولار، ما عدا الأكل والويسكى، وطبعاً: إذا فيه هدية أحسن وأحسن، وفجأة صاح بى المعطف: وينك يا سعد؟

صحت بالسائق: ارجعْ.

صحت بالبيت: وينك يا هبة؟

صاح بى السائق: أكيد لحقتك ع المطار.

لعنتُ المعطف والذاكرة والنسيان، وخفتُ عليها من الخروج وحدها فى هذا الفجر البارد، ولا بد أنى هددتُ وتوعدتُ، ولا بد أن السائق حسبنى زوجاً صارماً، إذْ قال:

– لولا حرصها عليك يا أستاذ ما غامرت.

ولا بد أنه قال بعد قليل:

– هلّقْ برجّعها معى.

فخفت أن يمكر بها وبى، ويأخذها إلى جاره، وكنت ألهث كأنى فى سباق: عانقتها وأنا ألهث، أمّنتُ السائق عليها بأمانة المصطفى وأنا ألهث، لحقت بالطائرة وأنا ألهث، ومن دمشق إلى عمّان ظللت ألهث، بينما النادل يناولنى الآن سندويشة ملاطفاً:

– على مهلك يا أستاذ. شو صاير بالدنيا؟

التقطتُ أنفاسى، وتدفأتُ بسخونة الشاى والجبنة. وعندما أخرجتُ علبة السجائر، تناهى إلىّ صوتكِ: ولا مرة سافرنا سوا ولا

مرة. تمتمتُ: لا تحرفى الأغنية ولا الوقائع. وهتفتْ راغدة: النشيد الوطنى، لكن صوتاً قاطعها مجافياً، يأمر المسافرين إلى مدريد بالتوجه إلى البوابة رقم ٦.

هبة: أحبك.

مدريد ١

"من أين يبدأ عاشق بمديح من يهوى؟
من أين يقرأ عاشق تكوين من يهوى؟"

محمد عمران

.. أما هذا السرير فلا يتسع لاثنين متجانبين. وبالطبع، لا يمكن لأحدهما أن يظل فوق الآخر أو تحته طوال ما يقتطع النوم من الليل.

وهذه الخزانة لا تتسع لثيابى وثيابكِ. هذه الطاولة الصغيرة لا تتسع لأوراقكِ وحدكِ. هى غرفة أصغر من غرفتنا الصغيرة، لكن نافذتها ترمينى هذا الصباح فى خريف هذه الحديقة. بوسعكِ أن تقولى: هذا ربيع، على الرغم من صفرة الأوراق. وهذه نسمة ربيعية تحمل عبق هبة الدائم، تدغدغ عشبَ هذا المرج، وشعورَ أولاء الشبان والصبايا، فأنا نزيل السكن الجامعى، ولكِ أن تشمتى:

– دعوة خاصة للكاتب الكبير سعد أيوب ـ ما شاء الله ـ وعشرون يوماً لمحاضرة واحدة ـ ما شاء الله ـ والضيافة فى السكن الجامعى؟

ربما أراد دييغو أن يعيدنى إلى صباى، لكنه مثلكِ لا يعرف أن منظفة الغرف طرقت الباب، وأنى بتُّ بقدرة قادر بلبلاً فى الإسبانية، ففهمت أنه موعد تنظيف الغرفة، وأننى تأخرتُ فى النهوض، وفهمت الشابة المكتنزة ـ مثل راغدة ـ أن عليها أن تتريث، وأننى ضيف مهم، شاءت هبة عمار أم أبتْ.

اغتصبتُ الوقت، وأنتِ تعلمين كم أمقتُ ذلك فى الصباح. أضعتُ معجون الأسنان الذى اشتراه لى أمس دييغو ـ دييغو أم إيلينا أم مديحة؟ ـ وهربتُ من الشابة المكتنزة التى يسيل لها اللعاب. إيْ نعم يا ست هبة: يسيل لها اللعاب.

دعينى إذن أحسد هذين الشابين وهاتين الفتاتين. على الأقل

دعينى أتحسر، لأن وجنتى عاملة الكافيتريا تغامزتا عندما ابتسمتْ وتناولتْ من كفى المفتوحة ما لا أعلم من البيزيتات، وعندما ناولتنى قطعة الكيك وفنجان الشاى، فشكرتها بالعربية، وارتبكتُ.

دعينى أتعثّر وأنا أمضى إلى أقصى الكافتيريا الفارغة، فيندلق الفنجان على المعطف، وأكتشف أن الشاى، ممتزج بالحليب، وقطعة الكيك سقطت على الأرض، وكانت عيناى تستنجدان، ووجهى يربدّ، والفتاتان تسابقان الشابين إلى نجدتى، فتسبقهم عاملة الكافتيريا، وتشتبك العربية بالإسبانية بالإشارات والحركات والأسف والابتسامة وقطعة الكيك الجديدة وفنجان الشاى الجديد بلا حليب، والمعطف الذى تبقع يفرّ منى إلى مسند الكرسىّ القريب. من المؤكد أن اللعين يشكونى إليكِ.

اضحكى ومدى لسانكِ وناكدينى ودعينى أهرب من هذا الشاب الذى يحدق بى من خلف الزجاج، كأنه أخى قتيبة. لقد قررتُ أن أنسى كلّ ما خلّفتُ إلاّكِ ـ أم أنتِ أولاً؟ ـ وبخاصة قتيبة الذى حلق لحيته وسالفيه الآن، حتى يشبه هذا الشاب، ويغيظنى بنظراته الكابية، وبصفرة خده والهلع الذى كان يرمى أمى به كل صباح.

ينبغى أن أجد حلاً لبقع المعطف. سأسرع إلى عاملة الغرف، لعلها تعيننى. لكن اللعينة اختفت، وليس لى إلا دييغو الذى يلاقينى على الدرج مشيراً إلى ساعته:

– دقة المواعيد الأوربية لا تليق بك كعربى، ولا بى كإسبانى.

ودييغو يجيد العربية مثلكِ، لكنى قبل قليل تفوقت عليكما

بلغة الكافتيريا : لغة اللالغة ، تماماً مثل غبطة الشابين والفتاتين ، مثل أفق أى طالب وطالبة ، زميلين كانا أم عاشقين ، بل مثل ألق عينى دييغو ـ هو ستّينى ، وأكثر وسامة من سالم برهوم وإسبر فارس ومظهر العبدون . . وبالطبع منى ـ الذى يتدفق منذ عانقنى على رصيف المطار ، ودفعنى إلى عناق مديحة وإيلينا .

* * *

إيلينا ومديحة فى مثل عمرى . بكم سنة نكبرك إذن ؟ لا تكشرى ، فبين الثلاثين تقريباً والأربعين تقريباً سنوات كثيرة ، جعل منها مظهر العبدون حوار أجيال ، وجعلتك كاتبة ، وطوحتْ بى كاتباً ، كما طوحت بمديحة من حمص إلى مدريد ، أو كما جعلت من إيلينا أستاذة فى جامعة أوتونوما ، وصاحبة دار نشر طموحة وفقيرة وموقوفة على ترجمة نصوص عربية حديثة إلى الإسبانية .

دار إيلينا ـ سأحفظ اسمها فيما بعد ـ ستنشر قريباً جداً ترجمة مديحة وكريسبولا لروايتى الأخيرة . وبالله العظيم وتالله الكريم كنت سأحدثها عن مجموعتك القصصية ، بل كنت سأقترح ترجمتها ، على الرغم من زعمى بتواضعها .

لكن دييغو تدفق ، واسم المطعم سحرنى قبل أن ندخل : منية الأطرش ، وهذه صورة لغويا فى صدر المطعم ، وبيته فى الجوار ، فى مكان قريب على ضفة هذا النهر الصغير الذى فرض على العرب أن يجروا المياه لجريطهم من تلك الجبال ، وذكّر مديحة ببردى ، فهمستْ :

– بردى هذه الأيام ساقية . المنثاناريث أكبر وأنقى ، أحلى .

فتأوه دييغو ، وتدفق غزلاً ببردى على عهده قبل أن تُخْلَقى .

وفجأة انعقد حاجباه ، وجزم أن حرب الخليج ـ عنى حرب الخليج الثانية : العراق والكويت و . . ـ كانت مليئة بالأخطاء والأكاذيب . ولجأت عيناى إلى مديحة ، فأطرقتْ ، وزفر دييغو مردفاً كأنما يخاطب نفسه :

– لم أشعر بمثل ما شعرت به أيام هذه الحرب من الخجل والسخط ، سوى مرات معدودات فى حياتى . كان يملؤنى إحساس بالخديعة والعجز .

ثم تنقلت نظراته بينى وبين مديحة ، وخاطبنا :

– أخشى أن العرب سيعيشون فى نهاية القرن العشرين الوشيكة ما عاشوا فى مطلعه . هذه الفكرة تعذبنى . أتمنى أن يكون لديكم عدد كاف ممن يعون الخطر الذى أنتم فيه ، ويستطيعون الرد المناسب . أنا سأكون دائماً فى صف هؤلاء .

كان صوته يرجف بتأثر عميق . وربما أضاف هو أو إيلينا أن العالم العربى يبدو نوعاً من المجهول ، كأنه سراب . وانفلشتُ وتلملمتُ : هو سراب حقاً ومجهول حقاً ، وحدقتُ فى مديحة علّها تلجئنى من الحرب التى أنجزت كسر ما كان قد تشقق بينى وبين مظهر العبدون ، فرأيت إلياس مرقص على فراش الموات ينذر بقيامة الحرب وهزيمة العرب جميعاً ، وليس العراق وحده ، ورأيت إسبر فارس فى بذلته العسكرية يعد على أصابع يمينه القنابل الارتجاجية

التى فجرت الألغام العراقية، والحرب البرية المتواصلة أربعاً وعشرين ساعة لأول مرة فى التاريخ، وأجهزة الرؤية الليلية والصور الحرارية، ورأيت مظهر العبدون يجهر بالشماتة، وكان دييغو يدعونا إلى أن ننسى ما قال.

كنا قد أتينا على زجاجة النبيذ الأولى، بعدما قدم النادل ضيافة المطعم التقليدية: كأس من الكونياك. وربما كان صوت إيلينا الدافئ ـ مثل نظراتها ـ قد أكد أن دييغو ليس أستاذنا فى الجامعة وحسب، بل هو معلم للمجتمع. وها هو الآن على الطريق من السكن الجامعى إلى كلية علم النفس، يقهقه لدهشتى من أن يحمل دكتوراه فى التاريخ الاقتصادى لمصر، وبالضبط: فى العصر الوسيط!

– ما الذى جاء بكَ إذن إلى الأدب العربى الحديث؟

سبقتكِ بالسؤال، وأنا أحدق فى شيب سالفه، وحمرة واكتناز خده، وتدفقَ:

– بدأت بلوركا، وهو أورثنى الأندلس. لا تنسَ أننى ابن جيّان. أرجو أن تراها عندما تزور الأندلس.

وسكت، فهممتُ بأن أؤكد له كما أكدت لكِ أننى غير ملهوف لزيارة الأندلس، لكنه عاد يتدفق:

– بدأت بتاريخ اليهود: اليهود العرب أو الأندلسيين أو الإسبان، لا فرق عندى: اسحاق بن قسطار، هل تعلم أنه طبيب وعالم منطق وفقيه فى العربية والعبرية، ولذلك عاش عازباً؟ بعده كتبت عن إبراهيم بن الفخار وسفارته لألفونسو ـ ملك توليدو ـ عند ملوك

المغرب. لكن موسى بن ميمون شغلنى أكثر: براعته فى الرياضيات والفلسفة واللاهوت مثل براعته فى الطب. ثم شغلنى الحبر حسداى بن اسحق ـ صاحب الفاروق فى الترياق ـ ومروان بن جناح.. وفجأة انتقلتُ إلى الشاعرات الأندلسيات: قسمونة بنت إسماعيل ـ أبوها أيضاً شاعر يهودى ـ وعائشة التى توفيتْ عذراء، وصفية بنت عبد الله الخطاطة التى ماتت دون الثلاثين، وحمدة بنت زياد التى عُرِفتْ بخنساء المغرب.

وبعد سنواته الأندلسية جاءت سنواته المصرية، فهل يكون نبضه الأندلسى ونبضه المصرى قد أورثاه نبضه الفلسطينى؟ سأحدثك عنه فى مظاهرة أيلول ١٩٨٢ فى ميدان لابلاخا، فى قلب مدريد. أظن أنه عنى مجازر صبرا وشاتيلا.

* * *

بين سيارات الطلبة رَكَنَ سيارته. وبين طالبتين جلس وأجلسنى، لنستمع فى القاعة الكبيرة إلى الدكتورة عايدة سيف الدولة ـ القادمة من مصر ـ والدكتور سراج ـ نسيت كنيته ـ القادم من غزة.

بعد قليل تلفتُّ مستطلعاً: عدد قليل من الشبان والشابات فى مثل عمرك، فأصغر، يتلقفون ترجمة إيلينا للمحاضرتيْن.

لم أكن بحاجة لعايدة كى أعلم أن الختان ليس ظاهرة إسلامية، وأنه انتعش بعدما اضمحل، مع انتعاش الأصولية أو الأسلمة أو الإرهاب فى مصر: لن أماحككِ الآن فى التعبير الأوفى والأدق، لكننى لن أملّ من أن أردد: كل الأصوليات سواء، إسلامية كانت أم

مسيحية أم يهودية أم ماركسية أم شيطانية أم . .

تركتُ عايدة وسراج يحاضران، وتهت مع عصمت سيف الدولة ـ هل تكون عايدة ابنته؟ ـ في الأسس التي وضعها للثورة العربية. وتهت مع ما أبرمت أوسلو بين فلسطين وإسرائيل، ورحت أسأل سراج عن يحيى يخلف وليانة بدر وغسان زقطان وسحر خليفة، وتجنبتُ أن أسأله عمن عرفتِ وعرفتُ من السياسيين من بقية هذا الرعيل الفلسطيني. كنت أود أن أسأل سراج أيضاً عمن صادقتُ في بيروت من الفلسطينيين غير الساسة ـ هل من فلسطيني أو عربي غير سياسي؟ ـ لكن دييغو أسرع بي من القاعة الكبيرة إلى مكتبه. وفي الطريق أراني الإعلان البدائي الصغير عن معرض دار عبد النور المربع للكتاب في مقر النادي العربي، ثم أراني الإعلان البدائي الكبير ـ في اللوحة التالية ـ عن محاضرتي العتيدة التي لم يكن لكِ من الفضول ـ أو الاهتمام؟ ـ ما يكفي لقراءتها، مع أني تركتها عامداً على الطاولة طوال ذلك النهار.

في مكتب دييغو يضيع الجمل، وبخاصة منه ذلك الأرشيف الذي يصنعه للأدب العربي الحديث. ضقتُ بالمكتب وضاق بي حتى جاء الفرج مع إيلينا وأنطونيا وربما رابعة أو خامسة: أين اختفى الذكور؟

أولاء مع أخريات ـ تشرح إيلينا ـ أسّسن منذ سنين في هذه الجامعة معهد الدراسات النسائية. هل أبحث عن مكان بينهن للأستاذة هبة عمار؟

هنّ جميعاً متطوعات، ومن كافة أقسام الجامعة، ينظمن ندوات

ومؤتمرات، كان آخرها: المرأة في أمريكا اللاتينية: تشرح أنطونيا متعثرة بالعربية، فتزقو ألثوثينا ـ هي عصفورة حقاً ـ أنهن يطبعن أبحاث المشاركات في ثلاثة آلاف نسخة: تماماً مثلها لربع مليار عربي ونيف، ليس من أعمال مؤتمر أو ندوة، بل من رواية لنجيب محفوظ!

صار معهد الدراسات النسائية شرعياً منذ شهور ـ قال دييغو متباهياً ـ وسأحمل لكِ ما حمّلتني إيلينا من مطبوعاته بالإسبانية، فابحثي عن مترجم منذ الآن، وليته يكون رفعت عطفة، على الأقل لأن له في قصصك الأولى مثل رأيي: كشّرى: والله أحب تشكيرتك.

من مطعم غويا ـ لا تنسى: منية الأطرش ـ حملتُ لكِ أيضاً هديته التقليدية: فاز مطرز بالسحر، ولم أجرؤ على أن أطلب اثنين، ولو فعلت لكانا لكِ. أما الآن، فهذا هو العيد الذى حملته لكِ قبل أن نذهب إلى المطعم:

كان دييغو وإيلينا ومديحة قد سمحوا لي بساعة فقط، لأنتهي من آثار السفر، ثم ننطلق حيث تشاء سيارة دييغو التي أطلقت عينيّ تنهبان هذا الفضاء الأليف، كأنه فضاؤكِ: من المطار إلى السكن الجامعي، ومن السكن الجامعي إلى قبالة القصر الملكي الذي كان قصراً للاستقبال زمن فرانكو.

ها هنا زجّ دييغو سيارته وهتف:

– يلّله ع العيد.

قرب القصر تربض الكنيسة، وهذا هو عيد عذراء مدريد، وسكرتْ أعماقى بالهتاف: سأحمل هذا العيد إلى عذراء الشام، وهمستُ لدييغو:

– لى صديقة جددتْ تعريف العذراء.

ولم أجرؤ على أن أسميكِ، ولم أنتظر أن يسأل، إذ تابعتُ بصوت أعلى:

– العذراء بالنسبة لصديقتى هى من كانت بلا زوج، وليست فقط من تحتفظ بذلك الغشاء. قد تكون أرملة أو مطلقة أو ذات صديق، وقد يكون لها ذلك الغشاء أو لا يكون. المهم ألا يكون لها زوج.

قهقه دييغو وفضحنى ـ فضحكِ أمام إيلينا ومديحة اللتين قهقهتا، واندفعتا تستعيدانى تعريفكِ للعذراء، فاستجبتُ، وانتظرتُ أن يسألونى عنكِ، كما انتظرتُ دييغو أن يفعل وهو يقدم لى ابنته بروسة، ولولا ذلك ما همستُ له:

– بروسة تشبه صديقتى.

لكنه غمز وقال:

– بروسّة تعنى بلغتكم وردة.

أقبلتُ على وردة أتقرى فيها ملمحاً منكِ، وكنا ننتحى الزاوية الشرقية المفتوحة فى كافيتيريا الجامعة: بروسّة قبالتى، لكننى فجأة صرت أتحاشاها، لأننى افتقدت أىَّ شبهٍ لها بكِ.

جلس دييغو بجانب ابنته، وتوسطتُ انطونيا وإيلينا. وبعد

الزجاجة الثانية من البيرة صار وجهانا يتقابلان: انطونيا وأنا: هى تتعتع بالإنكليزية، وأنا أتعتع بالفرنسية راجياً أن يظل الآخرون لاهين عنا بذيول محاضرتى عايدة وسراج.

أخذ خدا انطونيا يتقدان عافية ـ هل أقول: اشتهاءً؟ ـ وكأنما بات شعرها يهفهف، وصوتها يقطر رقة ـ هل أقول: اشتهاءً؟ ـ لكن لغة اللالغة حرنتْ فجأة، فصرتُ أتحاشاها، بل هى التى أخذت تتحاشانى، فيما شغلْتِنى عن الجميع، وعن نفسى.

هبة: أحبك.

من مغـارة إلى مغـارة ١

"أنت حقيقتي وأنا سؤالك"

محمود درويش

.. إذاً ليس هو فقط من حرّف فى أغنية ملحم بركات، لتغدو نشيدهما الوطنى. هى أيضاً حرّفتْ: ولا مرة سافرنا سوا ولا مرة، ولم يكونا قد تبادلا غير قبلة وضمّة.

كانت الشمس الحارقة قد صارت ظلاً وارفاً، لأن سعد دفع مائة ألف ليرة، وصارت له سيارة: كولت مستعملة، سماها إسبر فارس: غزالة، وكفل أقساطها، وها هو يدشنها مع هبة التى لن تصدق أن الترجمة أو التأليف لدى أى مركز للأبحاث فى بلاد العرب يمكن أن يدرّا عربون سيارة وأقساطها، حتى لو كان العراب مطاع أكرم، أو كان المترجم أو المؤلف سعد أيوب، أو كانت السيارة فى حال أسوأ من حال هذه الغزالة: ريتها ألف مبروك يا حبيبى. رحْ اعملْ لها حفلة ما صارتْ. روحْ اعزم كل من هبَّ وما دبَّ.

لكن سعد لم يدع إلا راغدة وسالم.

والآن: راغدة تغنى، سالم يغنى، هبة تغنى، وسعد يهوّن على الغزالة الطريق الصاعدة الضيقة المحفرة: اصبرى لنرى إلى أين تمضى بنا هبة.

على مشارف يبرود أشارت هبة إلى القمة: هنا، وضيعتْ صيحاتُ راغدة وسالم شهقةَ سعد. وقبل أن تأمر هبة الغزالة بالوقوف، كان سعد قد جُنّ مثل هذه التى قضت صيفاً بطوله فى هذه المغارة، مع بعثة أمريكية للتنقيب.

فى باب المغارة فُرِشَتْ الحصير الناعمة الملونة، وتوزع المنقل والصحون وأكياس الخبز واللحم والبندورة والصحون والبصل

والملح.. ولم تنس هبة شيئاً إلا الفحم: يلله على جمع الحطب يلله.

إلى السماء كانت الصخور تتلع بتيجانها المدببة والمكسورة والمسنّنة والمدوّرة. وعلى باب المغارة كانت تهوى بضربة بتّارة ألجأت راغدة وسالم إلى جوف المغارة. وتقلّبتْ الصخور والتيجان بهبة وسعد فى الأفق الذى ترسمه البساتين والخاريط ـ المكللة بما تبقى من الثلج ـ والمغائر المتتالية والمتداخلة.

فيما تبقى من النهار كانت هبة تنفث سحرها فى سعد: زمن مطير وغابات لا متناهية ودببة سمراء ووعول وقطعان من الماعز الأسود: انظرْ يا حبيبى: نحن عاريان نتقدم قطيع عراة، ومن العراء إلى المغاور: يلله يا سعد: سنحفر فى الصخور مسكناً ومدفناً، ونقدّ من الصوان نصالاً، ومن سواه أزاميل وفؤوساً ومقاحف ومكاشط، وسنطبع على الطين بصمات أقدامنا وروْعنا وشبقنا، كما يطبع وحيد القرن أو السلحفاة أو الكركدن، وننقش على جدار هذه المغارة معصرة للزيت، وعلى جدار هذه المغارة معصرة للعنب، ثم نؤوب يا حبيبى من مئة ألف أو من مائتى ألف سنة إلى هذا الوادى، ونسأل الدهر عن قشور البيض وكِسَرِ العظام والرماد، منذ ما قبل التاريخ إلى التاريخ، ليبطل السحر، وينجلى وادٍ عن هبة عمار التى فقدتْ عملها فى مجلة أو فى إذاعة، واهتدتْ إلى بعثة أمريكية للتنقيب، كى تقضى ستين يوماً هنا، بالضبط: هنا، تهيئ طعاماً أو تحضر ماءً أو تجادل فيما تجهل من التاريخ وفيما تعلم مما قبل التاريخ، وتتقشر جلدتها وتنتأ عظامها، وتنسى الدولارات التى تنتظرها،

وتشغف بالعالم الشاب الذى ستنكر أمام سعد أنها عرفته يوماً، كما ستنكر أمام أبيها وأمها وشقيقيها وشقيقتيها، لينسوا غيابها، ويأنس سعد لامرأة عاشت هنا كما عاش قبل مائة ألف أو مائتى ألف سنة ـ ما الموت وما الحياة إذن؟ ما التاريخ؟ ـ فيتربع على الحصير الناعم الملون إلى جانبها، ويملأ صدره برائحة الشواء والرطوبة، ويكرع العرق، ويعطّر به هبة، ويراقص راغدة التى سكرتْ وبكتْ وأرختْ رأسها على كتف سعد حتى أغفتْ، بينما كان سالم يهيئ لنفسه مطرحاً داخل المغارة الصخرية العميقة التى تتعاظم فجواتها، مثلما كان يفعل طوال أربعة عشر عاماً وخمسة أشهر وأربعة عشر يوماً، منذ اعتُقِلَ حتى أُفرِج عنه قبل ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ويوم. وقبل أن ينتهى من تهيئة مطرحه كانت راغدة قد صحتْ ولحقتْ به، ولم يكونا من قبل قد تبادلا كلمة أو إشارة غزل واحدة، حتى وهما يستطلعان المغارة منذ ساعات، فى عتمة العصر.

أما فى باب المغارة، فقد كانت ليلة هبة وسعد الأولى: جسد يتهجّى جسداً، وروح تتهجّى روحاً، وعرى يصل الزمن المطير بقمرة هذه الليلة، ويخصّ كائناً بأن يكون أنثى وكائناً بأن يكون ذكراً، ويسربلهما ببرد أدفأ من الشمس التى باكرها تثاؤب سالم وتحيته وسؤاله عن مرحاض بعثة التنقيب الأمريكية:

– أمامك كل هذه الفلاة.

أشارت ذراع هبة. ولما ابتعد سالم خُيِّلَ لسعد أن هذا الفنان الذى عاد عليه سجنه بالشهرة الكبيرة المفاجئة، قد عاد حقاً طالباً فى

كلية الفنون الجميلة، يصل ما قطع السجن على الطالب الذى كان يتأهب للتخرج، وهو حيران بين شقٍ من الحزب الشيوعى وشق، بل بين أىّ شقٍ وشق من أى حزب قومى يتمركس أو يتأسلم، وفى كل لوحة من لوحات الفنان الشاب الواعد يسطع إيمانه الذى ورث من أبٍ (حاجّ) وأمٍ (حاجّة) لم يتشاجرا يوماً، ولم يعنفا ولداً ولا بنتاً ولا جاراً ولا جارة، ولم يقطعا رحماً، ولم يكذبا أو يتأففا أو يفوتا فرضاً ولا نافلة، لكن ذلك لم يحم سالم من المقدور، ما دام آخرون قد رفعوا راية الجهاد، وسواهم قد رفعوا بيرق الكفاح. ولعل سالم فرّ من حمأة الاغتيالات والمناشير والخطابات والاجتماعات السرية والعلنية إلى لوحة فلوحة، حتى سيق من سجن إلى سجن وهو يتلجلج فى جواب لمن يسأل عما إن كان معارضاً من أى لون، أم هو لا مبالٍ، أم هو منحوس حتى يقضى أربع عشرة سنة وخمسة أشهر وأربعة عشر يوماً فى غيابة الجب، ثم يخرج فوراً إلى المقبرة التى آوت الحاجّة فالحاجّ. ولعل المقبرة قد أحسنت إليه إذ لفظته إلى حضن إسبر أو إلى حضن راغدة، لا فرق، ما دام الحول قد حال على فكاكهما، فأمكن لسالم أن ينتقل إلى عصر المعلوماتية، ويعمل لدى إسبر أو معه، أو لدى غيره أو معه، فيصمّم غلافاً لكتاب أو ملصقاً ـ ما همّ أنه لم يدرس الإعلان ـ ويبيع لوحة مما اكتنز له السجن، كما يبيع ما حفظ له إخوته من إرث الحاج والحاجّة، كى يشترى بيتاً مطلاً على بردى الناحل، ويدعو إليه راغدة، ويلبى نداء الشهرة معرضاً فمعرضاً، ويصدق أن معمل نجها للنباتات الطبية لا

يقوم إلا بفضل المهندسة راغدة التى ستحمل له عما قريب الشاى مع حب الهال، كما كانت تحمله لأم إسبر وأم سعد، قبل أو بعد أن تصير عذراء بحسب نظرية عذراء الشام فى العذرية:

– هبة: أين راغدة؟

تساءل سعد وهو يلتفت إلى باب المغارة، فقالت هبة ببرود:

– راغدة كان بدها إياك البارحة.

فتشاغل بإعداد القهوة، لكن هبة تابعت:

– كان لازم ترضيها.

– كيف؟

– كيف بيرضى الرجّال المرا؟

– وسالم؟

– كان بدها إياك انت، وانت كنت بتعرف إنها ..

– ولو حصل يا هبة؟

سأل مقاطعاً، فانتظرتْ حتى التفتَ إليها، وقالت باسمةً وحاسمة:

– كنا انتهينا، واحنا لسّه ف أول يوم.

ونهضتْ، وتمطتْ، ثم قرفصتْ بجانبه، وحركت بقايا الجمر فى المنقل قائلة:

– أنا بكمّلْ عنك. روح فيّقها.

فوقف يجيل النظر حوله، ثم مشى الهوينى داخل المغارة، وصدى صوت هبة يترجّع عميقاً وملتبساً، يبشر بالحب وينشد الحرية،

برفض الزواج ويقدس الصداقة: هل من أجل ذلك تدفعكَ هبة إلى راغدة؟ أم هى تختبرك؟

من لقاء إلى لقاء كانا قد استغرقا فى ذلك وفى سواه. وعلى الرغم من توكيدهما على ضرورة الاختلاف، كان يسكرهما أن يتقاطع نظرهما إلى ذلك وإلى سواه. لماذا تلوح إذن الغيرة، أو يلوح الامتلاك، فى صباحهما الأول؟

أعتمت المغارةُ السؤالَ حتى أضاءت لسعد أنفاسُ راغدة خطوتَهُ الأخيرة، فتكوّمَ قرب قدميها، وكانت ترمى الغطاء، وتنقلب من جنب إلى جنب.

– صباح الخير.

همس، فغمغمتْ، وانقلبتْ على ظهرها، وتلونتْ ساقاها بلون الصوان، فانسلّتْ أصابع يديه إلى أصابع قدميها، تمسح أو تداعب أو تنزلق من باطن قدم إلى ربلة ساق، فاستوت راغدة مبتسمة وممتنة، وخيل لسعد أنها مرتوية حتى الأظافر، والتفت كأنه يبحث عن سالم، فإذا بهبة واقفة خلفه.

– بردت القهوة.

قالت هبة بحياد، واستدارت، وفكّر فى أن العتمة سترتْ شهوة أصابعه. وعندما مسّدتْ راغدة على شعره، نضحتْ أصابعه بالشهوة، فأرسلها فى العتمة، لكن راغدة كانت قد خرجتْ.

مـدريـد ٢

"مِنْ تغيبْ
مثلْ مَتْغيبْ شمسَ اللهْ
احجى ويْ روحى بغيابَكْ
لا روحى تسمعْ
ولا أنا حاجى كلامْ" .

جمعة الحلفى

. . كما التقيتُ مديحة الدريّك منذ ثلاث سنوات، عقب محاضرة ألقيتها على طلبة كلية الآداب فى حمص.

كنت قد شرّقتُ وغرّبتُ فيما يكتب الجيل الجديد من الرواية العربية، لكأنى من عجائزها. لأول مرة سأعترف بين يديكِ يا ست هبة: أحياناً ـ منذ شهور ـ بات يداهمنى الشعور بأننى عجوز، ولكن ليس للرواية أو الكتابة فقط.

اقتربتْ صبية قصيرة ونحيفة، وبالكاد سمعتُ همستها باسمى، وبالثناء على المحاضرة، وبكلمات لم أتبينها، فلما استعدتها، ونظراتى ترتد عن الشعر الأشقر الخفيف القصير المنسرح، ذكرتْ مديحة جامعة أوتونوما وحسين مروة وأطروحة وصديقاً مشتركاً هو الدكتور عبد الوهاب بديعة: أفضل طبيب عيون فى حمص، ختمتْ متباهية.

فى ضحى الغد تناولنا القهوة معاً على ضفة العاصى الذى فاق بردى والمنثاناريث ومديحة نحولاً.

كانت نظراتى تقبل بحذر على رقة بشرتها ودقة أنفها ونتوء وجنتيها، وهى تتحدث عن إقامتها فى مدريد منذ تسع سنوات، وقبل ذلك فى الجزائر أربع سنوات. وفى ذلك اللقاء أو فيما تلاه، عندى فى الضيعة أو على ضفة العاصى ـ مع ديك الجن فى مطعمه ـ تحدثتْ مديحة عما كابدتْ من أشقائها ـ هى البنت الوحيدة بين خمسة ذكور يكبرونها ـ بعد موت أبيها، حتى اضطرتْ إلى أن تهاجر ـ تهرب، تبحث عن عمل ـ إلى الجزائر.

من تلمسان ـ سنتان فى التعليم الابتدائى ـ إلى وهران ـ سنتان فى التعليم الإعدادى ـ عاشت مديحة وحيدة قبل أن تلتقى بالدكتور عبد الوهاب بديعة عشية عزمها على الرحيل إلى مدريد. وسرعان ما مضت محملة بوصيته إلى رفيقه الدكتور جوزيف حواش.

عشق الرفيق المدريدى السورى مديحة، وعشقته، وتزوجا وأنجبا شفيع. لكن جوزيف الذى أكمل دراسته فى تقويم الأسنان وتجميلها، عاد إلى حمص منذ شهور، ومديحة حائرة فى خطوتها التالية.

كنت أزداد حيرة ـ من لقاء إلى لقاء ـ فيما يمكن أن أقدم لها، سواء فى أمر زوجها وابنها أم فى الأطروحة التى قبل دييغو أن يشرف عليها ـ أو سيقبل ـ واقترحتُ أن تكون نقداً لما كتب حسين مروة عن الفلسفة العربية الإسلامية.

أظنك لاحظتِ تهيبى الحديث فى الفلسفة، فعدّتى فيها متواضعة ـ كنتُ عَازماً علَى أن تكون دراستى الجامعية فيها، لا فى الأدب ـ ومديحة تظن أنى ضليع، لكن ظنها خاب عندما تفاقمتْ حيرتى بين مغازلتها ومسافة الأستاذ والصديق التى أصطنع، وكانت عودتها إلى مدريد قد اقتربت.

رفض الدكتور جوزيف حواش الذى أدار ظهره للشيوعية، أن ينجز تسجيل شفيع على ذمته: لن أبدل دينى، وأُسْلِمَ كى تكون لشفيع جنسيته السورية. تكفيه وأمه الجنسية الإسبانية والزواج المدنى الموثق فى مدريد. ليكنْ ابنى مسلماً كأمه أو مسيحياً مثلى، لا

يهمني. وما الذى يضمن لى ألاّ تتراجع مديحة عن الطلاق، لو استجبتُ وأسلمتُ وأكدتُ زواجى وأبوّتى فى سورية؟

كانت تحبس دمعتها وسؤالَ الرفيق، حين دخلتُ بيتها أول مرة عشية السفر. كان بيتاً فسيحاً، لكنه شبه عارٍ، ومشبوح على ورش إصلاح السيارات المتراكبة على طول الشارع. ولأن أحداً من أشقائها ـ بعد وفاة أمها ـ لم يعد يستضيفها فى إجازتها، تعودتْ على استئجار هذا البيت شهراً من صيف كل سنة.

كانت بالغة الهدوء كعادتها. ولعل إعلان الحقائب الصارخ عن السفر هو ما جعلنى أبلع حيرتى. وما إن اختفى شفيع حتى احتضنتُ كفيها، ثم كتفيها، وربما اندغمتْ فى حضنى، بل ربما اختفتْ، حتى أفقتُ على أنها هناك، قرب الباب، توشوش شفيع وهو يحرن، ثم تلتفت إلىّ بابتسامتها المجتزأة دوماً. ولأمرٍ لا زلتُ أجهله، عجّلتُ بمصافحتها، ومسحتُ على رأس شفيع: بالسلامة إن شالله.

لم تجمعنا من بعد سوى بضع رسائل وهاتف: سطورها مثل صوتها، تنضح بالرهق: هل تكفى رعاية شفيع والتعليم فى المدرسة العراقية وفى البيوت: عشر ساعات من صباح كل اثنين إلى مساء كل سبت؟

وفى رسالتها الأخيرة وهاتفها الوحيد ـ تعلمين ـ وصلتْ بينى وبين دييغو، كما وصلتُ بينها وبين عبد النور، وأنتِ تتعافين من سباتك، وتعاندينني فى الصلح معه. وحين رأيتها ودييغو فى المطار،

هزنى كم بدا فيه من الأبوة، وكم بدا فيها من الأمومة والبنوة معاً. ولو رأيتِ كم بلغ نحولها، لخفتِ مثلى من أن تتقصف فى أية لحظة. بصراحة؟ فكرتُ فى أن عظم عانتها يدقر دقراً. لكن دييغو مشدوه بصلابتها، كما كرر وهو ينقلنى من الجامعة إلى بيتها.

* * *

ودعته فى ساحة القديس بيلار، وقطعتُ متمهلاً ما يفصلنى عن موقف إيجليزا، ومع ذلك وصلتُ قبل موعد مديحة بعشر دقائق.

وأنا أعاين باب البناية الموصد، صدعتنى وصايا عبد النور العشر بمعرض الكتاب الذى ستنظمه مديحة لداره، كى يعود لإسبانيا مجد العروبة والإسلام.

لا أدرى لماذا لم أبادل مديحة حتى الآن كلمة حول المعرض. ولو درى عبد النور لشتم جدى وجدكِ وجد مديحة، ولصدعتنى أنتِ كأنك لا زلت فى ذلك السبات: هو عبدُ جيبه وليس عبد النور، هو صديق بقدر ما تقتضى مصلحته. أنا أعرفه أكثر منك. سأملأ أذنى بالشمع ضارعاً للصمم.

فجأة أحسستُ أن أحداً يراقبنى من على الرصيف المقابل. استدرتُ متضايقاً فإذا به قتيبة: لماذا لم تنجبْ أمى سوانا؟

اندفعتُ أقطع الشارع إليه، لكن قدمىّ لم تبرحا الرصيف: هذه هى لحيته الفاحمة القصيرة، هذان هما سالفاه الطويلان الكثّان ـ من الذى رأيته إذن فى حديقة السكن الجامعى؟ ـ وهذا بنطاله الجينز الذى ازداد تهرؤاً، هذا شرر عينه مرة، وانطفاؤهما مرة، وقحتهما

كل مرة، منذ أنجزت عزلتي ـ بيتي في الضيعة وقلت لأمي: بالنسبة لي قتيبة مات.

لماذا يقرفص الآن أمامي كأنه سيتغوط؟ لماذا يلحق بي إلى أمام بيت مديحة، وينقض قراري بالنسيان؟ حتى لو بكت أمي أو ترحمتْ على أبي، وتمنت الموت، سأنسى، وسأدعها تمرق كالسهم من الواجهات الزجاجية الملونة إلى قلبي، وألاقي مديحة، أعانقها مستنجداً، وتعانقني عجلى، وتدس مفتاح البيت في كفي:

– تفرجْ على التيلفزيون. تسلّ مع شفيع. بعد قليل تأتي غلوريا وتصطحبك إلى المتحف. عجزت عن تدبير إجازة. أرجوك لا تعتب عليّ.

– ماذا فعلت بشأن معرض الكتاب؟

سألتها كأني أشاجر.

– مساء الاثنين الافتتاح. اطمئن. أنا مديحة الدريّك يا أستاذ سعد.

قالت مبتسمة، وهرولتْ ملوّحة، والتفتُّ إلى الشاب المقرفص: اختفى الجني، فالتفتُّ إلى مديحة، فإذا بها واقفة مع فتاة طويلة وممتلئة، تتهامسان وتنظران نحوي وتبتسمان، ثم اختفت مديحة، وأقبلت غلوريا: صافحتني بحرارة، وخيّرتني بين الصعود إلى بيت مديحة والمتحف، فتركتُ لها الأمر.

بمن أشبه غلوريا؟

* * *

عبر زنقة قصيرة قادتني بصمت. وفجأة أفضت الزنقة إلى شارع يبدو بلا نهاية: حاوية للنفايات أمام مدخل بناية مثل مدخل البناية التي يربض فيها بيت مديحة، بار مفتوح وشبه خالٍ، فخذا امرأة مكشوفان ومجدولان ويتفجران حمرة مشوبة ببهوت الأزرق، ذراعاها أيضاً مكشوفتان ومجدولتان وتسطعان حمرة نقية، وعضلات بطنها تفلق حزام البنطلون القصير ـ أم الكيلوت أم الشورت؟

استرقتُ نظرة من غلوريا فضبطتني وضحكتْ، وهمستْ مومئةً إلى المرأة التي تجاوزناها:

– عاهرة.

همستُ محاذراً:

– عاهرة أم مصارعة؟

فضحكتْ وأشارتْ غمزتها إلى امرأة تقف بعد خطوات: بنطلون جينز وبوط أديداس، صدر ممسوح، لكن القامة فارعة ومتسقة.

تجاوزنا المرأة التي لاقتنا بقرف، وهمستْ غلوريا:

– وهذه أيضاً.

– كلهن بطلات مصارعة؟

سألتُ، فضحكتْ وقالت:

– في الليل يملأن الرصيف. إذا كنت تريد أن تتحاشاهن، عليك أن تزاحم السيارات على الشارع.

اقتربنا من امرأة مكومة أمام بار مغلق. كانت المرأة مديرةً قفاها للشارع. ولما حاذيناها خُيّلَ لى أنى سمعتُ صوت ضراطها، فنظرتُ إلى غلوريا التى كتمتْ ضحكتها، وقالت:

– يبدو أنها فى نوبة.

ولعلها أدركتْ أنى لم أفهم، رغم أنى هززتُ رأسى مؤيداً، فأضافت:

– نوبة مخدرات. نوبة ثقيلة.

وصمتنا حتى رمتنا التاكسى أمام المتحف.

* * *

بعيد المدخل باغتتنى جدارية هائلة لأنتونو جولى، تمخر فيها السفن، وقبالة السفن يمخر البشر: مرفأ يضطرم، ولعلها الحرب.

بعد قليل أوقفتنى لوحة لكورادوجيا كونتو، وأمامها رسام شيخ يرسمها بمقياس أصغر. تمنيتُ لسالم برهوم ـ ماذا كان عنوان معرضه الأول فى سجن صيدنايا؟ ـ هذا المسند وهذه الضمّة: فرشاة من كل صنف وقياس. تمنيتُ له فقط هذه الكومة من أصابع الألوان ـ كيف كان يتدبر الفحم والكرتون فى سجن تدمر؟ ـ ورحتُ أتخبط بين رسامى القرن الثامن عشر ووجوه المسيح وأخلافه، ووجوه الملوك. ومثلى كانت غلوريا تتخبط بالفرنسية حين لا تكفى العربية، ومثلها كنتُ أضحك وأهرب إلى لوحة جديدة، حتى أمر غويا بالصمت.

هل كان غويا أيضاً– أو فقط –رسام الدين والسلطة؟ سأعود إلى

مطعم منية الأطرش، لعلّى أقع على جواب جديد غير ما سيتشدق به سالم ـ كيف هرّب لوحاته من سجن المزة؟

سأكرع من النبيذ ما يجعلنى أجوس حول المطعم حتى أعثر على بيت لغويا، لعل ألوانه التى تفور الآن تهدأ. ولئن زرت الأندلس، فلن أذهب جنوباً، بل سأجوس حول سرقطة حتى أعثر على القرية التى طلع منها غويا، لعل هذا الصمت الطاغى يتصدع، بل كل حركة من هذه الحركات الجارحة: ماريا لويز على الحصان، أسرة كارلوس الخامس، كارلوس الرابع، لابريما فيرا، الفيرنو، الماركيزة دوسانتا كروز. والآن سأدع لغلوريا أجداد كارلوس الذى عاد بعد فرانكو ـ أى أعاده فرانكو ـ ملكاً عليها، وسأدع الربيع والصيف وسيدة الصليب، لأجثو أمام هذه العارية: لاماخا ديزنودا ـ هبة: هذا هو الجسد الذى أعجزنى أن أكتبه، فهل أحياه معك؟

ودعتُ غويا من لوحة: مصارعة الثيران إلى لوحة: من وحى مدريد. ورجوتُ فى سرى أن نخرج ليبقى غويا وحده ملء غيابك. لكن غلوريا قادتنى إلى ذقون ومتوحشين وأثرياء متخمين وألوان فاقعة وضربات استفزازية لأصابع ـ سكاكين، حتى صرنا وجهاً لوجه أمام دييغو فيلاسكيز.

تنحّى الرجل من لوحته ـ لوس منيناس يا سالم: جدار بطوله وعرضه ـ وأقعيتُ فى مقدمة اللوحة بجانب الكلب، وصارت غلوريا واحدة من وصيفات الأميرة مارغريت، وبدأ فيليب الرابع يباهينى بأبيه الذى أنجز طرد أجداد هبة عمار الميامين من الأندلس، فتطامنتُ

حتى انسلّت بى غلوريا إلى هذه القاعة : لوس منيناس أيضاً يا سالم ، ولكن متران ونصف تقريباً × مترين ، وها نحن أخيراً وجهاً لوجه مع بيكاسو ، وفيلاسكيز على يديه يتعملق حتى ليخترق اللوحة من علٍ ومن أسفل ، وأنا أقعى فى مقدمة اللوحة بجانب الكلب ، وغلوريا ـ بمن أشبه هذه المرأة ؟ ـ تملأ المرآة المعلقة ملكة وأميرة ووصيفة ، ثم تأمر الكلب ، فيخرج من اللوحة ـ أخرج من القاعة وألهج : أين الغرينكا ؟

* * *

جررتُ اختناقى وراء غلوريا من المتحف إلى البار الذى كان مرتعاً للكتّاب ، على ذمة هذه التى تقضى أغلب وقتها هذه الأيام فى قراءة روايات الحرب الأهلية الإسبانية . وأوقفنى الزحام والصخب أمام الباب ، فهمستُ ضارعاً :

– أرجوكِ : مكان أهدأ .

ومضينا خرساً حتى آوانا بار آخر حول طاولة على رصيفه العريض : عيدان العريشة بنية ومسلوخة ومفلوشة ، غيوم مطبقة ولفحات باردة ، ومع ذلك : بيرة .

تفاقم الخرس حتى انتصرت عليه زجاجتى الثالثة وسيجارتى الرابعة أو الخامسة . تناولت غلوريا عصير البرتقال ، وتعللتْ لامتناعها عن البيرة بالحبوب المهدئة التى تتناولها بانتظام : حبوب مهدئة لابنة السادسة والعشرين التى اكتأبتْ بعد تخرجها من الجامعة ، لأنها تفتقد الحنان ـ كما ستشرح بكلمات متقطعة ـ ولأنها

عاطلة عن العمل .

صحتُ بها مقاطعاً :

– أهلاً بكِ فى الشام . تعا تفرجْ يا سلام .

فازورّتْ ، فهمستُ ممازحاً :

– لا بد من قصة حب خائبة .

فعادت كلماتها تتواصل وهى مشيحة : أبواها الشيخان بعيدان عنها . هى تعيش معهما فى بيت واحد ، لكنهما بعيدان ـ ألم أكن كذلك مع أمى ومع قتيبة ؟ ألستِ كذلك مع أبيك ومع شبله الصغير محمود ؟ ـ وشقيقها الوحيد أرتوريو غادر إلى غرناطة منذ تزوج واحدة من بنات الأخوال الغرناطيين ، لكنه سيعود قريباً ، لأن زواجه سيخفق ، كما تجزم غلوريا التى رفرف جفناها وهى تقول :

– العاطلون عن العمل هنا أكثر من الخمس .

فرفعت كأسى هاتفاً :

– أهلاً بكم فى الشام .

فحدقتْ بى تسأل ساخرة :

– ماذا تفعل واحدة مثلى تستجدى ثمن بطاقة الميترو من أمها المتقاعدة ، وثمن هذا الدواء من أبيها المتقاعد ؟

خجلتُ من أن أقول لها : اسألى أخى قتيبة ، اسألى محمود شقيق هبة ، وأطرقتْ متمتمة :

– أنا أزور طبيباً نفسياً منذ بداية العام .

احتضنتُ كفها خائفاً :

- كيف تجدين نفسك الآن؟

- أفضل.

ووقفتْ تغتصب ابتسامة، فغببتُ ما تبقى من البيرة، ووقفتُ، وبدتْ كأنما فوجئتْ بوقفتها، واندفعتْ مرتبكة:

- آسفة لإزعاجك.

تأبطتُ ذراعها مهوناً، وسألتُ مداعباً:

- هل تريدين أن تتفرجى على مدريد؟

ضحكتْ وقالت:

- يلله. هكذا تقولون؟ مديحة علمتنى العربية مظبوط.

ومشينا: لا تسألينى يا هبة أين، ولا تسألى غلوريا التى أخذت تدندن، فأخذت أحدثها عن نشيدنا الوطنى، وعن سهرتنا ليلة سفرى، ودندنتُ، وطردتْ شحاذاً أنيقاً اعترضنا، وانهرتُ مرتين على مقعدين مما صادفنا فى جزر الشوارع العريضة، وزمقنا بين السيارات، وتلصصنا على الشمس التى نبقت من خلل الغيوم، تتقد حمرة وتغطس. وقبل أن نصل إلى باب أوروبا قالت غلوريا إنها قررتْ أن تتعلم العربية أثناء دراستها الجامعية، لأن جديها لأمها من غرناطة، ولأن جدها لأبيها من طليطلة، ونسبها عربى إذن ـ ومديحة علمتها إذن اللهجة الشامية ـ وهذا باب أوروبا يؤكد النسب العريق منذ بدأت الكويت تشيده قبل الحرب مع العراق، حتى افتُضِحَ الاستثمار فيه، فتوقف المشروع كما قالت، وأنا أتقرى الباب الذى كان، قد يكون، سيكون، لن يكون، وأفقتُ على غلوريا تخاطبنى

بانفعال مكتوم:

- شاطئ ماربيا صار اسمه شاطئ النفط أو شاطئ العرب. العمامة النفطية مثل لصوصية بعض المغاربة: أفسدتا صورة العرب. إذا زرت الأندلس سترى.

قلت فى سرى: لن أزور الأندلس. وقلت: إن لم يكن من بد، فسأزور أندلس الشمال، لا أندلس الجنوب، وقلت: ما الغريب فى الأمر يا غلوريا؟ لا تنسى حصتنا ـ أعنى السوريين. ـ من ماربيا، ونظرتُ فى ساعتى، فسألتْ بحنان:

- تعبت؟

- انهدّيت.

قلتُ، فضحكتْ، وأوقفتْ تاكسى لتنقلنى إلى قفص السكن الجامعى، وبعد ما ملّ السائق من توصيتها له بى، لوحتُ: بمن أشبه غلوريا؟

هبة: أمامنا الليل بطوله.

هبة: من هذه التى تسألنى: ستنام أم ستموت؟

هبة: أحبك.

من مغارة إلى مغارة ٢

"في أغلب الأحيان، أشعر أمام هذا العشق نفس شعوري أمام كتاب أؤلفه (...) بل وشعوري بأنني لا أبالي أن أموت، بعد أن أصل بهذا العشق إلى آخره - دون تحديد معنى محدد لـ"آخره" - مثلما لا أبالي أن أموت بعد الانتهاء من كتابة ما أكتبه، في بضعة أشهر".

آني إرنو

.. وفى عودة سعد التالية إلى دمشق، ضمّ العشاق الأربعة صالون الفنان سالم برهوم المدجج بلوحاته فى سجون المزة وتدمر وصيدنايا، وبلوحات سواه.

كان المطر ينصب انصباباً طوال النهار. ومن الباب الزجاجى العريض الذى يقابل سعداً وهبة، كان بردى فى الأسفل يخبط خبطاً، وكان البرد يكوكئهم حول المدفأة الكهربائية وكؤوس العرق والصحون التى يبرع سالم فى إعدادها منذ عهد ما قبل السجن: التبولة والباباغنوج والبازركان: يسلموا إيديك يا سالم.

قالت راغدة مؤكدة وعدها بالسلاطة الروسية التى تَبْرَعُ فى إعدادها منذ عهدها مع إسبر فارس. وتنبه سعد إلى أنها تتعجل الشرب، وأومأ إلى هبة، فنظرتْ إلى راغدة قائلة:

– على مهلِكْ. رح تسكرى من أول السهرة.

ومضى سعد إلى الباب الزجاجى، ولبث يستزيد المطر وهو ينكر أن يكون وهبة سبب لقاء راغدة وسالم: لو لم نكن نحن لكان سبب آخر: إسبر مثلاً، إسبر صديق راغدة لسنوات، وصديق سالم منذ اليوم الأول للإفراج عنه، وسالم يعلم مثل كثيرين وكثيرات بما كان بين إسبر وراغدة و.. أجفله نداء راغدة، فعاد إلى مطرحه، ولبث ينتظر حتى خاطبته ساخرة:

– بدى اشتكى لك على راغدة.

تشاغلتْ هبة بلقمة، وسالم برشفة، وتابعت راغدة كأنها تغالب صحوتها:

– بعد يومين ثلاثة من حفلة الغزالة والمغارة، صادفت صاحبك زمان: مظهر العبدون. كنت مستعجلة وفقعانة، وصاحبك كان آخر رواق. سألنى عنك وعن هبة، وعزمنى على فنجان قهوة. بعد القهوة أخذنا كاس، وبعد الكاس رحنا سوا. بتعرف شو صار ولاّ إحكيلك؟

أسرعتْ هبة إلى الباب الزجاجى معلنةً استياءها. وبدا سالم كأن الأمر لا يعنيه، وانتظر سعد مرتبكاً حتى غمغمت راغدة:

– ما بعرف شو صار لى. ونحنا راجعين قلت له: لا تخلينى شوف وجهك. وإذا تصادفنا وقلت لك: مرحبا، لا ترد. والرجل التزم. صدفته مرتين كأنّا ما بنعرف بعض.

وتهدل رأسها، فنادى سعد هبة، ورفع كأسه:

– بصحة راغدة.

واشتبك بكاء راغدة بالضحك، ثم بالغناء، ولم تلتق من بعد نظرات هبة وسعد حتى انفردا فى المرسم:

– ناموا هون، المجنون ما بيطلع برّة.

قال سالم وهو يناول هبة اسفنجة عريضة، ويناول سعد مخدة وبطانية، وقال سعد:

– مغارة ثانية يا هبة.

فقالت وهى توحوح:

– راغدة حكت لى شو عملتْ معها.

– أنا؟

تساءل مستنكراً .

– إنت ما عملتْ شي . أنا غلطانة . أصابعكْ هي اللي عملتْ .

قالت وهي تحف قدميها بقدميه ، وهمستْ :

– دفّيني .

قال وهو يفرك ظهرها :

– كلام راغدة بهالأيام شروى غروى ، متل كلامها يوم اللي تركها إسبر .

فهمستْ في أذنه :

– حبيبي : أنا شفتكْ بعيني . عتم المغارة بيفضح متل الكهربا .

– لسه بردانة ؟

سأل متهرباً وهو يحاول أن يقبلها ، فملصت حاسمة :

– نامْ . اليوم حتى بوسة ما إلكْ .

دسّ أصابع يمينه في شعرها ، واندسّ رأسها في صدره ، وسرعان ما انتظمتْ أنفاسها ، فراح يعد السنين التي انقضت على صداقته وراغدة : ملجأها كان دوماً ، وكانت ملجأه ، شقيقان ربما ، هو محرم عليها ، وهي محرمة عليه ، بلا سبب ولا قرار ، تزوره وحدها في اللاذقية ، أو مع إسبر ، تزوره وحدها في الضيعة ، أو مع إسبر ، ويزورها سعد وحده في بيتها ، ويتهاتفان أو يتراسلان أو يتبادلان الشكوى : هي من إسبر وزوجة إسبر ومن وحدتها ووحشتها ، وهو من قتيبة ومظهر والكتابة ووحدته ووحشته ، وفجأة : لا حسّ ولا خبر ، فلحق بها إلى نجها : معمل النباتات الطبية ، والمهندسة راغدة

سيدة الآلات الصينية التي تملأ خرجه بست عشرة خلطة من الأعشاب : بابونج وملّيسة وقرفة وزنجبيل و . . والشاي مع حب الهال خصيصاً لأم سعد ، كما كان خصيصاً لأم إسبر وزوجته ، وراغدة تشمخ بجائزة الجودة للمعمل في معرض ميامي وفي معرض مدريد :

– لماذا تتهربين ؟

سأل سعد ، فدفعته أمامها :

– تعال تفرجْ على تصنيع عسل الزلوع ، يمكن تحتاجه بكير متل إسبر . بلدنا ، الله منعم عليها بكل شي : الختمية وشوك مريم وشقائق النعمان وجزر البلان وورق الأرضي شوكي وكمان : الزلوع .

– لماذا تتهربين ؟

كان صوتها الآن ملتاعاً ، يتقرى ما باعد بينها وبين ذويها في الحسكة ، منذ جاءت إلى الجامعة ، إلى أن مات من مات ، وتقاسم الأحياء إرث من مات ، وحمدوا لراغدة الغربة والقطيعة والحرية ، وغمرتها الشام بمهرجانات السينما والمسرح والشعر ـ في واحد منها التقتْ بهبة ـ وبمعارض الكتب والفنانين ـ في واحد منها التقتْ بإسبر وفي آخر التقتْ بسالم ـ وبالسفر إلى الصين و . . الحب ، فقبل إسبر لم تعرف رجلاً ، ولم يعنها أنّ له زوجة وولداً وبنتين ، ولم تنشد زواجه ، فلماذا تدخلت امرأته ؟ ولماذا أدار ظهره ؟

"أنا كنت أريد منه فقط الحب . هو ماذا كان يريد ؟" .

تململتْ هبة في حضن سعد ، والسؤال يتوه به في جوف المغارة : ماذا يريد الرجل من المرأة ؟

ماذا تريد المرأة من الرجل ؟

لا تبخّس الجواب يا سعد فى الشهوة، ولا فى البنات والبنين.

هل جسدك هو الذى آخى جسد راغدة، أم جسدها آخى جسدك ؟

لا تبخّس الجواب فى الروح.

لماذا داعبتْ أصابع يديكَ أصابع قدميها وانزلقتْ إلى ساقيها ؟

أين مظهر العبدون وأين عهدكما مع زهية ؟

كيف أصغى سالم إلى شكوى راغدة لك على راغدة التى كانت مستعجلة وفقعانة، فمضتْ مع مظهر، ثم أمرته بنسيانها ؟

كيف كانت تريدك أنت ثم لحقتْ بسالم إلى جوف المغارة ؟

وإسبر، هل استفاق حقاً على انتظار زوجته له طوال بعثته إلى موسكو ؟ هل استفاقت أبوته أم ارتوى من راغدة كما ارتوى من سواها فى موسكو ؟

وهبة يا سعد : هبة حبكَ الأول أو الأكبر، وأنت أيضاً قد تكون حبها الأول أو الأكبر، فماذا يعنى أن تعرف سواك أو تعرف سواها ؟

ماذا يعنى أن تكونا زوجين أو أبوين فى مثل هناءة عبد الوهاب بديعة وزوجته ؟

ماذا يعنى أن تنتهيا إلى ما انتهى إليه مطاع أكرم ومطلقته : صداقة، ولا فى الروايات ؟

هل يكون الحب أيضاً مؤسسة مثل الزواج ،أو الحزب، أو وكالة الأنباء، أو الجيش ،أو معمل النباتات الطبية، أو نقابة الفنانين ؟

ما الحب يا سعد ؟

ما الحب يا هبة ؟

هل الحب مثل الموت أو الحياة : سؤال بلا جواب ؟

والآن : ستنام أم ستموت ؟

* * *

بالنسبة لهبة ستتركز الأسئلة فى راغدة وسعد : يهذران ويتباذءان ويتخاصمان ويتصالحان، ويتدافران أمامها وأمام سالم، فكيف فى غيابهما ؟

كتبتْ هبة على ورقة صغيرة مدعوكة تسأل، ثم ذكّرتْ سعد : "أنت بنفسك قلت لى : سيقانها بيدبحوا، وصرتَ شاعراً يتدودخ : غابة من السيقان مثل سيقان راغدة. لا تعيدْ الأسطوانة الله يخلّيك : الرحابة يا هبة، الحرية يا هبة، لسان طليق وخيال فالت يا هبة. سعد : نحن لسنا بحاجة إلى وقفة ومراجعة فقط. ربما نكون بحاجة إلى ما هو أكبر".

واستقبلته الورقة الصغيرة المدعوكة وسط السرير.

قرأها، ورماها حيث كانت، ودار حول نفسه وسط الغرفة : لقاء فلقاء باتتْ هبة تسبقه إلى هذه الغرفة ـ العش. يصل من اللاذقية، فيجد الحمام يغلى والغداء جاهزاً. يبارز الزوج السعيد ـ عبد الوهاب أو إسبر أو . . ـ ويستفز هبة حتى تلعن عبد النور والكاتب التقدمى والكاتبة المتحررة. يسرق من شامتها قبلة، وتلقمه لقمة، وتضحك الغرفة ـ العش، ويُجَن هذا السرير، أما الآن، فهو يكتب على قفا الورقة الصغيرة المدعوكة نفسها : "بعد كل ما عشناه لم تعرفى أنّ

امرأةً لا تعنينى إلا أنتِ؟ نسيتِ أننى لا أحبس أمامكِ ـ ولا أمام من أحب ـ ما يخطر لى على بال، ولا أزن الكلمات بالمثقال؟ نسيتِ أننى أحب كل شيء حلو؟ يعنى إذا كانت سيقان راغدة مثلاً بتدبحْ، لازم تَمْسحْ؟ هبة: ما راحْ صدق إنكْ صرتِ غيّورة، ومن مين؟ من راغدة! هبة: أنا لسه بعيّر حالى من كلامى معك عن مظهر العبدون، وعن العالم الأميركى. بيكفى. لا تكونى مثل غيرك. هبة: أحبك".

واستلقى بثيابه وحذائه على السرير، وظل صاحياً وغافياً حتى انفتح الباب عن هبة، وقبلته ببرود، وقرأتْ جوابه، وأودعت الورقة الصغيرة المدعوكة حقيبة يدها، ثم استلقت ـ بثيابها وحذائها ـ بجواره.

* * *

وهجعت الأسئلة زمناً حتى تجددتْ على إيقاع دندنة هبة: ولا مرة سافرنا سوا ولا مرة، وسعد يهوّن على الغزالة السفر الطويل من أقصى سورية إلى أقصاها:

– أنا أعرف سورية شبراً شبراً، وأنتِ بالكاد تعرفين ما بين الشام وحلب واللاذقية. هذه الرحلة هديتى المتواضعة فى عيد ميلادك.

قال وهو يهرب من سؤال إلى سؤال، قبل أن يلغو:

– البارحة أمام سينما الشام، كانت ضحكتك شبرين، ومطاع أكرم يلعب بشعرك.

قالت هبة:

– أمامك أفضل أم من خلف ظهرك؟ ومطاع أفضل أم الغريب؟

– شعرك سائب حتى يلعب فيه الغريب والقريب؟

سأل محتداً وهو يبحث عن سيجارة، فأشعلتْ له واحدة، وقالت تقلده:

– الغيرة تَخلُّف وتَملُّك يا حبيبى.

قال مكابراً:

– ليس غيرة. هو احتجاج على تصرف غير مسئول، حتى لا أقول غير لائق.

– سيرة اللياقة سيرة جديدة.

قالت هازئة، ثم أضافت مصطنعة الجد:

– والحق على كل حال على صديقك مطاع.

– وعليكِ.

قال بحنق، ثم التفت إليها معاتباً:

– ما خطر على بالى فى يوم أن تمتد يد إلى شعرك غير يدى، لا يد رجل ولا يد امرأة.

قالت وهى تقرص أذنه:

– أنانى.

فتابع متجاهلاً:

– حتى لو كان مطاع يمزح ببراءة يا.. بريئة أنتِ. حتى لو كان شريككِ فى المسئولية، أنتِ المسئولة أولاً وأخيراً.

فتمثلتْ هيئة الواعظ، وقالت بأناة:

– الحب ليس بالطابو لا بالتابو: من القائل يا بنى؟

– هذا لا يناقض ما أقول.

قال بثقة، ثم أضاف ساخراً:

– يبدو أنك قرأتِ رواية (مجاز العشق) وصدقتِ كاتبها.

– كل واحد منا يلوى الكلام على هواه. يأخذ ما يريد ويترك ما يريد.

قالت أسيانة، فترك صمته ودخان سيجارته يعقبان، حتى سألت بحرد:

– هذه بداية احتفالك بعيد ميلادى؟

فأمسك بكفها، فقبلتْ خده، وعادت تدندن: ولا مرة سافرنا سوا ولا مرة، وكانت الغزالة تبارح الأوتستراد إلى معرة النعمان، وتتباطأ، وتسأل، حتى وقفتْ قرب المركز الثقافى.

* * *

أمام ضريح أبى العلاء المعرى وقفا صامتين حتى أجفلتهما تحية من سيرحب بهما ويقدم نفسه: نائب المدير.

وأثناء شرب الشاى فى غرفة نائب المدير، قال سعد:

– الأستاذة هبة عمار ستشارك فى مهرجان للقصة فى الحسكة، وأنا سأعقب على القصص المشاركة.

وعندما شيعهما الرجل إلى موقف الغزالة، مال سعد نحو هبة وهمس:

– من هنا رتّبتُ أن يبدأ احتفالى بعيد ميلادك.

فانتظرتْ حتى انطلقتْ الغزالة، وسألتْ:

– لماذا المعرى؟

– لأنه قربكِ، ها هنا، وأنت تعبرين به غافلة، كلما ذهبتِ إلى حلب أو عدتِ منها.

قال، ثم بدا كأنه يصغى لسواها، وكان المعرى يهامسه:

وشبيهٌ صوتُ النعىّ إذا ما قيسَ بصوتِ البشيرِ فى كلِ نادى

وكانت تتابع السؤال:

– فقط؟

ورمقها مشفقاً من أن يُشبه ميلادٌ موتاً، وقال:

– مطاع أكرم مثلك. ما أكثر ما عبر بالمعرى دون أن ينتبه له.

وظلت تدنو إليه، فأردف:

– قبل أن نغادر الشام سألتك: زرت المعرى؟ لأ. زرتِ إيبلا؟ لأ. كيف سافرتِ إذن على هذه الطريق، ولو مرة واحدة؟ فى العودة سنزور ضريح عمر بن عبد العزيز.

– كنت أنتظرك وأنتظر هذه الغزالة.

قالت باسمة، فأيقن أنها هى الغزالة التى ستتقافز عما قليل فوق التلة، ومن أكمة إلى أكمة، وهو يعجز عن اللحاق بها قبل أن تتهادى على الدرج المفضى من جناح الملكة إلى باحة الاستقبال، وتجلس على عرش من حجر، فيركع أمامها مبتهلاً:

– سيدتى: فى عيد ميلادك أسميكِ: إيبلا.

ثم ينادى الأميرة زائشة كى تقدم الذبائح إلى سيدة البلاد والربة حبيات فى شهر عشتار، ثم ينادى الأميرة كيشدود لتقدم الذبائح إلى سيدة البلاد وربة النار فى اليوم نفسه أو فى يوم آخر من الشهر نفسه.

وبعد قليل سألتْ بحّة عن نينكى، فتأتأ:

– تنادم الرب انكى.

وراح يفرد لهبة كنوز عيدها: أساور من الذهب مبرومة ومحلاة بحبيبات دقيقة، قرط على هيئة خاتم، دبوس وطوق تتوسطه اللازوردة فى هيئة خنفساء، وتملؤه الخرزة فالخرزة فى هيئة بطيخة، خاتم مزين بزهرة اللوتس، تمائم عاجية، زبدية نقش سعد أيوب نفسه عليها بالهيروغليفية اسم خفرع، غطاء نقش عليه سعد أيوب نفسه أيضاً اسم بيبى الأول، وأخيراً: صولجان هذا الفرعون ابن الآسيويين حوتب ايبرع: هبة: من مصر حملتها إليك، ولم يبق إلا أن أنحت لكِ تمثالاً من روحى ومن جسدى.

كان سعد الآن يتهجد، وكانت هبة تطلق إيبلا فى الفضاء المترامى بين الفراعنة والأكاديين، تملأ فراغ ألفٍ من السنين فألف، تصحح للآثاريين وللمؤرخين، وترمح بين ديماشكى وأماتو، وبين أوغاريت وإيمار، وبين كركميش وإيمسا، وسعد يرمح خلفها بين دمشق وحماة، وبين اللاذقية ومسكنة، وبين جرابلس وحمص، لكن نارام سن يسبقه ويبيدها منذ ألفى سنة حتى خمسين انقضت على محراثٍ صادف جرناً: ملتحون وسباع فاغرة على الوجهين، وسعد

ينده: هبة.

كانت هبة الآن تنتظره فى غيب مسطور: هو ـ منذ عشرين سنة فقط ـ يرفش التراب المكوّم فى واحدة من غرف قصرها، والفجوة تضىء، فينده: هبة، وهبة حيث أشارت الفجوة: آلاف مؤلفة من الرقم التى شوتها نيران نارام سن: من يترجم؟

أسرع أحدهم يماثل بين الإيبلائية والتوراة، فصاحت هبة:

– ما شبعتم تشويهاً؟

وحفرتْ صيحتَها بالطريقة المسمارية على لوح ـ بقدر الكف ـ اصفرّ بياضه، وعلى لوح ـ بقدر هذه الصفحة الصغيرة المدعوكة ـ تفتّح لونه المرمرى، ورمحتْ ـ كالغزالة ـ إلى إيمار:

– خلّنا نقض الليلة فى حلب يا هبة، نتعشى ونبيت عند مطاع، المشوار طويل يا حبيبتى وأنا تعبت.

قال سعد، فرمقته وشَدَتْ:

– ولا مرة شرشحنا الهوى ولا مرة.

وقبلتْ خده وهو يوقف السيارة أمام الاستراحة الأولى التى صادفت الغزالة فى مسكنة.

* * *

كانت الاستراحة خالية وباردة، وقالت هبة:

– واضح أنه لا يقف هنا إلا سائقو الشاحنات.

وكان الرجل الذى تتضاعف الجلابية من سمنته، يأمر ابنه بإيقاد المدفأة، ثم يسأل:

– شو أمرتو أستاذ؟

– نصف كيلو شقف. لا تبخل بالبصل والبندورة.

قال سعد متلمظاً.

– ما فيه غير الكباب أستاذ.

قال الرجل، وقد شرع يقطع من الخروف المدلّى، فنهض سعد خائباً، ونهضتْ هبة، لكن الرجل صاح:

– وين أستاذ؟ بدك تاكلْ كباب من إيدى، وإذا ما عجبك وعجب المدام، وراس المصطفى ما بتدفع قرش.

فقالت هبة وهى تجلس مستسلمة:

– اقعد وأمرنا لله.

وتهالك سعد على الكرسى المقشش، وبدأ الرجل يسرد حكاية مطعمه، فقاطعته هبة تسأل بحذر عن المرحاض، فصاح بسعد:

– بالبرية أستاذ. ما تآخذونا بجاه الحبيب.

وكأن سعد كان بحاجة إلى ذلك كى ينسى تعبه، ويرفض مرافقة هبة، ويضحك لدهشتها وغيظها، ثم ينزل عن كرسيه ليتمدد على البساط الذى تداخلت أصباغه، ويتوسد مسند القش، ويقرب قدميه من المدفأة، ويبتسم للفتى، ويصغى إلى حكاية المطعم، ويشير إلى هبة التى عادت توحوح، وينتظر حتى تتمدد قربه، ويطبق جفنيه، ولعله أغفى كما أغفت على الحكاية، حتى جاء الرجل بطبق الألمونيوم مجلجلاً:

– شرفوا أستاذ.

ومثل وحشين صغيرين التهما كل ما عجّ به الطبق، والرجل يهلل:

– الله وكيلك شويت وقية زيادة. شايفكم جوعانين، وبتميزوا الطعم. ألف صحة وعوافة أستاذ. ألف صحة وعوافة مدام.

* * *

ومثل وحشين صغيرين اندفعا يعانقان الفرات، حتى أسلمهما إلى فضاء يترامى سحراً بين الرقة ورأس العين: غبة ماء تؤنسن، فيصير كائن ذكراً، وكائن أنثى، وإلى مغارة يأويان منذ خمسة آلاف سنة إلى أن يعلن الخابور: الحسكة ترحب بكم.

بعد حفل العشاء الذى أقامه مدير المركز الثقافى على شرفهما ـ ومن سبقهما من ضيوف مهرجان القصة ـ فى النادى الزراعى، انفرد كلٌّ بغرفته، ريثما يصح اليقين بنوم الأوتيل. ثم تسلل كلٌّ إلى غرفة الآخر، فالتقيا فى الممر، وسمّرهما الخوف والدهشة والضحكة، حتى فرّت هبة إلى غرفتها، فلحق سعد بها، وأفرغ جيوبه: شمعة زرقاء وعبوتان صغيرتان من الويسكى وإسوارة من الفضة التى كانت إيبلا تقايضها باللازورد، ووشوشة تدندن فى أذن هبة:

رحْ طيّرْ حمامْ

بعيدكْ يا حبيبى

ثم تعتم هبة الغرفة، ويوقد سعد الشمعة، وتطفئها هبة، وبعد ألفين أو ثلاثة آلاف سنة يمسح سعد عرقها وتمسح عرقه: وصل اللازورد من منجم بادخشتان فى أفغانستان، وهبة تفتح حقيبة يدها

لتقايض الفضة باللازورد، لكنها تفتقد الورقة الصغيرة المدعوكة التى كتبتْ على وجه منها لسعد، وكتب لها على وجه، ويشخب صوتها :

– كنت متأكدة أنه يفتش حقيبتى وخزانتى وأوراقى.

فسأل سعد مستخفاً :

– من هو ؟

– محمود، الشبل الصغير، أخى الصغير.

– طزّ.

– أنت تقول طزّ، لكن أنا من ستدفع الثمن.

قالت وعيناها تنقبان عن تجويف صغير فى مغارة هائلة تترامى بين زقاق طالع الفضة فى الشام، وهذه الغرفة فى الحسكة. وعندما ضيّعها سعد، أحسّ أن الكون كله ينقلب إلى مغارة، وهو يخبط فيها وينده : هبة : أحبك.

مدريد ٣

"ليس هناك علاج كحكى الغياب، سعياً إلى ردم الغياب".

جان لوى بيرّييه

.. فألقيتُ محاضرتى ظهيرة الخميس فى قاعة أصغر من التى حاضر فيها عايدة وسراج، وأمام عدد أقل.

قدمنى دييغو، ثم توسط إيلينا وألثوثينا، وبين طالبين ـ أحدهما ملتح ـ جلست أنطونيا، أما مديحة فقد فاجأنى حضورها: كيف حصلت على إجازة يا ملعونة؟ ومن هو هذا الذى توشوشين؟

لم أحتج للترجمة، فمن حضروا وحضرن هم وهن من أساتذة وطلبة الأدب العربى أو الاستعراب أو الاستشراق ـ كما تشاءين. وتكلمت مبالغاً فى التأنى، كما نصحنى دييغو وإيلينا: حتى يفهموكَ جيداً، قالا.

ابتدأت ببعض من قارب منا التجربة الأندلسية: رضوى عاشور وغرناطتها، محمود درويش وغرناطته، أدونيس وملوك الطوائف.. ومن أجلك ناديتُ طوق الحمامة إلى الرواية العربية، ومن أجل دييغو ـ أم من أجل فلسطين ويومنا وغدنا ـ ناديت اليهود العرب، وغير العرب من الأندلسيين إلى الحروب الستة بيننا وبين إسرائيل خلال أقل من خمسين سنة ـ باعتبار الانتفاضة الفلسطينية حرباً، بل أطول حرب ـ ليشهدوا، كالرواية، على الاستعمار والاستيطان والعنصرية، وليلوحوا بالتسامح والسلام.

خرجتُ على الأوراق التى كتبتُ مراراً، معولاً على الحوار الذى طال، وبخاصة أنى شرّقتُ وغرّبتُ فى الرواية العربية، كأنى من عجائزها المجلين. ولقد كنتُ عجوزاً بحق، ولكن غير مجلٍ، لأنى لم أنتبه إلى أنطونيا حتى أشاحت، حين التقتْ نظراتنا: أنا أتفيهق،

وهى تلتصق بالطالب ـ ربما كان أستاذاً ـ الملتحى.

طالب آخر ـ وربما كان أستاذاً أيضاً ـ فى مثل سنى، وغير ملتح، قال:

– عاش العالم مائة وواحدة وعشرين حرباً، منها ست عشرة فى الشرق الأوسط، وبين هذه، سوى الحروب الستة التى ذكر الأستاذ سعد أيوب، حربا الخليج الأولى والثانية.

ثم جبهنى بالسؤال:

– أى مستقبل ينتظركم؟

وقالت أنطونيا بانفعال:

– ابن حزم وسواه ممن عددتَ، من اليهود أو من غيرهم، هم بالنسبة لى إسبان.

واستشهدتْ بأنطونيو غالا الذى عدّ ـ فى رواية له ـ أبا عبد الله الصغير إسبانياً أيضاً، فقلّبتُ نظرى فى الآخرين مستنجداً، وقلت:

– قرأتُ ما قاله غالا فى ترجمة للعربية قيد الطبع.

ثم وجدتنى أفكر بصوت عال:

– لو زرتُ الأندلس سأتبيّن دعوى أنطونيا ودعوى غالا.

ويبدو أن كلامى الذى أضحك دييغو وآخرين، لم يرقْ لها، فأشاحت ثانية.

الآن أجزم أنها ازدادت امتلاءً عنها فى كافتيريا الجامعة، لذلك بدا جسدها يضيق بما يستره، منذ اجتاحت مكتب دييغو قبيل موعد المحاضرة. ولا أنكر أنى أحسستُ ـ فى المكتب وأثناء المحاضرة ـ أنها

تقطر شهوة، لكننى كنت أتشهاكِ قطراً، منذ أيقظنى حلمكِ هذا الفجر، حتى عددتكِ بين الروائيات الموعودات، بما أنك ابتدأتِ تكتبين روايتك الأولى: هل من نزاهة أكبر وأصدق؟

عاد دييغو إلى المنصة ليختم ويعانقنى وسط تصفيق خافت، وهمس:

- بلغنا أفضل مما كنت أنتظر، ولكن لماذا تجاهلتَ نفسك كروائى؟

وكررتْ كريسبولا السؤال، بينما كانت مديحة تعانقنى، ثم تقدم لى الدكتور على القيرونى ـ طبيب عصبية جزائرى ـ وأظنه صديقها.

فى البهو لوحتْ ألثوثينا ـ العصفورة التى غادرت مقاعد الطلبة للتو، لتصير الأستاذة الأصغر فى الجامعة ـ وصافحنى من كان جار أنطونيا قائلاً باعتداد:

- مارتن ألونسو.

فقالت كريسبولا:

- مارتن أفضل أستاذ فى إشبيلية.

وأظن أن لحيته ارتجفت، وهو يندفع:

- صدفة طيبة. كنت سأعود اليوم إلى إشبيلية لولا أن دييغو أمرنى بالبقاء، من أجل محاضرتك. ألثوثينا أكدتْ أن آذان الطلبة كانت معك كلمة كلمة.

وتلفتّ أبحث عن ألثوثينا، فضحك مارتن قائلاً:

- صارت فى مكتبها.

وقالت إيلينا:

- تخاف أن يطير منها.

وضحكنا، وكانت أنطونيا تقترب ببطء، وتوفزتُ حتى صافحتنى بحيادية قائلة:

- أهنؤك.

فكرت فى أن شهوتها انطفأت، وشهوتى تتقد، وخفتُ منها ومنكِ، ولوحتُ لهم لألحق بدييغو الذى يستحثنى، وسرعان ما فاجأنى قبل أن تنطلق سيارته:

- سنتغدى وحدنا فى المطعم الذى كانوا يعثرون فيه على همنغواى كلما ضيعوه فى مدريد.

* * *

طوال الطريق ظللت أداور الشك بأننى أخفقتُ فى المحاضرة، أو على الأقل ضيعتُ فرصة ثمينة، بينما كان دييغو يتدفق:

- بعض المستعربين بالغ كى يجعل الاستعراب علمياً زيادة حبتين. بعضهم انتقائى. الاستعراب استخف كثيراً بالمهمة الاجتماعية التى كان عليه أن يقوم بها أيضاً. هنا وجدتُ مطرحى. تستطيع أن تسمى مطرحى: الاستعراب الحى. أنا أفهم الأدب من داخل البيئة. يهمنى سياقه الاجتماعى والتاريخى. لا تظن أنى ماركسى. أنا متفائل بطبيعة البشر. أنتم تصيبوننى هذه الأيام باليأس، مع أن كثيرين يرهبوننى. أين جمال عبد الناصر؟ أنا لا

أرهب الأخطبوط الصهيونى. نوبل صححتْ ظلمها لكم جزئياً. قبل نجيب محفوظ فوتتْ كثيرين: طه حسين مثلاً، جبران خليل جبران، أين سرحت؟

قلت:

– أسمعك. وما تقول فى الاستعراب يلتقى مع ما يقوله إدوار سعيد.

قال:

– لستَ معى.

– أنا معها، لكننى أسمعك وأفهمك.

قلت، وبعد صمت جاء صوته العميق:

– حدثْنى عنها.

– حدثتكم جميعاً عنها قبل قليل: هبة عمّار. أحمل لك نسخة من مجموعتها القصصية الأولى.

وخجلتُ من أن أتابع: والوحيدة، فأسرعت:

– ابتدأتْ تكتب روايتها الأولى. ستكون روائية فريدة.

قلت مطمئناً، فالتفت إلىّ، وخفتُ من أن تكون نظرته العميقة تتشكك فى نزاهتى، وصمتنا حتى إشارة المرور الحمراء، وهممتُ بأن أشكو له أنكِ لا تفتأين تبحثين عما يفردك فى وحدتنا، فيما أبحث عما يذوبنى فيها. وتبلور السؤال الذى يخاتلنى منذ تماثلتِ للبرء من سباتك: هل تضمرين أن تتبرأى منى ونحن نتوحد؟ لا، ليس هذا هو السؤال. هل تعبأين حقاً بالسنوات التى جعلتْ منى

كاتباً قبلك؟

عاد السؤال إلى غموضه، كأنه سباتك، كأنه احتجاج أو انسحاب أو مرض، كأنه شلل أو مقاومة، وكأنه برء أيضاً، كأنه أنتِ. وفكرتُ فى أنكِ غداً ستكونين أكبر شهرة، وليس فىّ ما يعيبك، كما تكررين، بل ربما كان فىّ ما تتباهين به، كما تجزمين. وها أنا على كل حال: هويت وربما انتهيت ـ لا تحرفى الأغنية ـ ومنذ عرفتك حرن قلمى. صرتُ بالأحرى كاتباً شفوياً. سلّمى لى على الكتابة، حتى لو هددتنى بالطلاق إنْ كنتُ صادقاً: الطلاق أيضاً لغير المتزوجين من أمثالنا، مثل شهر العسل: درر صاحبة النظرية الجديدة فى العذرية: هبة عمار، والحب يا هبة أعجزنى عن الكتابة، ثم أعجزنى العكر والارتباك قبل أن تقعى فى السبات، وبعدما برئتِ، وها أنا أنتظر الرهان على الغياب، لعلنا نفترق ـ إن افترقنا ـ أصحاء وأصدقاء.

أنت كتبتِ لى فى الورقة الصغيرة المدعوكة التى قبض عليها شقيقكِ محمود، أننا قد نكون بحاجة إلى ما هو أكبر من وقفة ومراجعة. أنتِ قصدتِ الفصم، وعاودتِ قصدكِ عندما وقعتِ فى السبات، على العكس مما أقصد، على الرغم من أن وداعكِ التبس بالفصم ليلة سفرى، وعلى الرغم من أننى اقترحتُ: لا هاتف ولا رسالة طوال السفر.

ولأن دييغو عاد يسألنى أن أحدثه عنك، سأقول له إنكِ تخرجتِ منذ سنوات من كلية الصحافة: أصغر صحافية عربية تفتتح حياتها

بورقة يا نصيب : مليون ليرة ، فتشترى لأهلها البيت الذى يسكنونه فى زقاق طالع الفضة ، لأن والدها تاب عن جهالة أقرانه ، وصار كابوس الصحفية التى ترفض أمره بالتحجب ، وتتأخر فى العودة إلى البيت ، وتشاجر شقيقها الصغير محمود ، ويعاضدها شقيقها الكبير وليد ، وتدافع عن أمها وعن أختيها ، وتظهر صورتها فى الجرائد والمجلات بشعر قصير وبسمة عريضة .

سأحدث دييغو عن هبة عمار التى شبت تغالب الأسْر فى زقاق من القابون ، وما زالت تغالب الأسْر فى زقاق طالع الفضة ، والتى قرعت الأبواب سنة بعد الجامعة ، حتى صارت محررة فى مجلة التموين ، ثم فى مجلة السياحة ، قبل أن يقولوا لها : مع السلامة . لكننى لن أحدث دييغو عن التى عادت تقرع الأبواب شهراً فشهراً حتى يسّر لها من لا أعلم ـ من هو يا هبة ؟ ـ دوراً فى إعداد البرامج الثقافية فى الإذاعة ، وفى التيلفزيون منذ شهور ، ففاضت النعمة على الوالد الذى أنجز اقتداءه بابن باز ، وبات يليق بلقبه ـ اسمه الجديد : ابن باز الثانى ، كما بات يليق بشبله الصغير محمود لقب ـ اسم ابن باز الصغير ، على الرغم من أن ضيقهما بك خفّ ، منذ فاضت النعمة .

* * *

وهذا هو إذن مطعم همنغواى ، فى منتصف الزقاق الذى ربضت السيارة على رأسه ، لكأنه ، بضيقه وحجارته ، زقاق طالع الفضة ، وأنا بحاجة لأن أتحدث عنكِ فى غيابكِ ، أى : أحدثكِ ـ بالضبط :

أحدثكِ ـ بصوت عالٍ بعد كل فراق ، وبخاصة بعد هذا الفراق .

لذلك ما إنْ جلستُ قبالة همنغواى ، وسألته : لمن تقرع الأجراس ؟ حتى أصابتنى عدوى دييغو بالتدفق ، فقلت لهما إن مصادفة جمعتنى وهبة عمار فى بيت صديق فنان يُدعى سالم برهوم دخل السجن فى السادسة والعشرين وخرج فى الأربعين . وقلت لهما : فجأة فغرت العيون ، وفجأة ضحكنا ، فجأة سكتنا ، وفجأة صرتِ نافرة من الجميع ، وفجأة صرتِ ودودة مع الجميع ما عدا سعد أيوب .

سألنى همنغواى ودييغو معاً أن أصفك ، فتلعثمتُ : شعرها قصير ، لكنه سيطول ليسرح على كتفيها . هبة نذرتْ لى شعرها . وهمس أحدهما متوجعاً : آه من الشعر الطويل . وغرقتُ وأغرقتهما فى المصادفة الثانية التى جمعتنا فى بيت راغدة .

لم أقل إنها مهندسة زراعية ، وإنها وسالم صارا عاشقين . ولم أقل إنها كانت صديقة إسبر فارس . قلت : إنى كنت مضطرباً ، كأنى على موعد حاسم ، ووصلت إلى بيت راغدة قبل موعدى معها بساعة ، ثم وصلتِ بعد موعدكِ معها بساعة . وبفضل الساعتين قرأتُ فى النسخة التى أهديتِها لراغدة من مجموعتك . وحين اعتذرتْ عن انشغالها عنى بالحمام والسشوار والسلاطة الروسية والهاتف ، فطنتُ إلى أنكِ أهديتِ من مجموعتك القصصية للرائح والغادى ، ما عدا سعد أيوب . وحين تصافحنا فطنتُ إلى أنى ملأت نسخة راغدة من مجموعتك بالخطوط والتعليقات . وحين سمعتُ صوتكِ :

– كأنكَ كنت تقرأ فيها.

استفزنى حيادك، أو ما حسبته من سخريتكِ واعتدادكِ، وتدفقتُ مثل دييغو الذى لم يعجبه إصرارى على أن يختار النادل طاولة حولها أربع كراسٍ، فأفحمته:

– واحدة لهبة، واحدة لهمنغواى، والباقى لك ولى.

فقهقه عالياً، ورفع كأسه بصحتكِ وبصحة همنغواى والمجانين جميعاً، وكنتِ الآن تقبلين عليه، وصوتكِ يعذب:

– لم يحدثنى أحد قبل سعد حتى عن خطأ طباعى واحد فى المجموعة، مع أن فيها ستة أو سبعة. كان إطراء الجميع قد أسكرنى حتى جاء سعد، فبددتْ قسوته السكرة. حتى الآن أخالفه الرأى فى الكثير مما أخذ على القصص، لكن صوتاً مختلفاً كان ضرورياً لى.

وكررتُ ما قلته لكِ ولراغدة فى ذلك العشاء:

– أستطيع أن أجامل أو أزيف فى أى أمر إلا فى الكتابة.

– من يصدق فى الكتابة، يصدق دوماً.

قلتِ، وأغمضتُ عينى وتهجدتُ: لذلك أحببتها، وربما أحبتنى.

ورأيتكِ تكشّرين: بلا ربما يا غليظ.

والله أحب تكشيرتك، ولكن من يستطيع أن يروى ما عاشه ـ يعيشه، بلا زيادة ولا نقصان؟ هل يمكن أن يكون ما سيعاش، هو فقط ما قد يُروى بلا زيادة ولا نقصان؟

* * *

قال دييغو وهو يحدق فى التمثال النصفى لهمنغواى، قبالتنا:

– أنت يا سعد لا تصلح لكتابة سيرة أو مذكرات.

ورأيتكِ تسرعين شامتة:

– حتى الحكاية لا يصلح لها.

فقال دييغو:

– لذلك هو يصلح للرواية فقط.

وغبَّ النبيذ، وتوقعتُ أن تصححى له:

– لذلك هو لا يصلح للرواية.

لكن سمعتك تسألين:

– ماذا قرأتَ لسعد أيوب؟

كان همنغواى الآن هو من يغبّ النبيذ، وعيناه تلتمعان لامرأة أبرقت فى الزقاق، فانسلّ فى غفلة منا، ليلحق بالمرأة أو بالبرق.

افتقدته كما افتقدتكِ ليلة التقيتكِ وأنتِ فى السبات، أو ليلة وداعكِ الأخير وهو يشتبه بالفصم، ولاب سؤالى عنكما.

لا أحد رآك هنا، تماماً كما أن أحداً لا يعرف متى دخل همنغواى إلى الكاليخيون أول مرة، ولا متى خرج آخر مرة. لا أحد يذكر عنه شيئاً، ولا عنك، لا هذا النادل ولا ذاك ـ من الشباب ـ ولا هذان العجوزان اللذان دخلا الآن، ولا أى من أولاء الذين سبقونا. حتى دييغو لا يعرف إلا أن همنغواى بات هذا التمثال النصفى الذى يتباهى به الكاليخيون. وهذه الصور إذن؟ هذا الخشب الذى يغطى جدران المطعم؟ هذه الأنفاس وهذه الخطوات؟ هذه الروايات وهذه السنوات وهذه الحياة وهذا الـ.. موت؟ وهبة عمار نفسها، من يعرفها؟

بدأت أتعثر، وديبغو يستزيدني. لم أكن قادراً على حضورك وحضور همنغواي معاً، ولم أعد قادراً على غيابكِ وغيابه معاً، لذلك تهتُ عن تمثاله، ونحتُّ لكِ تمثالاً من روحي وجسدي، ورحت أخرّف لديبغو عن تلك السهرة الحاسمة في بيت راغدة: عن قشرتكِ الصلبة، عن تكشيرتك الحلوة، والشامة التي تسطع على خدك، عن العينين الملتمعتين والحاجبين الرخيّين والرموش الجذلي. ولم أجرؤ على أن أخرّف له عن الخصر الغامض والساقين المنحوتتين، لكنني تهجدتُ: بروحي تنبض أسرارها، وكنتُ أعني سرّ هذه السرة في ملس هذا الفضاء المتلغز، كنتُ أعني الشجي الذي رششتِ به تلك السهرة، وأنا وراغدة نتكوم في حضرتكِ، وأنتِ تشفّين عن وجع ثلاثين سنة وعن فرحها، عن الكتابة والحب الذي كان والحب الذي يكون وسيكون، وأنتِ الآن إذن جريحة أم عوفيتِ أم ..؟

قاطعني ديبغو لائماً:

– معها حق أن تكشر. من يسأل مثل هذا السؤال في لقاء مثل هذا اللقاء؟

حينئذٍ قلتُ لأول مرة:

– والله أحب تكشيرتك.

وضحكتْ راغدة حتى شرقتْ كما شرقتُ بآخر ما تبقى من كأس النبيذ الأخير، وبدأتُ أدندن بنشيدنا الوطني: ولا مرة شرشحنا الهوى ولا مرة، وأخذتْ أصابع ديبغو تنقر لحناً على الطاولة، كأن نشيداً يزاحم نشيداً،

كأنه الحب
كأنه عكر وارتباك
كأنه وقفة ومراجعة
كأنه ما هو أكبر
ولعله مواجهة وتهجٍ
لعله فصم
لعله سباتكِ ـ احتجاج أو انسحاب أو مقاومة أو مرض أو شلل
كأنه برء
كأنه كتابة معيوشة
كأنه ضرورة
هبة: أحبك.

العمـرة

"الخافقانِ ـ وفوقَ العقلِ سرُّهما
كلاهما للغيوبِ : الحبُّ واللهُ" .

بدوى الجبل

. . غير أنى ـ بعد حرن مرير ـ انطلقت من مطار آخر قبل أن يقدح الصوان بشرر هبة.

* * *

لا زلتُ أخشى أن أحدثكِ عن ذلك السفر، إلا كما فعلتُ: سائح بين الحرمين الشريفين.

كنتُ أخشى فى البداية أن تسلقينى كما فعل سالم ومطاع ومظهر وعبد النور وراغدة وكتّاب وكاتبات: سعد أيوب ضيف مهرجان الجنادرية! سعد أيوب يؤدى العمرة!

لكنكِ لم تفعلى، فتجرأت ـ فقط ـ على أن أبوح لكِ برغبتى العارمة العتيقة: أن أزور تلك البلاد، وبخاصة: مكة والمدينة.

للحق أنها كانت رغبة مطاع أكرم أيضاً. وكان عهدنا على أن نؤدى الحج أو العمرة سويًّا، حين يسمح المال. لذلك حكم علىّ بأنى نقضتُ العهد، إذ اعتمرتُ وحدى. والآن: هل أدركتِ لهفى على ذلك السرّ الذى لا زال يشكّل حياتنا وحياة كثيرين سوانا منذ أربعة عشر قرناً: الإسلام؟

بالأحرى: كان لهفى على سر الإيمان ـ هنا لا يتعلق الأمر بالدين وحده.

بالأحرى، أو بالتالى، هو سرّ التاريخ، لعلى أدرك ببساطة من أنا؟ من أنت؟ من نحن؟ من الإنسان؟ ما الحضارة؟

بوسعى أن أتمطّق بالكثير عن ذلك كله. وبوسعى أن أدعى

أننى عرفت الكثير عما فى أربعة عشر قرناً من الإسلام، أو عما فى عشرين قرناً من المسيحية، وعن سواها لسوانا، من السياسة أو الحروب أو الدول أو الأديان أو الهجرات أو الأدب أو . . هل رأيتنى متبجحاً من قبل؟

لكن ما لا أعرفه، ويمضّنى الخبط فيه وإليه، هو ذلك السر الذى يلاقينى هنا أيضاً، فى هذا الفضاء الإسبانى، وليس فقط لأنه متواشج مع سر الإسلام أو العرب أو البربر ـ أين هى الأندلس؟

مثل سالم ومطاع وعبد النور وإسبر وعبد الوهاب ومظهر وراغدة، ومثلكِ، كنتُ أشنّع على من يتقاطرون إلى مهرجان الجنادرية، متدرعين مثلى بماضٍ ـ على الأقل ـ يسارى و / أو إلحادى. كنتُ ـ كنّا نشنّع بخاصة على من جاد عليه المهرجان بألف ريال أو بخمسين ألفاً.

والله العظيم يا هبة لم يكرمنى أحد بفلس، ولا بما يساوى فلساً. بل لم يوفر لى أحد فرصة أن أرفض أمراً أو شيئاً. تركونى ومن معى: كل على هواه.

* * *

فى اليوم الأول كانت الرياض مدينة من ماكيت هائل.

وفى اليوم الثانى لم تبعث الحياةَ فيها ولا فىّ جحافلُ السيارات والمتاجر والقاعات والولائم والأوربة والأمركة: كل شىء مصنوع بدقة وترف وبهاء وفتنة. حتى ممازحات على

شلش ومحى الدين اللاذقانى وحنا عبود وأحمد صالح بدت بلا صدى. لكن مطرباً غنى أمام الآلاف، ودبك العرضة من دبك، وجاء فى المساء أبو عادل ورهطه بالعبوات التى امتلأت بالويسكى بدلاً من الماء.

للويسكى لون مختلف ـ صناعة منزلية ـ وطعم مختلف وطقس مختلف وفعل أكبر: مؤامرة طريفة ومكشوفة، تطلب الكؤوس والثلج من الروم سيرفيس، وتجعل النادل المصرى يناولنى حمولته أمام باب الغرفة، معتذراً عن الدخول: لأنه مؤمن، أكد أبو عادل الذى لم يحصل بعد على جواز السفر، على الرغم من أنه خرج من السجن منذ سنين، شأنه شأن سالم.

من بعد ابتدأت الرياض تؤنس، وها هو شكيب الجابرى الذى عاد من ألمانيا حاملاً الدكتوراه فى الكيمياء، يلوح بروايته الأولى منذ عام ١٩٣٧: أية ريادة تكتنز (نَهَم)؟

هجستُ بالرواية ـ فكرت بعنوانها: الرواية لا تشبع ولا ترتوى: غولُ كاتبها، وربما قارئها ـ وأنا أتملّى فى الكاتب عقود غربته التالية ـ أبو عادل هو من يسّر لى اللقاء به ـ منذ أحكم التقدمُ الخناقَ على من قدّر فيه الرجعية.

– ما ابتغيتُ من رواية (نهم) إلا أن أبلغ الناس رسالة: أقلها كى يتنبهوا للصهيونية قبل أن تقوم دولتها بسنين. أقلّها كى يتنبهوا للعلم، والحرب العالمية الثانية تقرع الأبواب.

قال الشيخ كاشفاً سرى. ثم جبهنى بالسؤال عما أبغيه مما أكتب، فهربتُ إلى السؤال عن الدكتور منير العجلانى: رجعى منفى آخر منذ أكثر من ثلاثين سنة، يلوح بمخطوطاته، فأسأل عن مقالاته قبل أكثر من ستين سنة، وعن الوزير الذى كانه قبل أكثر من أربعين سنة، وعن..

كان ذلك فى ضحى دافئ آخر مثل الضحى الذى لفنى وأبا عادل فى بيت شكيب الجابرى. كنا الآن فى بيت منير العجلانى الذى توقدت نظراته لسؤالى عن المظاهرات التى قادها ورعيله ضد الاستعمار الفرنسى وضد الصهيونية.

وفجأة اربّد وجها الشيخين، كأنما يسألان معاً عن الأحادية والعسكرة اللتين أحكمتا خناق التقدم، وجعلتا أربعينياً مثلى ينشأ محرماً على نفسه وعلى غيره مثل هذه اللقاء، حتى بذّ التقدم أية رجعية سبقتْ أو واكبتْ، وصار نسيج وحده!

هبة: أية رجعية عرفنا؟ وأى تقدم؟ أية حداثة وأى تخلف؟ هل عرفنا إلا الخناق؟ هل حُكم علينا كما حُكم على أسلافنا بالخناق المؤبد؟ هل الخناق شرط لازم لاجتماع البشر؟ وإذا كان الكحل أهون من العمى، فأىٌّ مما عرفنا هو الكحل، وأىٌّ هو العمى؟

هبة: فجأة ما عادت الرياض تؤنس: لماذا؟ لأن اليوم هو يومنا الخامس الذى لم تقع فيه عين واحدنا على امرأة، إلا فى التيلفزيون.

كم هو الكون موحش دون امرأة !

* * *

فى اليوم السادس نُظِّمَتْ لنا رحلة إلى الدرعية .

لن تصدقى أنى غافلتُ الجميع ، والتقيتُ الملك عبد العزيز والشيخ محمد بن عبد الوهاب . كانا رجلين من أسرار ، وسألتُ غير هيابٍ ولا وجلٍ : أين اختفت المرأة ؟ فأشار الأول إلى الثانى الذى أشار إلى ابن باز الثانى ، وإذا بأبيك ينتزع من مطوّعٍ خيزرانته ، ويلسع .

منذئذٍ أنتظركِ ، والخيزرانة تقع على يافوخى مرة بعد مرة حتى تطيشنى . وصارت النخلة امرأة ، الوهدة ، السيارة ، بقية السور الطينى ، والغيمة الوحيدة التائهة فى السماء ، ومنذئذٍ أنتظركِ .

ولم أصح حتى همس حنا ، والدرعية تبتعد :

– دبرتُ من يصحبنى غداً فى رحلة إلى قبر مسيلمة . هل تأتى معنا ؟

– مسيلمة الكذاب ؟

– مسيلمة الكذاب ؟

– لكن قبره بعيد . بل مجهول .

– أنت أدرى من ابن البلد ؟

– التاريخ أدرى .

– خلّه ينفعك .

ولم يبح حنا بسرّ دليله ، على الرغم من أننى قررتُ أن أتبعهما . لكن الضابط الوسيم المهذب ـ من الحرس الوطنى ـ الذى استقبلنا فى المطار ، جاء عصراً يسأل عمن يرغب أن يؤدى العمرة .

تأرجحتُ بين حنا والضابط . علىّ أن أرى قبر مسيلمة ، حتى لو كان أثراً بعد عين . حتى لو كان القبر أو الأثر لواحد من أصحاب مسيلمة ، علىّ أن أرى : لماذا ؟ لأننى أريد أن أقترب من سرّ هذا الرجل . لكن الطائرة ستقلع إلى المدينة المنورة قبل أن تنطلق سيارة أحدهم إلى قبر مسيلمة ، وأحمد صالح وعلى شلش يلحّان :

– يلله يا سعد . دى فرصة مش حترجع إلا لمّا . .

فعيّرتُ حنا بمسيحيته التى تحرمه من الفرصة ، وعيّرنى بفجأة إيمانى ورجفته . ومع أحمد وعلى لوحتُ له وللرياض ، ثم لهذه التى كانت يثرب ، فصارت المدينة المنورة : ثمة ما هو مصنوع أيضاً بدقة وترف وبهاء ، لكنكِ ـ إن شئتِ ـ ترين هنا رصيفاً مزدحماً ، وشارعاً ضيقاً ، وتدعين لنا الفرحة برؤية امرأة . أما إن شئتِ أن تلزمى الأوتيل المطل على مسجد الرسول ، لتصلى أو لِتتأملى ، فسندعك وحيدة ، ونسرع إلى هذا المقهى : نستلقى على السجادة الفسيحة ، نداعب ما لعله الرمل الأسود الخشن ، نشرب الشاى ، ونعد نجوم السماء الرائقة فى مثل هذا الليل الربيعى .

أين اختفت الغيمة الوحيدة التائهة ؟
أين اختفيتِ ؟

* * *

من مطار الرياض بات جميل ـ صحفى فى القسم الدولى : جريدة الأهرام ـ دليلنا ، وكان وحده من سبقنا إلى العمرة وإلى الحج مراراً ، رغم أنه ـ أجزم ـ لم يبلغ الأربعين.

من الجلىّ أن جميل ينظر إلينا ـ على وأحمد وأنا ـ بالريبة . لكنه يكسب ثواباً بالسعى معنا ، كما سيهمس لى ، ونحن نطل أول مرة من شرفة غرفتى على مسجد الرسول ، ونصلى على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

لم أسأله عن السبب . وعندما نصحنا بصلاة الفجر فى المسجد لأنها تغسل ما سلف من ذنوبنا : أضاف ـ نظرتُ إليه راغباً ، ونظر إلىّ مؤكداً ، وتركْنا الآخريْن يلغوان ، وأسرعنا إلى شرفة غرفته نرمق : ها هنا تطوى الأرض جسد الرسول ، وعيناى تتعلقان بالسماء كأنما تبحثان عنه ، ثم تعودان إلى تلك البقعة التى أعتمت الدنيا حولها فجأة ، وشفّتْ هى به .

لهجتُ بالصلاة عليه كما أنشأنى أبى وأمى . وتذكرتُ أنى لم أعد أفعل كلما ذكرته منذ سنين بعيدة . وخفتُ من الصلاة التى يدعونى جميل إليها ، ليس لهول ذنوبى ، بل لنسيانى الوضوء والركعات . وعزمتُ على الدوش بدلاً من الوضوء ، وعلى تقليد جميل فى الركوع والسجود ، وطمأننى ما أحفظ

من القرآن ، وتبسمتُ لوالدى الذى سرّه أن يرى ابنه يصغى كل صباح إلى عبد الباسط عبد الصمد من إذاعة ما : كنتُ فى سنتى الجامعية الثالثة ، وكان أمامى امتحان عسير فى مقرر القرآن والحديث ، شفوياً وكتابة ، على يد الشيخ صبحى الصالح .

هبة : من قتل الشيخ صبحى الصالح ؟ من قتل حسين مروة ؟ ولماذا ؟

هبة : أيقظنا هاتف الأوتيل كما أوصى جميل ، لكن الوقت لا يزال مبكراً ، وبيننا وبين المسجد خطوات ، فلماذا لا نغفو قليلاً ؟

وافق جميل على اقتراحى . وحين استيقظ كانت الشمس قد أضاءت . وهتف لى حانقاً :

– لم تعد الصلاة تصح .

فعوّلتُ على صلاة الظهر ، وأسرعتُ إلى الدوش ، ثم أسرعتُ إلى الخبيثين أحمد وعلى اللذين صليا الفجر ، وتركانى لجميل .

طالت شماتتهما بى حتى أقلتنا سيارة إلى قبر حمزة : سوار خفيض يطوقه ، وباب من القضبان الحديدية يتمسّح به رجل وامرأة ، وبالكاد يعلو القبر على ما حوله :

– مُسِحَتْ القبور هنا .

قال جميل ، فتساءلتُ فى سرى : أى تاريخ سينكتب عندما

تُنبش دفائن هذه الأرض؟ والآن أتساءل عما إن كنتِ أردتِ حقاً أن تصيرى عالمة آثار عندما أهديتكِ رحلة إيبلا، بل عندما رافقتِ بعثة التنقيب الأمريكية إلى مغاور يبرود.

قبلَ ذلك أو بعده عبرنا الخندق. وعلى الرغم من أنه بدا لى صغيراً ومؤرَّخاً بالنفايات، لم أر فارساً يقفز فوقه. وقبل الخندق أو بعده هجم علينا جبل أُحُد: القتامة والعراء والوحشة التى قلتِ إنكِ تعرفين فى منطقة الوعر جيداً، من أطراف حمص إلى أطراف تلكلخ: ها هنا إذن كانوا يتحاربون، فإلى أية قتامة ينتسب عبدالوهاب بديعة ومديحة الدريّك والرفيق الدكتور جوزيف حواش والطفل شفيع، وإلى أية وحشة أو عراء؟

ها هنا أيضاً ـ قال جميل بعد قليل وبعد مسافة ـ مال صلى الله عليه وسلم بالقبلة عن القدس: مسجد ذى القبلتين، وعلينا أن نصلى ركعتين ـ أم أكثر؟

أشار جميل إلى الميضآت، لكننى أعفيتُ نفسى من الوضوء بالدوش ـ لم تل نجاسة قط ـ وتبعنى أحمد وعلى، فتوضأ جميل وحده، فانتظرته، ثم تأخرت عنه شبراً فى وقفتى إلى يساره، وضبطتُ حركاتى على إيقاعه، متلصصاً، ومؤثراً ـ كما تتوقعين ـ قصار السور.

وحول أعمال التوسيع فى مسجد الرسول، وفيه، قضينا ما كان يفصلنا عن صلاة الظهر. وفى انتظار المؤذن تجرأت على

أن أقترب من الرجل الذى أحسب أنه يحرس الروضة: ها هنا يرقد، وها هنا يرقدون، وعلىٌّ بعيد، وأنا أقرأ الفاتحة، وأنتزع هدأةً من التدافع حولى، كى أطوى الأرض والسماء، وأراه، ثم أراهم واحداً واحداً: أبابكر وعمراً وعثمان وعلياً أيضاً، ثم أعود لأنحشر بين على شلش وجميل، أتلفت، ألوى عنقى خلفاً، ترمينى بالدوار غابة الأعمدة والأقواس المذهبة والنجميات والآيات المزخرفة والثريات والمكبرات والطواقى والكوفيات، وينقذنى جميل إذ يسألنى:

– مالك؟

فألتفتُ يساراً، وأفتقد ما حسبته على باب الروضة من دوائر سوداء صغيرة أو قفل، وأُبدِلُ هذا البهاء بلبنات وقصبات وقنديل وتراب، تماماً مثلما كان المكان قبل ألف وأربعماية سنة.

هبة: أنت لم تختارى أن تكونى مسلمة. وأنا ـ بانتظار المؤذن ـ فكرت فى أنى لم أختر أن أكون مسلماً. ابن باز الثانى ـ أبوكِ لم يختر أن يكون مسلماً، وإسبر فارس لم يختر أن يكون مسيحياً. هو الآخر له ابن بازه الأول أو الثانى أو الألف. وأظنك ستقولين: لكن إسبر فارس كان يستطيع أن يسلم كى يتزوج راغدة، وتكون له زوجتان. الرفيق الدكتور جوزيف حواش كان يستطيع أن يسلم أيضاً لتكون لشفيع جنسيته السورية: هل هذه هى حرية الاعتقاد فى البند الكذا

من إعلان حقوق الإنسان؟ هل تعنى فقط ألا يؤذى أحدٌ الآخر فى معتقده، أم تعنى أيضاً أن يعتقد الإنسان بما يشاء؟

سأدعك تنعتيننى بالمروق، أو تخافين علىّ ممن ينعتوننى بالمروق، فقط لأنى أتساءل، وسأعود إلى صلاتى فى مسجد الحبيب: بلا حسيب ولا رقيب من كل ما قرأتُ أو عشتُ.

هبة: حين سلّمتُ يميناً أفقتُ على هول الحشد. وحين سلّمت يساراً رأيت نفسى قطرة فى بحر: ما يحسب الإنسان نفسه؟

أنتِ ـ أنا ـ الإنسان بين البشر هو واحد، وفى الطبيعة هو واحد، فلِمَ إذن كل هذا الكبرْ وهذا الجفاء؟

لِمَ هذا الجبْر والتجبّر؟ ماذا يعنى أنّ عليه أن يصنع المعجزات فى ستين أو سبعين سنة ـ كم ستعيشين؟

هل يصدّق الإنسان حقاً أنه يخلد فى تمثال أو رواية أو ..؟

بالله عليكِ أجيبينى الآن: ما الخلود؟

بعد الصلاة والغداء ضاق الوقت. ابتعنا ما يلزم للإحرام. لماذا لم أُحضرْ حتى الآن تينك المنشفتين البيضاوين الكبيرتين إلى غرفتنا ـ عشّنا: واحدة لكِ وواحدة لى؟

لكى لا نُحْرِم حيث تحدد الطائرة بين المدينة وجدة، أحرمنا من الأوتيل. وقبل أن نتوجه إلى المطار، ابتعتُ وأحمد وعلى من دكان قريب سبحات ملونة وقبعات بيضاء مخرمة مما يغطى رأس ابن باز الثانى وشبله الصغير محمود، وكان يغطى

رأس والدى أيضاً، رحمه الله.

هبّ الهواء الناعش ونحن عائدون إلى جميل والسيارة التى تنتظر أمام الأوتيل، فهمست لأحمد وعلى مشيراً إلى ما بين فخذىّ:

– شوفوا الهوا بيلعب إزاى!

فوقفا مباعدين سيقانهما، وصاح على:

– الله! إيه النعنشة دى يا ولاد!

وهددنى أحمد بالشكوى إلى جميل الذى كان قد تولى ترتيب سفرى صباح الغد من جدة إلى دمشق: علىّ إذن أن أقوم بالعمرة الليلة.

* * *

قبل أن نغادر مطار جدة أعلن الضابط الذى استقبلنا ـ من الحرس الوطنى أيضاً، كسلفه فى الرياض ـ أن السيارة جاهزة لتقلّ من يرغب إلى مكة فوراً. وفيما آثر الآخرون انتظار النهار ـ كانت شمس جدة الآن تغطس فى بحرها ـ تطوع جميل بمرافقتى: ليكسب ثواباً، سأهمس له ممازحاً، والسيارة تتهادى بنا إلى مكة، لكنه لن يبتسم أو يعبس أو يعقب: إنه يتمتم وحسب.

لهوتُ بالطريق التى أخذت تتعرج وتصعد، وهى تزداد ملاسة. وتذكرتُ شريك عبد النور المسيحى الذى عاف الشراكة ونشْر الكتب، ويمّم ـ بفضل الحرب الأهلية اللبنانية ـ

إلى الديار المقدسة. وربما كان عبد النور صادقاً: علقتْ سنارة الرجل بمشروع تكييف الحرم، فصار مليونيراً: بالدولار أم بالليرة اللبنانية؟ أسأل عبد النور الآن مناكفاً، والسيارة تتباطأ فى مكة إلى أن تقف أمام الحاجز، والسائق يخاطب ضابطاً:

– ضيوف صاحب السمو ولى العهد.

رحّب الضابط، وسمح للسيارة بأن تنزلق أمام العتبة: كل هذا الدلال وهذا الجاه لكَ يا سعد أيوب!

وكما فى مسجد الرسول، رمتنى بالدوار القبابُ والمآذن والكاميرات ـ تُراها نُصبَتْ بعد ما كان من جهيمان هنا؟ وكم مرة اقتُحِمَتْ الكعبة إذن؟ ـ والرخام والصنابير والسجاد والكهرباء: لم يعد لمكة ليل!

لا أدرى إن كان جميل هذه المرة قد فاقم الدوار أم أنقذنى منه. كنتُ لهفان كى أرى الحجر الأبيض الذى جاء به جبريل من الجنة إلى سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ فسوّدتْ خطايانا بياضه. لكن جميل قادنى من الوضوء بماء زمزم إلى الركوع عند قدم إسماعيل المسوّرة بقفص زجاجى، ثم: الطواف.

وددتُ لو تُفتَحُ لى الأستار وأرى الحجر كله، بل وأغسله، فما أنا إلا واحد من الأشراف أو الملوك أو الرؤساء، لذلك يفسح لى العسكرى الذى يحرس ما ظهر من الحجر: كل هذا الدلال وهذا الجاه لكَ يا سعد أيوب!

عن المرحوم أبيكَ وعن أمكَ قبّلْ هذا الحجر، ودعْ كفّكَ تتمسحْ بالحجر، فلستم فى هذه العشية من هذا اليوم الربيعى غير عشرات يطوفون هنا، وعشرات يصلون هناك، وعشرات يطوفون بين الصفا والمروة. لكنكَ تضيق بالسؤال عن محيط الدائرة والمركز فى الأحزاب والأُسَر والمؤسسات والمجرات: لا بد من المركز وإن تعدد مراكز، ولا بد أن يتعلق المحيط بمركز، مهما تكن له حرية الانفلات والانفلاش، فازجرْ شططكَ الآن، واندغمْ فى هذا الطواف المقدس، ثم اصغ إلى صوت الإمام الشجى، كيلا تضيق بهذا المصلى الذى تسوّى أصابعه عباءته، أو تنكش لحيته أثناء تلاوة الإمام للآيات التى نسيتَ منذ نجحت فى مقرر القرآن والحديث بدرجة جيد جداً. ولا تظنن أن هذا الذى يتأخر عن السجدة رجل أمن، فلستَ فى صلاة عيد أو استسقاء، يتصدرها رئيس أو ملك أو نائب لرئيس أو ولىّ لعهد، وأمّنْ على دعاء الإمام لولى الأمر بالتوفيق، ولا تعجبنّ من هذا الذى يلبس البذلة الرياضية ـ أديداس ـ ولا من هذا الذى يتلمس الكرافتة وصلعته التى تتلامع بما يتناهى من الإعلانات الملونة فوق الأبنية الشاهقة القريبة، واجرِ بين باب وباب، واعتبرْ بسعى المُقْعَدين فى مسعاهم الخاص، وبالقرون التى بدلتْ أهل ما يتراءى لكَ من الجوار خلل الأبواب: سوق المسعى على امتداد المشعر، سوق سويقة قرب المروة، قصب السكر والفضة وأقمشة الشام وحلب والأحجار الكريمة، وها

هنا إذن كانت البارات والقيان، ها هنا كان سريج والغريض يغنيان: لماذا لم أبحث في المدينة عن مكان معبد؟

هبة: ربما كنتُ سائحاً بين الحرمين - أحلم بحجة لنا معاً إلى ثالث الحرمين: سيتحرر من أسر إسرائيل - وربما كنتُ سائحاً في مدريد أو مجريط، لكن الأمر ليس عابراً ولا فاتناً، كما يليق بسائح. ولعله السر الذى شكّل ويشكل حياتنا منذ أطلقه ذلك الفضاء قبل أربعة عشر قرناً، مثلما أطلقه فضاء فلسطين قبل عشرين قرناً، ومثلما... سأدعكِ تعددين ديناً فديناً فديناً، لأعدد حضارة فحضارةً أو أسراراً فأسراراً - بالأحرى: إيمانات - ثم أوحدها فيكِ، لعلى - حين أجلو أى طرف منها - أدرك من أنا ومن أنتِ.

هبة: أحبك.

* * *

أنتِ تجلّين إلياس مرقص كما أجلّه. ولأنه وإسبر فارس مسيحيان، أهديتهما مما حملت من المدينة: لكلٍ سبحة وقبعة، كما أهديتُ مظهر ومطاع وعبد الوهاب، ولازلت أحتفظ بسبحة وقبعة، سأهديهما إلى أبيكِ ابن باز الثانى، أو إلى شبله الكبير وليد، أو إلى شبله الصغير محمود، كرمى لك، وليتنى فعلت حين زرتك فى سباتك: هل ستظل زيارة يتمية؟

أما من الرياض فلم أحمل سوى عدد من مقالات منير

العجلانى، نُشِرَتْ منذ عشرات السنين، وأهدانى بعضها فى نهاية زيارتى، فيما أهدانى أبو عادل الباقى.

واحدة من تلك المقالات كانت مقدمة العجلانى لرواية معروف الأرناؤوط: سيد قريش. وكنتُ قد قرأت شطراً من الرواية أثناء دراستى الجامعية. ولا زلتُ أذكر ابتداء العجلانى بعبارة لمونترلان: "لم تكتب فرنسا منذ عشرين عاماً صفحة حب" وبعبارة لمورياك: "الحب - هذا الينبوع الثر الذى تستقى منه الروايات حياةً - فى فرنسا، تبذّل".

ولا زلتُ أذكر أيضاً من تلك المقالة التى كتبها العجلانى قبل ستين سنة أو أكثر، أنه تمنى لأدباء سورية أن لا يقعوا فى شباك المذاهب الفرنسية فى الآداب، لأنها برأيه مذاهب مستبدة. ومن الطريف أنه أضاف أن هذه المذاهب تتعبه أكثر من أحزاب السياسية والكذب.

هبة: لو أبدلت كلمة (سورية) بكلمة (العرب)، وحذفت كلمة (الفرنسية)، كيلا تستثنى مذهباً، فهل يصلح قول منير العجلانى ليومنا، وربما لغدنا؟

ولو أبدلتِ (فرنسا) فى عبارتى مونترلان ومورياك، بكلمة (سورية) أو بكلمة (العرب)، فهل تصلح العبارتان ليومنا، وربما لغدنا؟

لقد تهيأت لسفرى إلى إسبانيا بأوراق شتّى، قلّبتُ بعضها أمامكِ، ومنها ما نقلتُ من مقالة العجلانى تلك، ومنه الإشارة

فيها إلى صدور كتاب (فلوريندا البيزنطية) للكاتب الفرنسوى - بلغة العجلانى - دى سيكونزاك، وهو أحد موظفى دار الحماية الفرنسوية فى مراكش.

هذا الكتاب الذى صدر فى الاحتفالية الفرنسية - بل الفرنسوية - بمئوية احتلال الجزائر، يعرض - برأى العجلانى - فتح العرب فى الأندلس، فيشوهه تشويهاً، كأن يرى أنّ عزل طارق بن زياد من قيادة الجيوش الفاتحة، وتوليتها لموسى بن نصير، إنما كان لأن العرب أرادوا أن يكون لهم مجد الفتح، لا للبربر الذين كان منهم طارق.

هبة: أمسِ أرقتُ، لفرط ما فكرتُ فيك، أو لأنك لم تخطرى لى على بال، فعالجتُ الأرق ببعض ما حملتُ من الأوراق، وهذه آخرها، تنقل مما كتب العجلانى فى مقدمته لرواية معروف الأرناؤوط: "كنتُ أعارض بلذة بليغة رواية حى بن يقظان لمفكر الأندلس الكبير ابن طفيل برواية روبنصون كروزوه للكاتب الإنجليزى دانييل دوفوه، رجاة أن أعرف ما بين الروايتين من ائتلاف واختلاف، ثم أكوّن لنفسى رأياً فى قيمة ما زعمه أستاذى مونيه من أن دوفوه قلّد المؤلف العربى. ولستُ أشك الآن فى أن دوفوه نقل أو قلّد أو سرق - أو قلْ ما شئتَ - وزير ابن المنصور، فرواية الوزير وُضِعَتْ فى القرن الثانى عشر للميلاد، وتُرجِمَتْ إلى الإنكليزية عام ١٧٠٩، ورواية الكاتب الإنكليزى لم تُنْشَرْ فى الناس إلا عام

١٧١٩".

غير أن العجلانى يفضّل رواية الإنكليزى، لأن "الفلسفة والعلم صبغا رواية ابن طفيل بصبغة غريبة، وربما قال البعض إنها صبغة غليظة". حرفياً.

ولا يشك العجلانى فى أن الروايات الجدية فيها جميعاً فلسفة، على الأقل فلسفة حياة "لكن هذه الفلسفة قد تلطف حتى تفنى فى مجموع الرواية". حرفياً. وهذا ما يفضله العجلانى أيضاً.

هبة: إذا أمد الله بعمره وبعمر الجابرى، وعادا إلى البلاد، فسأجمعك بهما. وإذا دُعيتِ إلى مهرجان الجنادرية، قبل ذلك، فلا بدّ لكِ من زيارتهما، إن لم يسبقكِ الموت إليهما.

وبربكِ قولى: هل ستؤدين العمرة؟ بل هل ستحجّين؟

هبة: أحبك.

طليطلة

"حب، أحب، يحب، عشق، يعنى: حبٌ يربط بين اثنين معاً، شغفٌ هو حبٌ يعشش فى حجرات القلب، هيامٌ هو حب يطوف الأرض، تيهٌ يعنى: حبٌ تفقد فيه نفسك. ولهٌ هو حب يحمل الأسى فى طياته، صبابة تعنى: حبٌ ينضح من المسام، هوى هو حبٌ يشترك بالاسم مع الهواء ومع السقوط، والغرام هو حب على استعداد لدفع الثمن".

أهداف سويف

.. ثمّ حضرتْ غلوريا فى الثامنة والنصف، فلعبتُ بما قاله دييغو فى صباحنا الأول:

– دقة المواعيد لا تليق بكِ يا سليلة العرب والمسلمين.

لكنها لم تضحك كما توقعتُ، فخجلتُ من مزحتى، وتابعتُ قبل أن أطبق باب الحمّام:

– بعد عشر دقائق أكون جاهزاً.

قالت وهى تفتح النافذة:

– يعنى نصف ساعة.

هبة: ماذا أفعل إذا كان نصف الساعة هنا يعنى أربعين دقيقة، ودقيقة انتظارى لمواعيدكِ السائبة دوماً ـ معى فقط ـ تساوى ساعة؟

كانت غلوريا لا تزال فى وقفتها عندما صحتُ بها:

– أنا جاهز.

فأجفلتْ وتراجعتْ عن النافذة، وبدتْ مكمودة، وكنت أطوى على ساعدى المعطف الذى تفضلتْ منظفة الغرف أخيراً علىّ وعليه، فأزالت تبقّعه: اطمأنى.

حاذيتُ غلوريا، ورأيتُ فى الحديقة ـ لأول مرة ـ الشجرة الهائلة الملكوخة القريبة: عجوز، كما تصفين ابن باز الثانى، ولم أره كذلك عندما زرتكِ فى سباتك.

تنبهتُ ـ لأول مرة أيضاً ـ إلى أن الحديقة بلا عصافير، بلا أى طير، وأصابتنى غلوريا بعدوى الكمد، فلم نتبادل كلمة حتى وصلنا إلى محطة تمارتين: هنا بدتْ جاهلة مثلى فى البحث عن

قطار يقلّنا إلى طليطلة: بمن أشبّه غلوريا؟

لمكتب الاستعلامات حجزتْ دوراً. وبهداية الموظفة البالغة الشقرة والبدانة، تابعنا إلى محطة أوتشا، وأخذتْ غلوريا تعود إلى ضحكتها، وتعدد محاسن السفر بالباص من محطة السور المجاورة:

– منذ سنوات لم أسافر إلى توليدو بالقطار، وعلى كل حال الرحلة نصف ساعة بتوقيتك.

قالت، وكأنى كنتُ أدعوكِ وراغدة إلى العشاء، وأختار مطعم التوليدو، ليس كرمى لتاريخنا المجيد، بل لأن عبد النور كان يستضيفنى وسالم فيه، كلما صادف قدومه من بيروت قدومى من اللاذقية. لقد دعوتُ زهية إلى المطعم نفسه مرتين.

بالطبع سبقتكِ ـ ماذا يهمنى من أمر راغدة، سواء تأخرتْ أم بكّرتْ؟ ـ وانتظرتُ الدقائق التى تساوى كل منها ساعة، لكن خطواتك التى كانت رائقة مثل ابتسامتكِ، أنستنى الزمنَ وراغدة والنادلَ الذى أطاشنى رواحه ومجيئه:

– بتأمرْ شى أستاذ؟

ولأنى خفتُ من أن تشتبهى بجلستى لصق راغدة، أو بهرفى فى عرى كتفيها، أزحتُ الكرسى حتى أقابلكِ تماماً، وأحسم أمرى: عينان تتمرغان على الشامة الساطعة فوق خدك، ورموشك ترفرف، وراغدة تصخب:

– شو هدا يا؟ إذا من أولها هيك، كيف بعدين؟

من بعد صرنا نجلس متقابلين كلما جمعنا مكان مع سوانا. ابتداءً

من عودتي سنجلس متجاورين، كما أجلس وغلوريا في أي من هذه المقاهي الصغيرة مأسورين بهذه الحديقة الاستوائية المغلقة بالزجاج المعشق، نتلهى بالنيلوفر والنوافير، وننتظر قطارنا الذي سأظل أنتظره، بعد أن ينطلق في فضاء الذرة البيضاء والدوالي الأرضية والحور والغار والزيتون، حتى تشير غلوريا إلى جهة أخرى غير الجهات الأربع: لوسينا هناك.

* * *

لوسينا التي كانت قلعتها سجناً لابن الأمير عبد الله ـ الصغير كما اشتُهر، والإسباني كما تريده أنطونيا أو غالا ـ قبيل سقوط غرناطة، هي التي غامت لها نظرات غلوريا وصوتها:

– هنا عشتُ أسبوعاً لا أظنه يتكرر.

همستْ كأنها تنتظر أن أستزيدها، ولأمرٍ ما لم أفعل حصتُ، فتابعتْ:

– كنا في لقاء الثقافات الثلاث. قل: الديانات الثلاث. كانت اللقاءات السابقة تنعقد في توليدو. اليوم الأول كان لكم: الآذان والصلاة خمس مرات. كانت مديحة قد حدثتني عن ذلك. وفي الجامعة أيضاً، أذكر أن أحدا حدثنا عن ذلك، دييغو أو سواه. واليوم الثاني كان لليهود. اليوم الثالث كان لنا.

وسكتتْ، وبدا أنها تنأى عني، ثم تابعتْ كأنها تحدث نفسها:

– كنت أعمل في (أحلام تور) بصورة مؤقتة. كان ديفيد ـ رئيسي ـ بدلاً من أن يسلم على أي موظفة أو موظف، يقول: أحلام

تور ملتقى السائح والمقيم في إسبانيا.

غالبتُ الضحكة، وربما فاتتني كلمات قبل أن أتبين صوتها أهدأ وأقرب:

– من بين الجميع اختارني لمرافقته إلى لوسينا. خفت أن أرفض فيعجل بفصلي. لا. لم يكن هذا هو السبب. كنت واثقة من اهتمامه بي. ربما خفت من إعجابي به. أسبوع وأنا في دنيا أخرى. كنت في حلم من أحلام تور: جلسات الحوار في خيمة، مصور لوسينا التقط لنا عشرات الصور: على أطباقكم وسط الزحام، مع الفرقة الأندلسية من طنجة، مع فرقة القدس من فلسطين، مع نور المصرية بثيابها البدوية، مع ماري باث بايسترو التي أشرفت على اللقاء كله. امرأة رائعة. كم تمنيت أن يكون لي مثل شعرها المرخي الطويل.

والتفتتْ إليّ: نظرتها مخضلة، كصوتها، ووضعتْ كفها على كفّي، كأنها آيبة من سفر، وقالت:

– ماري في الخمسين. وأنا كنتُ مسحورة. كان ديفيد هو الساحر. لو رأيته يرافق فرقة ساراغوثا في الألحان الأندلسية الكلاسيكية، لظننته قائد الفرقة. لو رأيته مع فرقة الدبكة اللبنانية، لضحكت حتى الإغماء. لو رأيتنا على رقعة الشطرنج: أصرّ على أن يكون الملك وأكون الوزير. رقعة هائلة والجميع يتنافسون على دور جندي، قلعة، أي دور. لوسينا قلعة يهودية. ديفيد يعرف التاريخ جيداً. لماذا تقولون: لوسينا قلعة عربية؟

ولأنها لم تكن تنتظر جواباً، ظللتُ صامتاً وهى تسحب كفها وتتنهد، ثم تنأى من جديد، وتحدث نفسها:

– سبعة أيام لم نفترق ليل نهار. وفى العودة ـ فى سيارته ـ طلب منى أن أرافقه إلى إسرائيل: إجازة وعمل معاً، نتفرج، ندبر عقوداً، ويمكن أن نزور الأردن ومصر. سنزور البتراء ونزور الأهرامات. ترددت أسابيع حتى قال: نتزوج ونهاجر إلى إسرائيل. أنا أستعد للهجرة إلى إسرائيل منذ وقت طويل. وسألتْ أمى: والأولاد؟ وراهننى أبى على أن ديفيد عقيم، وإلا لَمَا رضى بالزواج من مسيحية.

وعادت إلىّ محتدة:

– لماذا أنكر علىّ؟ أنا رفضت مرافقته لأننى خفت، لا أعرف من ماذا. قلت له: أنا لا أحب إسرائيل. وقال: أنت لا تحبيننى إذن. قلت: أنت إسبانى يا ديفيد. سألنى: وإذا صرتُ إسرائيلياً؟ احترت. أنا أحبه، ولكن لماذا إسرائيل؟ لماذا صار يتحاشانى؟

وأرختْ ابتسامة أسيانة، ومسحتْ دمعة، وناسَ صوتها راجفاً:

– لم يدم الأمر أسبوعاً ثانياً. مرضتُ وندمت. انقطعت عن العمل فترة، عدة أيام، ولما رجعت وجدت أنهم فصلونى، وديفيد سافر. كثيرون فيما بعد أكدوا لى أنه عقيم. وبعد شهور دبرت عملاً فى وكالة سفرتور. وقبل أن أكمل شهرى الأول حضر ديفيد، وسألنى أمام الجميع: ما زلت تكرهين إسرائيل؟ وبعد أيام فصلونى. أبى يؤكد أن ديفيد هو السبب. منذ فترة هاجر، ومع ذلك أنا خائفة

حتى اليوم.

ونهضتْ مرتبكة، وكان القطار قد توقف.

* * *

تأبطتْ ذراعى، والتوخو يومض ـ من شبهه بالعاصى؟ ـ وأنتِ ترغطين مثل طفلة مهبولة:

– هيه وصلنا.

وتشابك كفانا ـ أنتِ وأنا ـ لكأن غلوريا تتقدمنا وسط زحام السياح. وبعد خطوات صَحوتُ على أصابعى تنفك من أصابعها، وكانت تقول:

– ربوة توليدو مثل ربوة غرانادا. هل تعرف أنها صارت عاصمتنا بعد سيفيليا؟

وضحكتْ، وقطع الزحام ضحكتها وباعدنا. وحين قاربنا من جديد، ضحكتُ من تنقل العاصمة الإسبانية من إشبيلية إلى قرطبة إلى غرناطة إلى هنا خلال سنوات، قبل أن يختار فيليبى الثانى مدريد.

وتوقفتُ وسط الجسر أدقق فى الفضاء لعلّى أقع على البقعة التى التقى فيها موسى بن نصير بطارق بن زياد. وحاولت أن أتبيّن ما يقرّع به ذلك العربى هذا البربرى، لكن غلوريا كانت تقول:

– هنا كانت قاعدة القوط فى إسبانيا، وهم جعلوا توليدو العاصمة حتى جاء طارق وموسى.

حاولت أن أتبين الفرق بين عربى مسلم وبربرى مسلم بغير

التقوى، لكن غلوريا كانت تقول:

– فرديناند الأول هو الذى استعاد توليدو.

فتساءلتُ عما جعله إذن يعين ملكها المأمون عاملاً له عليها، فقالت ضاحكة:

– أنت أفضل من ديفيد فى التاريخ.

بمن أشبه غلوريا؟

هجستُ وأنا أنحنى على النهر، وأزنّر طليطلة مثله. ومن بعيد جاءنى صوتها:

– الرومان بنوا هذا الجسر، القوط، العرب ..

وظللتُ ذاهلاً وهى تنتشلنى من النهر، وتتقدمنى حتى بلغت البوابة الحجرية التى تتوسط هذا السور العربى.

ثمة وقفتْ، وأشارتْ إلى لوحة ونقش، وقرأتْ بجلال:

– مدينة توليدو مجد إسبانيا ونور مدنها.

ثم خاطبتنى باعتداد:

– ثيرفانتس من قال.

أقبلتُ على النقش أتهجى أصابع ثيرفانتس. رأيته يضحك وحيداً، بلا حصان ولا خشبة ولا تابع ولا رواية، كأنه التوخو الذى لم يعد يشبه العاصى الآن، لأن عابراً يحدق بى: وسط رأسه حليق، وحول وسطه زنار مبرقع ومُحكم.

سألتُ الرجل:

– أين عقلكَ؟

فقال:

– ما فعلتُ هذا إلا بعدما كمل عقلى.

وسألتنى غلوريا:

– أنتَ بخير؟

فقلتُ:

– هذا الرجل شاعر. إنه أبو القاسم بن الخياط، وهذا ما فعل بنفسه عندما استرجعتم طليطلة.

فقالت ضاحكة:

– أنت أفضل من ديفيد فى التاريخ.

وسرنا صامتين خطوات، ثم تابعتْ:

– قرأتُ منذ فترة رواية (الحجر الكريم) لجيلبرت سينويه. الرواية عن توليدو عام ١٤٨٧. كانت المدينة تعجّ بالشعراء والعلماء منكم.

– من تعرفين منهم؟

سألتُ، ولم أنتظر جوابها، بل اندفعتُ أعدد بزهو:

– ابن العسّال وابن نصر أبيض والوقشى وأبو عامر بن الفرج وأحمد بن وسيم وغيرهم من الشعراء واللغويين، عدا عن العلماء والفلاسفة والأطباء.

وكنا قد تجاوزنا البوابة، فاستدرت إليها أبحث عما أقوله لثيرفانتس عن هبة عمار، لكن لسانى لغا بهذا الذى حاول أن يطير: عباس بن فرناس، وقلت:

– ربما تعرفين أنه بربرى، وأنه صنع المثقال لمعرفة الأوقات قبل ألف سنة.

وانعقل لسانى لأن حكيم الأندلس لطا فى منتهى القنطرة، يشهد هياج الأمير محمد بن عبد المطلب الذى أطلق على المدينة المنجنيق والهيلكوبتر والسيوف والرشاشات والفرسان والوحدات الخاصة والنبال والقنابل اليدوية وقذائف الدبابات، كى يخمد ثورة المدينة عليه. ولما تهدمت القنطرة رأيت ابن فرناس ينقذف إلى التوخو الذى تعكرت ماؤه بالدماء والركام والجثث، كأى نهر من أنهارنا يزنّر أو يشق أية مدينة ثائرة من مدننا فى أى زمن. وبصعوبة سمعتُ غلوريا تقول:

– أنتم دمرتم بقدر ما بنيتم.

وضمّ كفها ساعدى، ونحن نقترب من بناء صغير. ولما وقفنا أمامه قالت:

– أنت تصلح لأن تكون دليلاً سياحياً، ولكن للماضى. أنا دليل سياحى للحاضر. وفى توليدو، كما فى غرانادا، أنا أفضل منى بكثير فى مدريد. انظر هنا.

– هذا مسجد.

قلت كمن ينتفض من كابوس، وهممت بالاقتراب أكثر، فزجرتنى:

– الدخول ممنوع.

توقفتُ أتهجى النقش الحائل، ولم أتبين إلا البسملة، فتمتمت

بها، وكانت تنادينى وتفسح خطاها، فلحقتُ بها فى هذا الشارع الصاعد المبلط بالحجر الأسود والحصى الكبير اللامع المرصوف على الجانبين ـ هل هما رصيفان؟ ـ حتى كنيسة القديس دومينيغو.

بعدئذٍ صارت خطا غلوريا أكبر وأسرع، وأنا لا حول لى فى مجاراتها. أود لو تتباطأ، وأضيق بالسيارات التى تعبر فى هذا الشارع الضيق، بل فى هذا الزقاق الضيق، تماماً كما فى زقاق طالع الفضة: أين البيت الذى اشترته إذن هبة عمار بورقة يا نصيب؟

* * *

توقفت غلوريا أمام باب دمشقى عتيق ومغلق، تعرش عليه الياسمينة، وقالت جذلى:

– هذا بيت خالى ميغيل. ترك غرانادا منذ شبابه وأقام هنا. هو الآن أمهر من يعمل فى الحرف التقليدية فى توليدو.

وتوقعتُ أن تدخل، لكنها مشتْ قائلة:

– هو الآن فى العمل. لا أحب أن أزور بيته إذا كان غائباً. زوجته تمقت أى واحد من أسرتنا، بل تنفر من أى زائر.

وفى الزقاق الذى تلا دلفتْ بوابة البيت الثانى الذى صادفنا، وأفضى الباب إلى البحرة والنافورة والأصص، خلف حاجز من القضبان.

– إلى أين؟

همستُ محذراً، وأنا أدقق فى الشبه بين ما أرى من البيت وما رأيت من بيت ابن باز الثانى ـ سأعوّد نفسى على أن أقول: بيت هبة

عمار ـ وقالت غلوريا :

– ألا تريد أن ترى بيتاً من دمشق ؟ أبى يقول : هذا كان بيت جده قبل أن ينتقل إلى مدريد .

وحيّتْ عجوزاً التفتتْ نحونا من أعلى الدرج .

وأخذنى الشبه الذى تراءى لى بين العجوز وبين أمك : من منهما رأيتُ فى زيارتى اليتيمة لبيتك أثناء سباتك ؟

لذلك حشرتُ رأسى بين قضبان الحديد الملونة ، وبالكاد سمعتُ غلوريا تقول :

– يستطيع أى عابر أن يقف مثلما نقف فى بيوت كثيرة فى هذه الأزقة ، ويتفرج . أبى لا زال يأتى إلى هنا ، وأحياناً تدعوه العجوز إلى الداخل . بيت خالى ميغيل أجمل ، لكن زوجته نقلت منذ سنة هذا الحاجز إلى البوابة ، إلى خلف الباب الذى رأيت . يجب أن تجبرها البلدية على التراجع .

كانت عجوز البيت الآن ـ أمكِ ـ تفلّى أصيص الدرجة الأخيرة : حبق يا هبة : ناديتكِ لتحدثينى عن ورودك وداليتكِ ونافورتكِ وبحرتك ، فابن باز الثانى لم يدعنى أرى البلاط الذى تمشين عليه حافية ، وأنا بحاجة لأن أرى طاولتكِ وسريركِ وخزانة ثيابكِ ومكتبكِ وألبوم صوركِ ، لأنقشها هنا على صدرى ، وأتملاها وقت أشاء ، ولا أعود أخشى أن يفصلنا شهر أو يوم بين لقاء ولقاء .

بانتظار أن تحققى لى أمنيتى الجديدة القديمة ، سأتهجاكِ الآن فى وجوه البنات الطليطليات الشاميات ، وأقبل شامة وحيدة على وجنة

وحيدة ، وألحق بغلوريا لنعبر بكنيسة القديس سيلينو ، ثم نتوقف فى رأس هذه الحارة التى قررت أن أسميها سوقساروجة : قلت لغلوريا ، فتعثرت فى النطق بالاسم ، وضحكتْ ، وضحكتُ ، وهى تشير إلى الكنيس فى مدخل الحارة قائلة :

– هنا مقر رئاسة الجالية اليهودية فى إسبانيا . هى جالية صغيرة . وقبل موت فرانكو واعتراف إسبانيا بإسرائيل ، لم يكن لها أى نشاط .

خشيتُ أن يعود ذكر ديفيد ، فلم أعقب ، على الرغم من أن الأمر شغلنى حتى أشغلنى عنه الطواف بالمتاجر الصغيرة والكبيرة . ورأيتنى فجأة على شفا حفرة هائلة وخادعة : هنا بالضبط ، وربما فى أية حفرة أخرى فى طليطلة ـ بالضبط ـ نصب الكمين القادة الطامحون من أجدادنا أو من أبنائنا ، لقادة متأبدين من أجدادنا أو من أبنائنا : هوب : وقع المتأبدون السابقون فى كيد المتأبدين اللاحقين ، كما سيقع أولاء فى كيد تالٍ ، فذبحوهم واحداً واحداً ، كما سيُذبحون هم واحداً واحداً ، وأنا أترحم على ماضينا ومستقبلنا ، وأهرب من حاضرنا ، لألحق بغلوريا إلى هذا المتجر الذى يُدلّ بخصوصيته من بعيد .

– تعال : هذا خالى .

قالت غلوريا ، وكان الرجل الخمسينى الأجلح مكباً على طبق صغير ، ينقر بخفة ونعومة ، مأخوذاً بما بين يديه .

– ميغيل .

نادتْ، وأجفل الرجل، ثم أشرع ذراعيه العاريين النحيلين، لترتمى هى فيهما، ثم صافحنى، ثم عانقنى وهى تقدمنى له. وتدافعتْ عباراته وحركات يديه، غير عابئٍ بلهاث ترجمة غلوريا، ولا ببلهى: أجدادى الذين عاشوا فى هذا المكان ـ قال ـ هم الذين نقلوا إليها صناعة الأطباق والحلى الذهبية. فأضفتُ فى سرى: أجداد هبة الميامين يا ميغيل. وناولنى الطبق الذى كان بين يديه، وقرأتُ: "لا غالب إلا الله". وتابعتُ سبابته فوق خيوط الذهب.

ثم ناولنى طبقاً أكبر يختال فيه الطاووس، وسأل:

– كيف ترى بريق هذه الخيوط؟

وكانت غلوريا تقلب البروش الصغير، وأردف ميغيل:

– انظر إلى خيوط الفضة. تعشيق هذه الخيوط فى النحاس هو سر صناعتنا، صناعتكم، وأبى ورث السر عن أبيه وعلمنى، وأنا أعلّم ابنى. ستراه بعد قليل.

وحدق بى ملياً، ثم قال بأناة:

– لا يمكن لأحد أن يغيّر فى هذا السر الذى هو أنا، أنت، أبى، ابنى.

وربما كنا قد جلسنا ـ غلوريا وأنا ـ على الكرسيين المحشورين خلف طاولة صغيرة، أو ربما كنّا قد وقفنا ثانية لنغادر، حين تدافعتْ عباراته وحركات يديه: يلعن الشركات التى تكاد تسيطر على السوق، يلعن الماكينات التى تصمم اللوحات وتطبعها وتبيعها بما لا يقدر ميغيل ولا أبوه ولا ابنه على منافسته.

ثم خصنى وحدى بخطابه الذى التهب:

– اليدوى أغلى، واختلاف هذا الطبق عن هذا البروش عن مقبض هذا السيف عن هذه الملعقة عن هذا القرط، لا يحققه إلا الإنسان. تنظيف القطعة التى تصنعها الماكينات يفقدها لمعانها. خذ هذا البروش لصديقتك. لا يبدو عليك أنك متزوج. سواء كنت عازباً أم متزوجاً، فلست بلا صديقة.

تهجدتُ باسمك: هبة، فردد:

– هيبا.

ورددت غلوريا:

– هبة.

وضحكا، وأوصانى أن أقول لكِ إنه صنع هذا البروش على هيئة مروحة إسبانية، لأنه منذ فتوته يحاول أن يقدم أشكالاً إسبانية، ولذلك اختلف مع أبيه، ومع شيوخ الصنعة فى غرناطة، فطفر إلى طليطلة.

وبغضب رفض أن يأخذ ثمن البروش، فاشتريت لك هذا الطبق الذى يعانق راقصة فلامنكو. ولابد أن ميغيل اكتفى بثمن رمزى. وها أنا أتلهفُ لأرى البروش على صدرك، والراقصة قبالة سريرك، وأعانق ميغيل مودعاً، وأتركه لعناق غلوريا، واعتذاره عن تأخر ابنه، وأسابقها فتسبقنى، ونضحك ونوالى السباق إلى أن توقفنا الساحة التى بدأ فيها بثكييف يكتب الشعر.

أمام اللوحة التى تحيّى بها المدينة شاعرها، وقفنا نلتقط أنفاسنا، ثم تجدد السباق حتى مقام الغريكو.

هل حدثتكِ عن مقام أبى الليث الكتانى - الصحابى الجليل - قبالة بيتى - عزلتى فى الضيعة؟

لا أحد يستطيع أن يجزم أنه مدفون فى تلك التلة المروسة بالسنديان والبلوط - أنا أجزم أنه ليس فيها - ولا أحد يستطيع أن يجزم إن كان الغريكو مدفوناً هنا أم لا، لذلك أسرعت بى غلوريا إلى متحف لوحة موت كونت دو أورغاس. طقّ يا سالم برهوم: متحف للوحة واحدة!

المسيح فوق، وبالطبع العذراء يا عذراء الشام، والكونت الميت تحت، بين البابا وكل هؤلاء البشر، وأنتِ - وليس سالم برهوم - تبدلين فى الألوان والتشكيل، ثم تملأين هذا الجدار المقوس، فأركع مع الغريكو لنتهجد لكِ الزمن كله.

كانت غلوريا تنتظر فى الخارج. وفى الطريق إلى الكاندرائية التى صلّتْ فيها للقديسة لوثيانا وللقديس بيترو، دعتنى إلى أن أعود إلى طليطلة فى أيار، لأشهد عيدها.

اندفعت أحمل العيد إليكِ: ستكون الشوارع - الأزقة مغطاة بما يظللنا. سينثر الطليطليون والطليطليات أوراق الزعتر التى يفوح عبقها حين تسيرين عليها. ستتزين لملاقاتكِ واجهاتُ البيوت بالأعلام والطنافس، سيلوح لكِ ميغيل بالنقوش الدمشقية التى تطرزها، فهذه فقط - تقول غلوريا - ما حمل خالها من إرث أبيه من

غرناطة إلى طليطلة، وسيورثه لابنه. أضفتُ:

- والصنعة إذن؟

أنا أيضاً صليتُ لقديستى فى الكريستودى لالوثا، وبيسرٍ حفظت اسم الكاتدرائية، ربما لأنها مسجد قديم، أو لأن القباب المغطاة بالنجوم تشع مثل عينيكِ عندما تكتمان وعداً، وتتركانك تكشرين بى: والله أحب تكشيرتك، وسأشاغل غلوريا وخلاء الكاتدرائية، لأحضن هذا العمود الرخامى الملفوف مثل قامتك.

هذه المرة لن أدعك تملصين كما ملصتِ أمام أبى العلاء المعرى - من خلف ظهر نائب المدير - أو أمام مغارة يبرود أو على تلّة إيبلا أو على شاطئ أوغاريت. سأدفعكِ الآن أمامى حتى نسبق غلوريا إلى هدأة هذا المطعم الصغير، ولذعة البيرة المثلجة. وستسرع غلوريا إلى حبوبها، وأنتِ تأمرينها بنسيان الطبيب النفسى وديفيد والبطالة. سأدعكما تلتهمان هذه الصحون، لأتعلق بواحدة من هذه الكلاليب المعلقة على جدار هذه الكنيسة: سان خوان دولوس ريس. سأكذّب من يقول إن العرب - يقصد: المسلمين - كانوا يعلقون المسيحيين هنا. سأكذب أى عنق سبق أو سيلحق، منادياً بوئامك وسماحتك، ثم سأسبقكِ وغلوريا إلى هذا المتجر الصغير المغوى، كى أبتاع لكِ هذا الكاب وهذين القرطين - كيف لم أتأكد حتى الآن من أن شحمتى أذنيكِ مثقوبتان؟

لكن النجمة السداسية التى تتصدر المتجر تتضرّج بدمٍ أو أشلاء فوق كنيسة ومسجد، وأراك تصرخين: كنيسة القيامة والمسجد

الأقصى، فأفرّ من المتجر، وأترك لغلوريا أن تختار سواه ـ وأتحاشى أن أذكر اسم ديفيد ـ ثم، وأنت توافيننى محملة بهداياكِ إلى محطة القطار، تعانقين غلوريا، وتعانقيننى، وتشرعين تتراقصين على صدر التوخو، فأشير بأصابعى المغلولة إلى الأيام التى لا زالت تفصلنا، ويعتكر الفضاء بالمواجهة والتهجّى والفصم، كأنه يصفو.

هبة: أحبك

مهزلة ـ الموت والاعتقال فى الحرب

"العطب عميق، قائماً ما يزال، لكننى أتلمس كوى صغيرة من خلالها أتحمّل ما بقى لى من إقامة فى هذه الدنيا"

محمد برّادة

.. عندئذٍ حضرت جيزيل كي تقابل الأستاذ سعد أيوب. والله وكبرت يا سعد حتى صارت الـ ب. ب. سى ترسل إليك مندوبتها، كأنْ لم يكفها كل المثقفين العتاة فى الشام!

حين كان هاتف الدكتور أنسى ـ مرافق جيزيل ومترجمها ـ ينقل الخبر لى، حسبتُ أنه يعنى لقاءً مع إلياس مرقص الذى يصارع السرطان: أخيراً تنبهوا إلى هذا المفكر الاستثنائى.

لكن جيزيل جاءت إلى سعد أيوب وحده، تسأل:

– هل ستقوم الحرب؟

كان ذلك غداة انتهاء المهلة التى أنذر مجلسُ الأمن العراقَ بالانسحاب خلالها من الكويت.

كان البحر خلف زجاج المقهى الفارغ، يخبط خبطاً فى ذلك الضحى، وكان جَعْدُ شعر جيزيل يزعجنى أكثر من خشونة صوتها. وبعد حيرة طويلة لم تنفع فيها نظرات الدكتور أنسى المشجعة، قلت:

– لستُ خبيراً ولا سياسياً. من أين لى أن أعرف؟ لستُ منجماً.

قالت:

– أنت كاتب.

وقال الدكتور أنسى:

– أنت مثقف معروف، ولا بد أنك ..

قلتُ مقاطعاً بانفعال:

– كل ما أعرفه أن الحرب يجب ألا تقوم.

وطاب لى أن يبدو أنهما فوجئا، فتابعتُ:

– ما كان لصدام حسين منذ البداية أن يفعل ما فعل.

– أنت مع من؟

سألتنى جيزيل بحذر، فقلت:

– اسألينى أنا ضد من.

ففعلتْ، فصرخت:

– أنا ضد الحرب. أنا ضد الجميع.

وأطرقتُ خجلان، وأصغيت لجيزيل مكرهاً:

– كل ميلليمتر تحت العين يا أستاذ سعد، من تركيا والبحر المتوسط حتى المحيط الهندى، ومن البحر الأحمر حتى الباكستان. ١٤ قمر اصطناعى منوعة ومدعومة بشبكة أقمار مخصصة للتنصت. ست غواصات ذرية فى بحر العرب، غواصتان ذريتان فى البحر الأحمر وثلاث حاملات طائرات. كل هذا وغيره كثير، ألا يؤكد أن الحرب محتومة؟

ولم تكد تسكت حتى قال الدكتور أنسى بأناة:

– فى الخليج ثلاث حاملات طائرات وحاملتان للصواريخ، ما عدا السفن الحربية، وما عدا..

فقاطعتُه معتدّاً:

– عند العراق ٧٤ سفينة بحرية وطائرات عدنان ١ وعدنان ٢ واستطلاع إلكترونى. عنده ستة آلاف دبابة. إسرائيل ليس عندها غير أربعة آلاف.

فقال ساخراً :

– أستاذ سعد : في سورية عندنا أيضاً أربعة آلاف دبابة ، ولكن . .

وسكتَ ، فهربتُ منه ومن جيزيل إلى الأمواج التى تتكسّر فى الجرف المقابل . وتابعتُ أعدد فى سرى ما عند العراق أيضاً ، وابتسمتُ معجباً بمعلوماتى ، واعترفتُ لإسبر فارس بفضله فيها ، وندمتُ لأنى لم أدعه إلى أن يشاركنا هذا اللقاء ، واستحسنتُ نصيحة إلياس مرقص أمس :

– لا تأخذه معك . نسيتَ أنه ضابط ، ولا يجوز أن يلتقى بصحفية أجنبية ؟

وفجأة جاءنى صوت جيزيل بالغ النعومة :

– أرجو أنك تفكر فى سؤالى عن قيام الحرب . من الواضح أنك تتابع ما يجرى بدقة .

طالت حيرتى هذه المرة فيما بدّل صوتها ، وانتهى اللقاء ، وأنا أنكر الثقة التى أفتقدها دوماً ، والتى جعلتنى أجزم أن الحرب لن تقوم . ولعلى لذلك أسرعتُ إلى إسبر الذى أسرع بى إلى زيارة إلياس . ولعلى لذلك استأت من يقين إلياس بقيام الحرب ، ومن خوفه من هزيمة العرب كلهم ، وليس العراق وحده .

* * *

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ، وكان بيت إلياس مليئاً بالعوّاد . ولما دقّتْ بيغ بين ، أغمض جفنيه ، وأنصتنا لآخر الأخبار حتى أشار بيده ، فأقفل الراديو أحدهم ، وباعد إلياس جفنيه

بصعوبة ، وخاطب إسبر :

– ما رأيك ؟

قال إسبر كأنه يتابع حديثاً انقطع للتو :

– العراق بنى السواتر الترابية أمام خطه الأول ، مثل السواتر التى بنتها إسرائيل .

والتفت عن إلياس إلى الآخرين متابعاً بحماسة :

– لا تنسوا حقول الألغام ، والحفر المليئة بالنفط . لا تنسوا اتفاقية السلام مع إيران . هذه وحدها يسّرتْ للعراق الاستفادة من ٢٤ فرقة .

تركتُ إسبر يماحك أحدهم ، ولبدتُ أنظر إلى إلياس ، ورأيته ينشب من كتاب إلى كتاب ، ومن مكان إلى مكان : فى مقهى السلطان يغلق طاولة الزهر ، ويهدر : من المدن ـ الدول الأولى فى ربوعنا ، إلى الثورة الفرنسية ، وفى مكتبة آفاق : يلعن الغباء الذى نقله من أستاذ فى دار المعلمين إلى ناطور لصبيان الإعدادى . وفجأة رأيته فى بيتى لأول ولآخر مرة ، وثالثنا سالم برهوم الذى كان قد خرج من السجن منذ أيام . ومن السابعة مساء حتى السابعة صباحاً ، ظل إلياس يهدر : الوعى العربى الراهن يوثّن الكلمات الكبيرة والمتعالية . هو وعى بعيد عن الجوانية الكونية . وعى يلغى فكرات التاريخية والتشكل . والقضية الآن قضية الفلسفة ، قضية الوضعية والجدلية . الآن أمامكم حكاية ثورة من جهة ، يعنى الماضى والحاضر ، ومسألة ثورة من جهة ثانية : يعنى الحاضر والمستقبل .

كانت الحرب العراقية الإيرانية قد انتهت، ولم يكن مرض إلياس ليلوح، ولا حرب أخرى. ومن اثنتى عشرة ساعة، لم نظفر ـ سالم وأنا ـ بأكثر من دقائق متناثرة لا تبلغ الساعة: واحد يلعن أصنام اللغة، وواحد يلعن أصنام الماركسية والقومية، وإلياس يفكك الأصنام جميعاً.

ونامت أمى متأخرة على غير عادتها. ونام قتيبة مبكراً على غير عادته. وهتف إلياس لزوجته أخيراً:

– أنا عند سعد أيوب. لا تقلقى.

واستلقى على الصوفا آمراً:

– يلله يا شباب. قوموا ناموا.

* * *

منذ حين لم يعد يفارق السرير، وبالكاد يغفو ـ قالت زوجته وهى تشيعنا إلى الباب ـ ومنذ أيام ما عاد الفوستان ينفع، والبارحة رفض المورفين، والطبيب مصرّ. وكنا ـ إسبر وأنا ـ شأن كثيرين من أصدقائه الذين يعودونه كل يوم، نعلم ذلك. وكنا ـ ما إن نغادره ـ حتى نخوض فى ذلك وفى سواه ـ فى الحرب بخاصة ـ لكننا مضينا هذه المرة صامتين، وافترقنا صامتين، ولا أظن أن شفتىّ افترقتا من بعد، حتى أيقظتنى أمى قبل أذان الفجر:

– علقت الحرب يا ابنى.

* * *

فى ضحاها الثانى أو الثالث كانت زيارتنا الأخيرة له. ولأنه لم

يكن يتابع التيلفزيون ليل نهار مثلنا، ألح على إسبر فى تفاصيل المعارك وفى الاحتمالات، وكان إسبر منقبضاً لأن طلب استقالته من الجيش قد رُفض للمرة الثانية.

لم يتأخر البيان الذى يعلن وقفة أكثر من أربعين مثقفاً ضد الحرب وضد الولايات المتحدة، منادياً بنصرة العراق، ولم يتأخر موت الياس.

وسرنا فى جنازته: عشرات وسيارة صغيرة، كنيسة ومقبرة وحيرة صامتة، رذاذ وهبّات متقطعة للنسائم البحرية الواخزة والدافئة. وفى العصر حضر من حلب مطاع أكرم: فاتته الجنازة.

فى بيت إسبر قضينا ليلتنا نتمحل فى الحرب، نتفق على البهجة بالصواريخ العراقية التى تضرب إسرائيل، ونختلف فيما عداها، وكلما احتدم الاختلاف، نحتكم إلى خبيرنا: المقدم والمهندس فى الإلكترونيات: إسبر فارس.

بعد أذان الفجر تركت مطاع فى بيت إسبر، وعدتُ إلى بيتى. وفى العاشرة أيقظنى قتيبة بغلظته المعهودة:

– أخذوا ضيفك.

انتفضتُ مكذباً، لكن زوجة إسبر أكدت النبأ وهى تبكى، فلبدتُ خائفاً أتلصص على الهاتف وعلى الباب، وأنتظر من يلحقنى بأكرم وإسبر، وبخاصة بعدما هتفتُ إلى سالم فى دمشق، فعدّد ثلاثة أو أربعة من الموقعين على بيان المثقفين، ممن اُستدعى إلى المخابرات، أو زاره منها أحدهم.

لم أغادر البيت. ومثل أمي تابعتُ الحرب طوال النهار من التيلفزيون شارداً أو قلقاً. ومثل أمي تقلبتُ طوال الليل أستجدى النوم. أما قتيبة فلم يظهر منذ المساء: ليست المرة الأولى.

عافت أمي التيليفزيون فى الصباح، وعفته. من المؤكد أن العراق ابتدأ يتضعضع. وفجأة ظهر قتيبة منتفخ الجفنين وشاحباً. ولم تكد أمي تنزل عليه بدعائها الأول، حتى ظهر مطاع ضاحكاً:

– الموقعون على البيان: إفراج، ممنوع التعرض لهم، الآن على الأقل.

– وإسبر؟

سألت غير مصدق، ولم أصدق أنه سيظل معتقلاً بانتظار الأوامر، وقال أكرم:

– الجماعة كانوا لطفاء معنا. كانوا يراقبون بيتك وبيت إسبر. طبعاً سألونا عن سعد أيوب. بسّ ليلة من ليالى العمر. سندويشة الفلافل عسل. سندويشة البيض المسلوق أحلى وأحلى. وعلى كل حال إسبر يأمل أن يساعد الاعتقال على قبول استقالته فى المرة القادمة.

وغداة ظهور إسبر ـ بعد ثلاثة أيام ـ استدعيتُ إلى ذلك الفرع الأمنى العتيد.

مدريد ٤

"لم يكن الشيخ عبد ربه التائه يخفى ولعه بالنساء. وفى ذلك قال: الحب مفتاح أسرار الوجود"

نجيب محفوظ

.. هكذا تمت المهزلة :

أولاً : السرطان

ثانياً : الحرب

ثالثاً : الموت

رابعاً : الاعتقال

خامساً :

وما دام هناك مجهول أو تالٍ ـ خامساً أو سادساً أو أكثر ـ فالمهزلة إذن لم تتم. بل لعلها من ذلك النوع المفتوح، لينضاف ـ كما لمأساة من النوع المفتوح ـ الحب والصداقة والعكر والارتباك والزواج والطلاق والأخوة والأبوة والتهجى والمواجهة والمراجعة والفصم والبرء والوصال و.. السبات الذى كالشلل هو، أو كالانسحاب أو الاحتجاج أو كالسؤال، وربما كالمقاومة : صحّ يا هبة؟

وقد يتصل بذلك عنادى مقابل إلحاح دييغو علىّ بالسفر إلى حيث لا يستطيع أحد أن يدعى زيارة إسبانيا إن لم يسافر، فالأندلس هى إسبانيا، كما كرر، وهذا هو التاريخ، كما كرر، فقلت أول مرة :

– هذه هى بالضبط المهزلة المفتوحة.

فغضب، فقلت :

– أو المأساة المفتوحة، لا فرق.

وفى آخر مرة قلت :

– تربيت على الأندلس كأى عربى، كأى مسلم، ولكن تكفينى زيارة طليطلة.

وكنا فى حانة أنطونيو مساء السبت.

كان دييغو يتوهج بألفته لكثيرين ممن هم فى مثل سنه، وللنادلين. وحين أيس من دفعى إلى أندلسه، أخذت نظراته تشرد، ثم أخذ يترنم بالإسبانية، وفجأة قطع ترنيمته، وأقبل علىّ مغالباً تأثره :

– هذه مرثية لوركا لإيجناثيو ساتشيث ميخياس. اسمع :

إذهبْ يا إيجناثيو لا تنزعجْ من الصيحات الساخنة

وزفر بحرقة قبل أن يهمهم :

فالبحر يموت أيضاً

وران الصمت حتى عاد يهمهم :

– أنا ابن جيّان، وجيّان مثل غرناطة، بعيدة عن البحر، لكن البحر فى كل منا. بالأحرى لكل منا بحره.

وران الصمت ثانية حتى تساءلت عما إذا كان إيجناثيو قد قُتِلَ فى الحرب الأهلية، فقال :

– إيجناثيو مصارع لا يتكرر، كما إن لوركا كان شاعراً لا يتكرر. كانا صديقين حميمين، ولسوء حظهما عاد إيجناثيو إلى المصارعة بعدما اعتزلها. نطحه الثور فى مانثاريس. مات فى الثالثة والأربعين، وموته كان سنة ولادتى. كان أكبر من لوركا بسنوات. لدىّ صورة له من عام ١٩٣٠ ستراها حين تزورنى فى البيت. علقتها فى صدر المكتبة منذ كنت فى مثل سنك. سترى إيجناثيو باللباس المزركش الحريرى والخيوط المذهبة. لباس المصارع فتّان يا

سعد .

وعاد يتدفق رويداً، وهو يدعونى إلى أن أدقق فى وجوه هؤلاء الكهول حولنا :

– هنا يلتقى المصارعون القدامى مساء كل سبت .

ثم أشار إلى الجدران قائلاً :

– هذه الصور عمرها ثمانون سنة . هكذا كانت المصارعة .

– رأيتُ منها القليل فى التيلفزيون، فى السينما . رأيت لوحة غويا . .

قلت، فقاطعنى بحماسة :

– عليك أن ترى بعينيك . من منكم القائل : وما راءٍ كمن سمعا ؟ مصارعة الثيران طقس خاص، شعر، بل الحياة مرمّزة . طالما فكرت أنها شكل ما للجنس بين المتصارعيْن .

– هل بلغت الفرويدية بك هذا الحد ؟

سألت ممازحاً، فتضاعف تدفقه :

– انسَ فرويد . فى شبابى كنتُ أبيتُ أمام الكشك، حتى أتمكن من حجز تذكرة رخيصة فى الصباح . أنت لا تعرف من هو المصارع . المصارع عادة صامت، ولا يرى الثور الذى سيصارع . صديق له هو من يرى هذا الغريم قبل المصارعة . لو رأيتنى فى شبابى . حتى عندما كنت فى مثل سنّك : كنت أتفرج كأنى مسافر إلى المجهول . أنت ترى المصارع كأنه يمضى إلى مغامرة حياته . بعدما كبرتُ قلّتْ مشاهداتى . صرت آتى إلى هنا من حين إلى حين .

ويبدو أنه ضبطنى متلبساً بك، فحدق بى، ثم همس :

– أنتَ لستَ معى .

حصتُ خجلاً، وقلت :

– كنت أفكر فى هذا الذى يمضى إلى مغامرة حياته . كأنها مغامرة حبّ . كأنها مغامرة كتابة .

قال بحنان :

– أنت تفكر بهبة . أنت تفكر بالكتابة .

تنهدتُ، وبعسرٍ همستُ :

– بسببهما لن أسافر إلى أندلسك .

– أظن أن بك لوثة . اشرح لى لو سمحت .

قال مبتسماً، وانتظرنى حتى استطعت أن أقول :

– سأقضى معهما ما تبقى من هذا السبت، والأحد بطوله . سنكون وحدنا فى مدريدك ـ مجريطنا . وصباح الاثنين سأكون تحت أمرك بكامل قواى العقلية .

قال بما أمكنه من الجد :

– الآن تأكدت أن بك لوثة . هل هى مجنونة أيضاً ؟

تركتُ له السؤال معلقاً، وعبر زجاج النافذة فرّتْ عيناى إليكِ، وكنتِ تتراقصين ملء الميدان، مثلك على صفحة التوخو .

فجأة أخذ تيرسودى مولينا ينزع اسمه عن الميدان، ومن فى الحانة يصفق، فتركتُ لهم دييغو، ولحقتُ بكِ، وكان مولينا الآن يخفق بجناحيه خلفك، ليهديك مسرحيته : دون خوان .

وأنتِ تتناولين منه المسرحية، وتقبلين جبينه، رحتُ أنقش اسمكِ على الميدان كله، مطرح اسمه، وديبغو يهتف من موقعه فى الحانة:

– مجانين: أنتَ وهبة ومولينا، كلكم مجانين.

وخفق بجناحيه نحونا. وعندما حطّ كنا متعانقيْن، وكان مولينا ينعطف إلى اليمين، فتبعناه، وتبعنا دييغو، وبين الغجر والمغاربة والهيبيّين والهيبيّات وسائر الممنوعات، ضيعناه، كما سيضيعنا مولينا فى شارع اماخادورس.

* * *

الآن - إن شئتِ - تستطيعين أن تنفردى بى، ولا أستطيع إلا أن أنفرد بكِ، فدييغو مضى إلى بيته، وأنا أغلقت عليكِ وعلىّ قفص السكن الجامعى.

ستنام أم ستموت؟

* * *

الآن يعجزنى السؤال الأندلسى:

الآن عليكِ أن تقررى: أندلس من هى؟ أندلس دييغو؟ أندلس هبة عمار؟ أندلسٌ ما؟

الآن لا يعنينى الفرق، إذ تداهمنى الشعوب والحروب، الديانات والعقائد، الحضارة والتاريخ، بل تداهميننى أنت، أداهمك أنا، فمن هو الإنسان؟

من هو الإنسان يا هبة؟

ما الاستيطان يا هبة؟

ما الفتح؟

من هو كريستوف كولومبوس؟

ما هى أمريكا؟

ما هى فرنسا فى الجزائر؟

ما هى إسرائيل فى فلسطين؟

ما القتل يا هبة؟

ما معسُ حشرة وقطع شجرة؟

ما الرصاصة وما السيف وما القنبلة النووية؟

ما النصر وما الهزيمة؟

من هو الحيوان يا هبة؟

من هو الإنسان؟

والله سحرتنى الأقواس والفصوص المتراكبة.

تعلمين أن الحنين علة مزمنة لى مثل النسيان. وكما ورثت هذا من أبى، ورثت ذاك من أمى.

والله سحرتنى كتابات الأفاريز وتيجان الأعمدة، يا ستى وسيقانها وهولها وملاستها وألوانها.

والله فتنتنى الكريستودى لالوثا مثل الزهراء التى لن أراها، ومثل الحمراء التى لن أراها، ولكن ليس فقط لتكون لنا هذه الخلوة من الآن حتى صباح الاثنين، بل لأن السؤال الأندلسى يعجزنى.

أعلم مثلك ومثل دييغو أن التسامح كان وسام العروبة والإسلام فى الأندلس، يا ستى: منذ استتب أمرها لأجدادك الميامين.

أعلم قبل أن تشرح لى غلوريا أن ألفونسو العاشر جعل طليطلة عاصمة الحضارة فى أوروبا، بماذا؟ بنشره علوم أجدادك الميامين.

منذ الجامعة قرأت الكثير، ومنذ تلقيتُ دعوة دييغو قرأت الكثير. والله رفعت رأسى اعتزازاً عندما قالت غلوريا إن العربية ظلتْ تُستخدم فى طليطلة ثلاثة قرون بعدما طردونا منها - استردوها. وقبل غلوريا لم أكن أعلم أن ترجمة أى كتاب فى طليطلة من العربية إلى أى من اللغات الأوربية، كان يراجعها ثلاثة من علماء الديانات الثلاث. ولكن لماذا كان لا بد من طردنا بعد مئات السنين؟

لماذا ظللنا غرباء مئات السنين؟

لماذا لم يكن التسامح ولا الحضارة كافيين لنبقى هنا حتى هذا الفجر؟

هل الإسبان وحدهم السبب؟

هل كانت تناحرات سادتنا وحدها هى السبب؟

ما قولكِ إذن بمن يقول - تقول: كان محتوماً أن يستردوا ديارهم، وأن تخرجوا؟

الآن بوسعى أن أحدثكِ عن عذابى فى روايتى الأخيرة بسبب هذا الحيوان الكامن فى الإنسان. هذا الوحش اللابد أو المتوفز فى الإنسان - يا ستى حتى فى الأكل والجنس، وليس فقط فى السيطرة والقتل.

أنت تعلمين أكثر منى كيف تزين الحضارة أيضاً لهذا الحيوان - الوحش أن ينفلت من قمقمه، متدرعاً بالعلم والتكنولوجيا، يا ستى بالفن والأدب والدين. لذلك أخاف من الحضارة يا هبة كما أتعشقها. هل قلت لكِ ذلك من قبل؟

* * *

لم أعاند دييغو فى الذهاب إلى الأندلس - فقط - كى تكون لنا هذه الخلوة طوال عطلة نهاية الأسبوع.

ربما فكرتُ بالكتابة لكِ وعنكِ، مثلما فكرت بأن الأيام لا تزال طويلة أمامى، كى أقرر أن أذهب أو ألاّ أذهب إلى الأندلس. ربما فكرت بأننا نتبارى فى تنفيذ الاتفاق: لا رسالة ولا هاتف ولا إيميل ولا.. طوال هذا الفراق. سنرى من سيتراجع أولاً، فلا تكشرى: والله أحب تكشيرتك، وبخاصة فى هذا الصباح المشمس الذى تركته مدريد لنا وحدنا، فلا تتدللى عليها ولا علىّ.

والله يليق لكِ الدلال، ولكن علينا أن نسابق الزحام إلى ميدان لافلييس، كى أغسل قدميكِ، ما دمتِ تسيرين حافية، وما دام الملك - لا تسألينى أى ملك - منع الغرباء من الدخول إلا عبر هذه البوابة، وأقام هذه النافورة - لا تقولى: ضيّعها الإسمنت - ونصب هذا الحارس الذى يشير بالدخول بعدما غسلتُ قدميكِ وساقيكِ، وكنتُ أود أن أغسل فخذيكِ وبطنكِ، لكننى خفتُ من الحارس ومن ملكه و.. من ماذا أيضاً؟

لا تنسى أننا هنا غرباء، لذلك نتخبط فى هذا الميدان، كما سنتخبط بعد قليل فى شارع ميزون دى باريديس - اقرأى اسمه على

هذه اللوحة الجديدة ـ وفى لالاتينا ، وفى هذه الممرات ، وفى تلك المساكن التى تطل عليها ، فتصير شارعاً فوق شارعٍ ـ هل وعدتكِ أننا سنحضر إلى هنا فى الصيف ؟

بعد أن نعيّد فى طليطلة مع غلوريا ، سنأتى إلى أى ساحة من هذه الساحات . سيكون دييغو فى انتظارنا . سيختار لنا أجمل الأوبريتات : ثارثويللا ، وسترقصين كما رقصتِ أمس فى تيرسودى مولينا ، أو ذات يوم على صفحة التوخو . أما الآن ، فدعينا نلحق بسوق الأحد قبل أن ينفضّ . دعينا نتخبط حتى نرتمى فى بوابة الشمس ، ونقعى أمام هذا الدب . التقطى البرتقالة من الشجرة قبل أن يتلقفها . سأنحنى وحدى لرمز مدريد ، وهذا يكفى بشهادة دييغو . انظرى إلى حيث تشير أصابعه : من الكيلومتر صفر إلى هذه الساعة إلى مبنى البلدية إلى هذه الساحة التى سيضيع فيها الجمل ـ كما يضيع فى مكتب دييغو ـ حين تعلن الساعة رأسَ السنة . سنكون هنا أيضاً كى تكتمل لنا رحلتا الصيف والشتاء : لإيلاف قريش إيلافهم . سنتخبط فى الحشد كله ، كما نتخبط الآن فى الفراغ ، حتى تبدأ الساعة تدق . سأحمل لكِ من بيتى ـ عزلتى فى الضيعة عنقود العنب لنسابق الجميع : تمضغين حبة وتبلعينها مع كل دقة ، ووحدكِ تفوزين ، كى تحققى أمانيكِ فى السنة الجديدة : كل عام وأنتِ بخير .

مثلكِ تعبتُ ، ولكن هى خطوات ونبلغ هذا الفضاء الذى لن تزاحمك فيه السيارات ، وستظلّلك فيه مثل هذه القبعة العتيقة التى

تكاد تسقط عن رأس صاحبتها . هل هى غريبة مثلنا ، ومتعبة مثلنا ، وتتخبط مثلنا ؟

تعالا معاً إذن إلى أى من الكراسى التى تملأ الرصيف . ستجربين لذعة البيرة المثلجة . سأدعكِ مع المرأة ، ريثما أختار لكِ مثل قبعتها . سندع المرأة وننزل إلى هذا الكهف . سنعمل بنصيحة دييغو : نشرب السنغريا ونأكل السمك المقلى ، كأننا على شاطئ اللاذقية : بين يدى أوغاريت أو فى مسبح آفاميا ، وستلهين بما يلبس النادل من القرن الماضى . ستنضمين إلى فرقة كلية الصحافة ، وتعودين طالبة لتغنى مع هذا الطالب ، وأنا أعد الأشرطة التى تتدلى على صدره وكتفه : أحد عشر شريطاً ، ولابن الحرام إذن إحدى عشرة صديقة ، كما تشرحين ، وأنا أخشى أن تكونى بينهن .

هبة : أحبك ؟

من مغارة إلى مغارة ٣

"لست أدرى كيف أصل إليك. إننى أناديكِ، ولكنك لا تسمعيننى، ولهذا أكتب إليكِ"

إيزابيل اللندى

.. لأكونَ قلقاً من سعاله وشحوبه، وليست أمي وحدها، ولم يخطر على بال أحدنا أنه كان يمثّل طوال تلك الشهور.

لم أكن أعرف ماذا تعنى العلب المليئة والعلب الفارغة من السيمو والبالتان والبروكسيمول بجانب الحاوية أو فى كيس الزبالة وزوايا الكورنيش.

وعلى الرغم من أننى أعتزل فى الضيعة أربعة أيام أو خمسة، لأعود إلى اللاذقية بقية الأسبوع، لم يخطر لى على بال أن قتيبة مدمن مثل الآلاف فى حلب، كما يقول مطاع أكرم، أو الآلاف فى دمشق، كما يقول إسبر فارس الذى لم يعد يظهر فى اللاذقية إلا ليسبح، أى لم يعد يظهر فيها إلاّ فى آب، منذ قُبِلَتْ استقالته من الجيش، ولم يعد المهندس المقدم، بل ـ فقط ـ المهندس الذى يلاقى هبّة المعلوماتية، وكيلاً لبيع أجهزة الكومبيوتر والطابعات، ومصلحاً لأعطالها، ومدرباً عليها، ومبرمجاً أيضاً!

لذلك انتظرتُ مطاع حتى يتفاصح وينظّر لأزمة الشباب. وانتظرتُ حكايتكِ عن ابن خالتك وأقرانه فى أى زقاق من أزقة القابون، ممن لم تنبت لواحدهم ذقن، إلا أنهم أدمنوا على الفاليوم، فماذا لو طأطأتُ وأمى أمام أبوميشو، وهو يحلف بالصليب أنه لولا المرحوم ـ أى صديقه: والدى ـ لاشتكى على قتيبة؟

أبوميشو الذى يسهر مع ابنته الصيدلانية أثناء مناوبتها الليلية، رفض أن يبيع قتيبة وأصحابه الثلاثة علبة واحدة من السيمو أو البالتان أو البروكسيمول، إلا بوصفة طبية، ليس خوفاً على شبابهم

ـ كما قال ساخراً ـ بل خوفاً من المساءلة القانونية لابنته. وقتيبة هذه المرة لا يمثّل: نعم هددناه، ولولا صحبته مع المرحوم لضربناه وضربنا ابنته، وأخذنا ما نريد.

أما المناوب فى صيدلية الكورنيش فقد رضخ للتهديد، لكنه اشتكى، وقتيبة أنكر، وأصحابه أنكروا، فصاحت أمى فى المخفر:

– ابنى كذاب، واللى معه أكذب منه. احبسوهم وارفعوهم فلقة.

وحبسوهم من صباح الأربعاء حتى ظهيرة السبت ـ وربما رفعوهم فلقة ـ عندما تمكنتُ من الإفراج عنه، وتركته لأمى تترحم على الأيام التى كان قتيبة فيها مهووساً بعضلاته، والأيام التى كان مهووساً فيها بالرالى ـ أى رالى ـ ويحلم بسيارة سوبارو امبريزا.

نعم يا هبة، كنت بحاجة إليكِ، فقتيبة أيضاً مغارة، وليس ابن باز الثانى ولا شبله الصغير محمود وحدهما: تعالى الآن.

تعالى لأحدثك عن عبد النور المربع ومطاع أكرم وعنى وعن بيروت وعن ليل صائف مثل هذا الليل: لم أكن أدخن، وهذه سيجارة ملفوفة:

– جرّبْ يا سعد، جرّبْ يا مطاع.

قال عبد النور، وصخب أصدقاؤه الذين كانوا قد سبقونا إلى مصيف أحدهم فى بحمدون. وجرّبَ مطاع، وجرّبتُ، وقهقه عبدالنور وأصدقاؤه ساخرين من الصبيّين اللذين سعلا ودمعتْ عيونهما، فعاندا وسحبا نفساً أعمق بعد نفس، فتضبّب وجه عبدالنور ووجوه أصدقائه والصنوبر والبحر الذى كان يغمض فى

الأفق. وبعد قليل أو كثير نمتُ ونام مطاع، ونسيت ونسى، وظل عبد النور يعّيرنا زمناً :

– ما خرجكم حشيش ولا زفت.

لكن قتيبة ليس هاوياً مثل عبد النور، ولا صاحب التجربة اليتيمة مثل مطاع ومثلى، لذلك كنت بحاجة إليكِ : تعالى يا هبة.

* * *

تعالى الآن، وسأهديكِ فى عيد ميلادك رحلة من الشام إلى الحسكة.

لن نلتقى بأحد من ذوى راغدة. ومن الحسكة سنطير إلى عين ديوار، وسنرمق الجودى معاً، ونسير على حافة دجلة، كما سرنا على حافة الخابور أو على حافة البليخ أو على حافة العاصى أو على حافة الفرات.

تعالَ يا دلع : ليس فقط لأنها تفغر الصخر والتراب، بل لأنها أيضاً تفغر الجسد، فلم يبق إلا الروح : مغارة يا هبة فى الروح أو فى البحر، وربما فى قلب السنديانة التى سترين كيف تظلل مقام أبى الليث الكتانى - قُدِّسَ سرُّه - وسنصبحها و نمسّيها من شرفة عزلتى - بيتى فى الضيعة : تعالَ يا دلع.

تعالى الآن لنسهر على حافة البحر وفى قلب هذه المغارة. وسيأتى يوم تكون لى فيه كولت، أى : غزالة ترمح بنا من أمسية للقصة وأمسية للنقد إلى الغمزة الكردية، والشهقة اليزيدية، والدمعة الأرمنية، والغنجة السيريانية، والبحة العراقية، وأنت تراقصين الخنجر البدوى

كما لم ترقص امرأة فى القامشلى أو الحسكة أو دير الزور أو مارى أو مسكنة، حيث ستأكلين الكباب حتماً فى الإياب، كما ستأكلينه فى الذهاب، وسنعرج على حلب، وننسى مطاع أكرم والشبل الصغير محمود والرسالة المفقودة والفخ - الورقة الصغيرة المدعوكة - الذى نصبتِ لى بيديكِ فوقعت فيه، وسيعجزنى أن أخلصك منه، لأنك صممتِ عن ندائى شهراً بطوله : تعالَ يا دلع.

وأنتِ إذن كنتِ لا تزالين حيرى فى أمرى، وأنا أنتظر من الضيعة إلى مسبح آفاميا، منذ فرغتُ من شرّ قتيبة حتى باغتنى مطاع أكرم :

– ما فيه أحلى من عطلة الأسبوع على البحر !

وها هو سالم أيضاً وراغدة : إذن، وأخيراً، أنتِ هى الأميرة التى يحيطان بكِ، ومطاع يتقدمهما، وأنا أَعدُ البحرَ وأوغاريت بكِ، وأراكِ فى اليقظة كما فى المنام، تجوسين خلل الرمل والحصى والحجر والشوك، لكأنك برفقة بعثة التنقيب الأمريكية أمام مغارتنا اليبرودية، سوى أن صديقكِ العالم اختفى، وأنتِ الآن تشيرين، فتقوم هنا أيضاً معصرة للعنب وأخرى للزيتون.

وتشيرين، فيتبارى الحدادون والسباكون.

وتشيرين، فتنعقد على خيوط الشباك طعوم السراطين.

وتشيرين : ليس من رخوية فى هذا البحر الساجى إلا وسيغويها طعم، وريثما تمتلئ الشباك، ستنفتح غدد السراطين وترمى بجزيئاتها الحديدية.

ثم تشيرين ليؤوب الصيادون، وليعصر الفعلةُ الرخويات،

ويملّحوا العصير ويخللوه ثلاثة أيام بلياليها .

ثم تشيرين، فتنتصب الآنية على نار هادئة عشرة أيام بلياليها .

والآن سأصبغ بالأرجوان فستاناً من الحرير الصينى، وشالاً من التيل المصرى، وغطاءً من الصوف .

الآن ـ وفى اليقظة كما فى المنام ـ لكِ أن ترمحى من هامة أوغاريت إلى قاع قادس لتسبقينى بثلاثة آلاف سنة إلى إسبانيا .

وتشيرين، فينصاع الأطلسى فى تلك البوابة التى سيعبرها طارق بن زياد، ليلحق بك .

وتشيرين، فتفرغ سفائنكِ حمولتها، وتمتلئ بالقصدير أو بالفضة، لأنك ستغادرين إيبلا إلى زقاق طالع الفضة قبل أن نلتقى على شرفة بيتى ـ عزلتى فى الضيعة .

وتشيرين، فيبدعون لك اثنين وعشرين حرفاً، ويملأون اللفائف، وينوشمون باسمك الأرجوانى، ويوالون السفر من خنجرك البدوى إلى اللغز البريطانى أو الكهرمان الألمانى، حتى تفغر المغارة : طفل أضحية وطفلة أضحية، وواحد فواحدة سيطليه أو تطليها واحدة فواحد ـ بالجبس ـ ويقنّع أو تقنّع وجهه أو وجهها، وتلفه أو تلفّها بالديماس، وتضعه أو يضعها فى الناووس .

ثم تشيرين، فينزل الناووس إلى قبر وشمعة وحرز .

هل هى بداية أم نهاية ؟

هبة : أحبك .

الاسكوريال

"لم أؤلف كتاباً لا يكون أثناء تأليفه سبباً لوجودى، أيّاً كان الكتاب، وأينما كان، فى أى الفصول" .

مرجريت دوراس

.. خلف دييغو جريتُ فى أرجاء معهد التعاون مع العالم العربى، وكنتُ أراها تعصر الكلمات عصراً :

– لغوكَ قبل سفركَ بمطاعِ أكرم ذكّرنى بلغوكَ فى أول عهدنا بمظهر العبدون، لكننى فضّلتُ الصمت، وأنا متأكدة من أنك تخفى ما تخفى، منذ ابتدأتَ تصدعنى بالمواجهة والتهجى وباقتراحك العجيب : لا هاتف ولا رسالة طوال غيابى فى إسبانيا. طيب يا سعد : سنلتقى، وعندئذٍ يا حبيبى لكل حادث حديث.

كانت مكشرة، ولم أستطع أن أقسم أنى أحب تكشيرتها، فهربتُ من وعدها ووعيدها إلى زوجة دييغو، أتأمل الشيخوخة الرضية التى عاجلتْها ـ ما اسمها؟ ـ وأجلّتْ دييغو كى يتباهى بأنه لم يزر زوجته فى عملها من قبل إلا مرتين : والتالتة على إبدى فالتة إن شاء الله.

تناولنا القهوة على عجل، ومع ذلك تأخرتُ على موعد الدكتور على القيرونى أمام المعهد. وقد يكون ذلك ما جعله صامتاً حتى اختفى المعهد وسيارة دييغو، ثم راح يتقاذفنى :

– المعهد طبل فارغ، هالة ع الفاضى، قلْ : مثل أية مؤسسة بيروقراطية عربية. هل زرت معهد العالم العربى فى باريس؟

سألنى وهو يطلق منبه السيارة عالياً، ويبربر بالإسبانية ـ هل كان يشتم؟ ـ ثم تابع كأنْ لم يسأل :

– من يلوذ بدييغو، تتيسّر له فى المعهد منحة، وربما أكثر. بفضل ذلك، وبالمودة بين دييغو وألثوثينا، يعدّ صديقها ماريانوغونساليس

أبحاثه فى التصوف الأندلسى. مديحة تعرف كل ذلك جيداً.

وددتُ أن أشكك فى حملته على دييغو، على الأقل لأن مديحة لم تفد من المعهد شيئاً، على الرغم من صداقتها مع دييغو، لكن على أطلق منبه السيارة ثانية، ثم ناولنى الخريطة قائلاً :

– هذه هى الطريق إلى الاسكوريال. تابعْ معى على الخريطة. كيف أخطأنا الخروج من مدريد؟ هل تعلم أن فى إسبانيا عشرين مدينة تحمل هذا الاسم؟ مديحة ملأت الترمس بالشاى. املأ لى الفنجان لو سمحت. اخترْ أى كاسيت. هل تحب أن تسمع فيروز فى إسبانيا؟

انتزعتُ نظراتى التائهة من دقائق الخريطة وألوانها، وفكرتُ فى أن على ومديحة لا يزالان فى بداية الطريق، كما كنتُ وهبة عندما زارت بيتى ـ عزلتى أول مرة. ونظرتُ إلى علىّ أتساءل عما إذا كان ومديحة يتكتّمان على علاقتهما، كما لو كانا فى حمص أو فى وهران التى طفر منها بعدما استعرت النيران فى الجزائر، وخمنتُ أنهما يعوضان فى مدريد العشق الذى فاتهما فى وهران. وبغتةً انفجرت ضحكته، ثم قال :

– لا أظن أن هذا هو الأوتوستراد الذى سيقودنا إلى الاسكوريال. سأسأل فى محطة البنزين. ما رأيك أن نسأل هذا الشاب؟ احزر ماذا يصلح فى قلب عمود الكهرباء؟

تلفتُّ أبحث عن العمود وعن الشاب، لكن عليا عاجلنى :

– انظرْ إلى اليمين. هل ترى ذلك الصليب الهائل؟ ماشيين صح.

اقتربنا من الهدف. فرانكو فرض على الشيوعيين أن يبنوا هذا الصليب. يستحقون. بالمناسبة لم أدخل فى حزب ولن أدخل. انظرْ. سأبطئ السرعة. كم متراً تقدر ارتفاع النصب؟ فى العودة سنعرج على المقبرة. هذا هو وادى الشهداء، وتلك هى مقبرة الشهداء. هنا تكوّم رفات من قتلتهم الحرب الأهلية. هنا دفنوا أيضاً فرانكو.

يا ترى يادكتور عليّ، من هو فرانكو العربى اليوم؟.

تساءلتُ فى سرى، فيما صمت هو حتى أطلّ الدير والبلدة الصغيرة التى يسوّرها الجبل الأخضر، وكان الضباب يتلاشى، ولفحة البرد تضرّج خدَّ هبة، وترجف الشامة، وهتاف عليّ يجفلنى مثل لجمة السيارة قرب الكاتدرائية:

– هنا مكتبة الأسكوريال يا أستاذ سعد. شرّفْ.

دخلنا من باب الخروج - لا تضحكى، فعلى يبدو أحياناً أكثر منى تخلفاً وجهلاً - وإذا بنا وجهاً لوجه أمام خمسة تماثيل، واحد منها يحمل اسم سالمون - هل هو سليمان؟ - والآخر يحمل اسم ديفيد - أين أنت يا غلوريا؟ - ولى إذن أن أخمن أنهما تمثالان يهوديان، ولكن، لو صح ذلك، فما الذى جاء بهما إلى تاج الكنيسة؟

من مكان قريب صدحت الموسيقى المصاحبة لكورال صغير. تلفتُّ أتقرى تراتيل فيروز، وعليّ يهمس متأسياً على النقوش العربية التى تملأ الكنس اليهودية، مثل الكنائس المسيحية، كيفما طوّفتِ فى إسبانيا، ثم يسرع ليضع مائة بيزيتا فى الصندوق الصغير، ويشعل شمعة.

رويداً تبدد حَلَكُ الفضاء المزدحم بلوحات من القرن السادس عشر - سأحدث سالم عن لوحة القديس بطرس لإيلمود - وبالتماثيل المذهبة التى تجسد يسوع وأمه وحوارييه. وهبطتْ على رأسى الثريات التى كانت جاثمة فى زخارف ورسوم السقوف، فلكزنى عليّ، فتقدمتُ إلى الصندوق الصغير، ووضعت مائة بيزيتا، وأشعلت شمعة لكِ، وأضاءت روحى بكِ، لكن عليّ لكزنى ثانية. لماذا هو اليوم عجول ومضطرب؟

خرجنا من حيث دخلنا، ثم عدنا إلى المدخل الشرعى، وشربنا الشاى فى الكافيتريا، وابتعتُ علبة المارلبورو الإسبانى - لم أستسغه - ومشينا: القاعة الطولانية فى الطابق الثانى، الجداريتان الهائجتان بالفرسان والقتل على مدى عشرين متراً، قاعات الآباء المذهبة، إليزابيت الثانية، قاعات قبور الأبناء: سأتمدد فوق هذا القبر، وسأغدو مثل تمثال أى ميت يخيّم فوق أى قبر، وعلى قده، وبعدئذٍ سأعرف ماذا تنتظر فى القاعة الخاصة صناديق رفات الملوك الثلاثة، الفارغة؟

نحو المكتبة توجهنا، وخطواتنا تقصر وتزداد تهيباً. وفجأة جمحتْ بى الرائحة الجهمة، وزاغ بصرى وبصيرتى: مخطوطة مفتوحة على صفحة تتحدث عن الكراكى، وأنا أحاول أن أقرأ، فيردنى الزجاج الذى يصون المخطوطة إلى جارتها المفتوحة على صفحة تتحدث عن الأبراج: برج هبة: الجوزاء، وبرج سعد: الحوت، وقال عليّ: برج مديحة: الميزان، وبرجى أيضاً الميزان، وشرع

أبوجعفر بن الطفيل ينشد قصيدته الطبية فاندغمتُ فى جدران المخطوطات والأقفاص الزجاجية بلهفة وسذاجة ذلك الطالب الذى كان فى جامعة دمشق يتطلسم : القوديدس : عالم الهندسة والعدد والنجوم واللغة الذى قيل بعد وفاته ليلة عاشوراء : مات العلم، وابن البغونش الذى تعلم فى قرطبة الهندسة والطب، ثم عاد إلى طليطلة لينصرف إلى كتب جاليونس، وهذا أبو القاسم ابن السمح الذى ألّف : المدخل إلى الهندسة فى تفسير كتاب إقليدس، وألّف : طبيعة العدد، وهذا ابن اللونقة الذى ألّف : عمدة الطبيب فى معرفة النبات، وخرج من طليطلة بعدما أخذتموها ـ استرجعتموها يا غلوريا : صحتُ، فصاحت : كل هؤلاء من طليطلة وحدها، فهل تستزيد ؟

بين "لا" و"لا" أمطرونى ـ من كل حدب وصوب ـ بما كتبوا : إمام الرياضيين القرطبى وعالم الفلك والطبيب المجريطى : أبو القاسم مسلمة يقبض باليمين على المجسطى وبطليموس، وبالشمال على تمام علم العدد، ويلهث خلف معشوقه فتى الوزير : عجيب، وخلف المجريطى يتسابق تلميذاه النجيبان : ابن خلدون، والكرمانى الذى أحضر للتو رسائل إخوان الصفا من مشرق هبة عمار، وهذا الشريف الإدريسى قابضاً على كرته ـ خريطته التى لفّها ببحر الظلام، وجعل أرضها المجهولة بعد أوروبا وقبل الحبشة. وأخذوا يتدافعون على صدرى : لمحت ابن الخياط وابن دميح وابن الخطيب وابن جبير والمقرى وابن باجة التجيبى والمازنى السرقسطى وابن

خلصون وجابر بن أفلح والبطروجى وابن البيطار وأبو البقاء الرندى وابن سبعين وابن عبد ربه وابن الصفار وابن شهيد وابن دراج وابن زرازر وابن زهر وابن عصفور وابن خروف وابن سهل وحفصة وسعدونة ونزهون بنت القلاعى و . . وأطبقت رائحة شواء كريه : لماذا ؟

لماذا يا بشر ؟

صرخت بالكاردينال خمينيث الذى أمر بإحراق تلال المخطوطات، فاحترق كل من عددتُ وسواهم أضعافاً مضاعفة، ولم ينج إلا ما جمع فيليب الثانى فى هذا الدير.

لكن النيران اندلعت من جديد، فأتتْ على ثلاثة أرباع ما كان مكنوزاً لكِ يا هبة، فى الاسكوريال، ليبقى السؤال الأندلسى فاغراً فى روحى وفى جسدى. وعليّ إذن أن أذهب إلى الأندلس من شماله إلى جنوبه، وأنتِ تنفخين فى رمادى مع كثيرين لم أعرف منهم سواكِ.

هبة : دعيهم ينفخوا الرماد، وتعالى لملمينى.

هبة : أحبك.

الكسر والجبر

"انسَ الخيانات كلها
وامسكْ جمرة
هى بعض موت
بعض ع
ش
ق" .

أحمد الشهاوى

.. على الرغم من أن مظهر العبدون هو صديق سعد أيوب منذ عهد الجامعة والبداية فى الكتابة. وسعد أيوب لم يكن ليتباهى أمام صديقه أو سواه حين يبدأ علاقة جديدة مع إحداهن.

كان ـ أحياناً ـ يتحدث وحسب. قد يوجز، وقد يسهب، وقد يهرف أمام مظهر بخاصة. لكنه هذه المرة كان يجهد ليخفى سره مع هبة عمار، فالرجلان ما عادا يلتقيان إلا مصادفة، منذ انهزم العراق.

* * *

كانت اللاذقية شاحبة. البحر نفسه كان شاحباً مثل وجهى سعد أيوب وإسبر فارس، عندما جمعهما نادى الضباط مع مظهر.

وكان مظهر منتشياً بالموعد الذى انقضى له مع إحداهن، وقبل أن يملأ كرسيه فهق:

– من الشام إلى اللاذقية كرمى لساعة يا شباب. إنما ساعة ولا بالأحلام.

حدق إسبر فى سعد، ثم قال متجاهلاً نشوة مظهر:

– صدام حسين يبدع فى الأخطاء. خمسة شهور وهو ينتظر أن يهاجموه. كان يمكن أن يقلب عاليها سافلها.

قال سعد وهو يتحاشى النظر إلى مظهر:

– ٣١ دولة يا إسبر عليك وحدك. مستحيل أن تنتصر. الولايات المتحدة وحدها تكفى.

وتسلل صوت مظهر كأنما يلملم فلشته:

– بدأنا نقرأ أن الحرب كانت حقل تجارب للأسلحة الذكية.

قرأت أيضاً أن هذه الحرب علمتْ حروبَ المستقبل المعركةَ العميقة. ماذا يعنى ذلك يا إسبر؟

واندفعَ إسبر كمعلم يشرح مضطراً لتلميذ غبى:

– الأسلحة الذكية أنظمة صواريخ وقذائف موجهة. صاروخ مامزيك وحده معجزة: جو أرض ومضاد للدبابات. رؤوس تيلفزيونية وحرارية وجهاز تحكم ذاتى، منه صنف موجه بالليزر. أما المعركة العميقة فمعناها: اطلقْ يا مظهر وانسَ. اطلقْ واهربْ. اضربْ فى العمق.

قال سعد مقاطعاً وهو يلجم ابتسامة:

– مثل أسلوب مظهر العبدون فى الحياة.

التفت مظهر إلى سعد محتجاً، بينما تابع إسبر كأنه يزجر تلميذه:

– المعركة العميقة معناها: حرب العصابات بالدبابات. معناها: الطائرات أولاً.

أسرع سعد ساخراً:

– كانت إسرائيل إذن رائدة فى حرب الـ ٦٧. الطائرات أولاً وأخيراً.

حدق مظهر فى المدى البحرى وهمهم:

– صدام حسين دمّر العراق.

قال إسبر بأسى:

– ليس وحده. نحن جميعاً دمرنا العراق، ودمرنا أنفسنا. الاتحاد

السوفياتى رحمه الله كان شريكاً فى الدمار. العالم كله كان شريكاً.

وظلل الثلاثة صمت ثقيل، حتى قطعه سعد ساخراً:

– حرب عالمية ثالثة ودعتْنا بأسوأ مما ودعتنا به الحرب الأولى والثانية.

وقال مظهر وهو يلملم نظراته عن المدى البحرى:

– مهزلة.

سأل إسبر متوجساً:

– أين هى؟

– مهزلة الـ ١٤٠٠٠ أسير عراقى فى أول يوم من الحرب البرية. مهزلة التمويه العراقى، معنويات الجندى العراقى، قبل الهجوم خمسة أيام بلا طعام، وثلاثة أيام بلا ماء. ومن اليوم لبكرة بتسمع العجايب.

كان مظهر أشبه بالشامت. ولعل ذلك ما جعل سعد ينسحب. ولم يكد يدخل البيت حتى جاء هاتف إسبر:

– الله يلعنك ليلعنْ صاحبك.

– شو صار؟

– صار إنى طردته. ما قدرت أحتمل. كلامه سم. تعال نكمل السهرة.

غير أن سعداً لم يذهب. وبعد قليل حضر مظهر. ولوّح سعد بما كان يقرأ له ـ للمرة الثانية ـ فى العدد الماضى من جريدة الأسبوع:

– شو هدا يا مظهر؟

قال مظهر بثقة:

– هذا رأيى بالكتّاب الذين أصدروا فى بداية الحرب بيانهم العتيد. أعلم أنك منهم. وأعلم أن بينهم من ضلّلك وضلّل غيرك.

– لا أحد ضللنى، ولا أظن أحداً ضلل غيرى.

– المهم أن البيان يجعل القيادة العراقية تمعن فى غيّها. البيان يؤيد صدام حسين بالتلميح، لأنه لا يجرؤ على التصريح.

– لكن كتب أكثر الموقعين على البيان ممنوعة فى العراق. وكثيرون منهم كتبوا ضد صدام حسين، وضد أى ديكتاتور.

قال سعد مغالباً نقمته، بحضور أمه وقتيبة، ودوّمت فى سمعه أصوات صديقات وأصدقاء: مظهر العبدون ممسحة. صداقة مظهر العبدون تسىء إليك يا سعد، فهمس وهو يرمى الجريدة بعيداً:

– أنت تعرف أنه قد حُقّقَ معى ومع إسبر فارس ومطاع أكرم وآخرين بسبب البيان. هل كلفتك جهة ما بكتابة هذه المقالة المغرضة والرديئة؟

نظر مظهر إلى أم سعد شاكياً، ثم وقف منفجراً:

– زدتها يا سعد. أنا لا أسمح لك.

وخرج صافقاً الباب، ونظر سعد إلى أمه شاكياً:

– مظهر خرب يا أمى. خلص.

لكن أم سعد قالت وهى تحدق فى الباب المصفوق:

– مظهر هو هو يا سعد. أنت يا ابنى كنت مغمّض العينين.

ونهض قتيبة قائلاً :

– مظهر ما فيه متله . أصلاً مالكْ صاحب غيره .

وخرج صافقاً الباب . وفكر سعد أنه مثلما يضيع منه شقيقه ، يضيع صديقه . وعندما التقى هبة ، كان قد ألف أن يكتفي من مصادفات مظهر بتحية عابرة .

* * *

بعد سنوات سيستدرج مظهر العبدون سعداً إلى زجاجة من البيرة في مطعم الشرفة ، كأن شيئاً لم يكن .

كان سعد يغالب عكره وارتباكه . لكنه سرعان ما سيصفو حين تظهر صديقته الأخيرة قبل هبة : زهية التي سيحدث عنها هبة كما حدث مظهر :

– لم أكن حراً في علاقة مع امرأة مثلي مع زهية : محامية لا معلقة ولا مطلقة ، زوجها هاجر إلى الدانمارك وهي تربي ابنتيها ، حلوة رغم السُّمنة ، لا تريد مني إلا الساعة الحلوة التي نمضيها معاً هنا في مطعم الشرفة ، في نادي البجعات ، وفي بيتها حين تكون البنتان نائمتين أو ستنامان ، ويكون كأس الجين لزهية وكأس العرق لك يا سعد أيوب . وقد يحضر صديق أو صديقة أو أكثر ، بلا موعد أو بموعد ، لا يهم ، ما دمتَ وزهية ستنفردان أخيراً : شبق يتفجر ، هرش وعض وفحيح و . . ثم : باي حبيبتي ، باي حبيبي .

في اللقاء التالي لسعد ومظهر ـ لم يكن مصادفة ـ سيمضيان معاً إلى بيت زهية . مثل الساعدين والذراعين ، خصر يغلظ ، قبلة يميناً وقبلة يساراً .

وفجأة تندفع زهية إلى غرفة نومها ، ويتردد سعد فيقوده مظهر ، وتحكم زهية إغلاق الباب ، كما سيحكم العراء العتمة ، لتغطس الأجساد الثلاثة في لعبة مبهمة و / أو بهيمية ، حتى تفتح صغرى البنتين الباب .

لم يُدهش هبة من حديث سعد إلا وقفة ابنة السادسة في الباب ، والومضة التي استترتْ فيها زهية ، وعادت بالبنت إلى سريرها ، ثم نادت من الصالون :

– يلله يا ولاد .

– خلص الفيلم ع الفاضي .

عقبتْ هبة ، فَكَمَنَ سعد بسؤاله :

– جربتِ هيك فيلم ؟

أشاحت مستنكرة ، فألحّ :

– ولا شفتيه ع الفيديو ؟

فزجرتْهُ ، فكتم غيظه ، مثلما كتمه عندما قالت زهية :

– رجع مظهر لعندي بعد سفرك بكم يوم . ووصلنا ما انقطع ، كأنك كنت معنا . بعد مدة رجع ، ما سمحت له يدخل البيت . كنت كأني أصحو من مخدر . قلت له عند الباب : أردتك في غفلة ، ومع سعد . تجربة ، يمكن كانت ضرورية ، كانت لذيذة ، والسلام .

وكما ابتدأت علاقتها بسعد على هون ، تبددت على هون . وربما أعان السفر على ذلك : هو مضى إلى مهرجان الجنادرية فالعمرة ، وهي مضت بالبنتين إلى والدهما في كوبنهاجن ، ولم تعد حتى الآن .

قد تكون الجغرافيا أيضاً أعانت على ذلك الهون: سعد فى الضيعة أو اللاذقية، يظهر فى الشام كل شهر أو شهرين أياماً، ثم يختفى، شأنه مع هبة:

– لماذا يا سعد؟

– لا أستطيع العيش فى الزحام، والشام زحام.

كان ذلك الجواب مانشيت آخر فى الحوار الثانى الذى أجراه مظهر العبدون مع هبة عمار وسعد أيوب.

بين الحوارين زارت هبة مظهر فى مكتبه الجديد، وبعد لأى قالت لسعد:

– شوى شوى رحْ يصير مظهر العبدون نجم الكتّاب والصحافيين.

وربما كان ذلك فى ليلتها الأولى مع سعد فى الغرفة ـ العش التى استأجراها فى المزة ـ جبل. وفى تلك الليلة، أو فى ليلة تالية، امتدحتْ اهتمام مظهر بالكاتبات المبتدئات، فقال سعد:

– صيد الكاتبات. صيد الغريرات خصوصاً، قولى، وليس الاهتمام.

فأضافت:

– والاهتمام بالكتاب المبتدئين؟ هل ستقول: مظهر العبدون لوطى أيضاً؟

– قولى: يربى مريدين. لوطى؟ لا. على الأقل حتى انكسرت صداقتنا، إلا مع المرأة.

ولأن نظرته حاصت، قالت هبة:

– مع المرأة، يعنى: لوطى يا أستاذ سعد. وصديق اللوطى يا أستاذ سعد ماذا يكون؟

نهض مصطنعاً القرف، وسأل:

– جعت؟

وأسرع بالخروج ليحضر الغداء. وبدا مظهر يكرج أمامه على الدرج وفى الشارع، فهمس:

– إنت مهووس جنسياً يا صاحبى.

إلا أن الهمسة ارتدت إليه، فارتاع كما ارتاع حين ذكرت هبة ـ جزافاً ـ أن مظهر صادفها فى نادى البجعات، وأصرّ على أن يوصلها بسيارته إلى رأس الزقاق.

* * *

ربما كان ذلك بعد الحوار الثانى ـ لم يعد سعد قادراً على أن يحدد ـ ومظهر يتلمظ ويتباهى:

– الحوار السابق لجريدة الاتحاد، وهذا لجريدة الشرق الأوسط. وسأجمع الحوارين فى صيغة ندوة لمجلة قدّ المقام.

وكان سعد هو من اقترح مشاركة هبة فى الحوار الأول، فهلل مظهر:

– بديع. حوار جيلين وصراع الجنسين. كاتبة فى أول الطريق، وكاتب فى ..

– فى آخر الطريق.

قال سعد مقاطعاً، وهو يرنو إلى هبة التى هتفت :

– فى القمة .

وتواطأ سعد كى تكون لها الصدارة فى الحوار الأول . غير أن مظهر هو من اقترح مشاركتها فى الحوار الثانى .

لم يرق الاقتراح لسعد، كما لم يرق له أن تتعجل هبة نهاية الحوار، وتعود إلى البيت مبكرة، وتدعه وحيداً مع مظهر، ولم تكن إذن تلك الغرفة فى المزة ـ جبل قد صارت عش العاشقين .

وصلت سيارة مظهر بهبة إلى رأس الزقاق، وكانت تجلس إلى جانبه، وسعد يتململ وسط المقعد الخلفى . وحين حلّ محلها، قرر أن يوقف هذا الذى بدا له فجأة أنه جبر لما انكسر مع مظهر . لكن مظهر ما كاد ينطلق بالسيارة حتى همس :

– كيفها معك ؟

فسأل سعد متجاهلاً :

– مين ؟

– هبة . فيه غيرها ؟

– عادى . متل ما شايف .

– شايف إنها معكْ تمام التمام .

– يا ريت .

– يعنى لسّه ما صار شى ؟

– لسّه .

– طمنتنى .

– على شو ؟

– صايرين ما عن نفهم على بعض . الله يرحم أيام زمان .

– من زمان بطّلنا نفهم على بعض . على الأقل من أيام الحرب .

قال سعد مشيحاً، فمال مظهر نحوه، كما مالت السيارة إلى الرصيف أمام مطعم الشرفة، وهمس :

– سيبنا من اللى راح . إنت بدّكْ هبة ولاّ لأ ؟

– ما بقدر قلّكْ . ما بعرفْ .

قال سعد متعمداً المراوغة، ووقفت السيارة، وقال مظهر متذمراً :

– لا بيموتْ، ولا بيحيّدْ من درب الموتى .

– إنت بدك إياها ؟

سأل سعد مصطنعاً الحياد .

– يا أخى هبة عمار ظابطة معى، وإنت بتعرف مظهر العبدون : عمره ما خاب مع واحدة . بس على إيدك، هبة رح تفلت منى . هبة عينها عليك، وإنت عينك عليها . وينك يا زهية .

– شو يعنى ؟

سأل سعد مستَفَزاً .

– ولا شى .

غمغم مظهر كأنما أضمر أمراً . وفى ذلك العشاء الذى بتره سعد مدعياً الصداع، كان عليه أن يصدق أن مظهر قد ضاجع هبة ـ مرة أم أكثر : لم يحدد ـ وأنها سهلة وخبيرة، على العكس مما خمّن فيها : صعبة وجاهلة . ولعل سعداً لذلك قد عاد إلى اللاذقية فوراً . ولعله

لذلك كذّب مظهر عندما التقى بهبة بعد أسبوعين ـ لم يستطع أن ينتظر أكثر ـ وتجنب أن يذكر مظهر، أو أن يصادفه، متشاغلاً بالبحث عن غرفة ـ عش فى المزة ـ جبل.

إلا أن صمت هبة أيضاً عن ذكر مظهر هذه المرة جعله يرجح أن الرجل لم يكذب: ولماذا يكذب؟ مظهر ينتقل من امرأة إلى امرأة كل يوم، كل أسبوع، ومن المحال أن يكتفى بواحدة لشهر. وسعد يعرف ذلك جيداً منذ عهد الجامعة والتخييم قرب مسبح أفاميا. ولئن كان قد اشتُهِر بأمر، فبذاك: سمعته زفت، كما ستقول هبة، قبل أن يسألها سعد، وقد باتت لهما غرفة ـ عش:

– ما صار شى بينك وبين مظهر؟

– متل شو؟

سألت بلا مبالاة.

– مظهر ادعى ..

قال سعد متلعثماً، وعندما انتهى، اكتفت هبة بالقول:

– انت قلت: مظهر ادّعى.

كانت الغرفة مضاءة بشمعتين، منذ انقطعت الكهرباء بينما صوت المؤذن يهدر للغروب، مثل الرعد الذى وصل مساء تلك الليلة بعشائها. وقبل أن تنهى هبة عبارتها، عادت الكهرباء، فأطرق سعد خجلاً: أين داعية حرية المرأة واستقلاليتها؟ أين اليسارى التقدمى المتحرر الذى يضع ماركس نفسه على يمينه؟ صار سعد أيوب محققاً وشكاكاً وموسوساً؟ لم تكن كذلك يا أستاذ مع امرأة من قبل،

فلماذا الآن مع هبة؟ صرت تغار، حتى من الماضى؟ هذا هو الحب؟ ما الفرق إن نفت هبة ادعاء مظهر أو أكدته؟ قد يكون ضاجعها قبل أن تختارك، فما شأنك؟ لا بد أن واحداً على الأقل سبقك إليها أو سبق مظهر، فما شأنك؟ لماذا لم تسأل نفسك، ولم تسألها، عندما اتحد جسداكما أول مرة: أين هو غشاء البكارة يا حبيبتى؟ ولا تعرف ممن سبقوك إلا مظهر العبدون؟ ألأن صداقتك مع مظهر العبدون انكسَرت، ولم تنفع فى جبرها .. حتى هبة؟ هل تأكدت من رجولتك لأنك أزحت مظهر من درب هبة؟

انقطعت الكهرباء من جديد، وهبة تطفئ الشمعتين. انتظر سعد أن توقدهما، لكنها عادت إليه: هو على الكرسى، وهى تمسح على شعره من الخلف. هو يتلع إليها عنقه، وهى تنهضه. هو يخاصرها، ويجرؤ على أن ينظر إليها، وهى تبدد عتمة الغرفة ـ العش، كما تبدد الآن عتمة الغرفة السكن الجامعى. هى تتعرى، وهو يجرؤ على أن يتهجى شامة على وجنة، كما يجرؤ الآن على أن يتهجى صداقة وحباً، فيراهما مثل البللور الذى يحترق، فيتشكل، لكنه، إنْ انكسر، لا ينجبر ولا يُجْبَرُ.

مدريد ٥

"عليّ أن أبعثر الجهات والمرايا
كي أستطيع أن أتبيّنك".

سيف الرحبي

.. لولا تكشيرتكِ كلما ذكرتُ عبد النور، لكنتُ نسيتُ، ولن أقسم هذه المرة أنى أحب تكشيرتكِ، لأنى أريد أن أنسى ما كان بينكِ وبينه.

هذا العبد جيبه كما سميته أنتِ أثناء السبات، سترينه ينط ولا يحط عندما أحكى له حكاية المعرض: دار عبد النور للطباعة والنشر والتوزيع تقيم المعرض الأول للكتاب العربى فى إسبانيا: القناة الأولى من التيلفزيون وبوكيهات الورد والفاتنات اللواتى تبارت بهن الجاليات العربية و... والكتاب الذى سيباع بأضعاف سعره فى بيروت، ليعوض على عبد النور ما أنفق فى سبيل المعرض.

سأجعل مديحة تضاعف حصتها من ثمن الكتب المباعة، لا لتعويض ما أنفقت هى أيضاً، بل لتعوض أجر الدروس التى فوّتتها البارحة واليوم، كى يكون للمعرض مثل ذلك الافتتاح، وما ستفوته حتى نهاية الأسبوع، كى تدير المعرض.

سأجعل عبد النور يتلوى ندماً على أنه خاف من الخسارة، أو زهد بالربح القليل، فلم ينفق على المعرض بسخاء، ولعله لو فعل، لحصّل ما ينسيه الشكوى من سوق الكتاب العربى حتى نهاية العام.

***

بين رفوف الكتب حشرتْ مديحة الطاولة التى سمّرتنى خلفها، كى أقترف ما مقتّه وتهيبته دوماً: الأستاذ سعد أيوب يوقع على مؤلفاته بين الساعة السادسة والساعة الثامنة، وهذا مارتن ألونسو - متى عاد من إشبيلية؟ ومتى خفّتْ لحيته؟ - وهذه غلوريا تعاتب من

نسى دليله فى طليطلة، وهذه إيلينا وكريسبولا تتأسفان لتأخر صدور ترجمة روايتى عن المعرض؛ وهذا ماريانو غونساليس، أراه لأول مرة، مثل الدكتور زبير الذى يقيم فى مدريد منذ احتلتْ بيت أبيه فى حيفا تلك الأسرة الليتوانية اليهودية، فنزح أبوه إلى رام الله، ونزح هو إلى هذا المعرض، وهذا دييغو يقلّب كتاباً فكتاباً، سعيداً ومأخوذاً مثل طفل، وهذه أنطونيا غير آبهة بى ولا بأحد: امرأة جديدة لم أرها من قبل، خداها يناديان من يملأ فمه، وصدرها جعلنى أشهق، حتى لو كشّرتِ، وأنا لن أقسم هذه المرة أنى أحب تكشيرتكِ، لأن أصابع أنطونيا كانت تفح وهى تناولنى نسخة من روايتى الأخيرة لأوقّع، ولأن عينيها كانتا تحاصران عثرة قلمى وأنا أسأل هذه التى ناولتنى بعدها نسخة من روايتى الأولى لأوقّع:

- الاسم الكريم؟

قالت السمراء المعجعجة:

- هبة.

فانتفضت:

- نعم؟

كررت المرأة باعتزاز:

- هبة.

فتلفتُّ مستغيثاً، وضحكت أنطونيا، وغمزنى دييغو، وسألت المرأة بجفاء:

- فيه شى يا أستاذ؟

أطرقتُ خجلاً من نظراتى التى كانت تتناهبها، وهمستْ مديحة:

– هبة أخت الدكتور علىّ.

تجرأت على أن أرفع رأسى، وكانت المرأة تبتعد، واختفت أنطونيا، واختفى دييغو، ونبق الدكتورعلى بجانب مديحة، يغمزها وتغمزه، ويجلساننى بالقوة: إذن فقد وقفتُ. والله أنتِ السبب.

* * *

صباحاً ـ فى التاسعة ـ كان دييغو قد اصطحبنى إلى فرع البنك فى الجامعة. بيزيتات تربو على ثلاثماية دولار لقاء المحاضرة يا شاطرة، شو لكنْ؟ عم نلعبْ ولاّ عم نلعب؟

فى شآمكِ لا يقدّرون، لكنهم فى أندلسكِ يقدّرون ونص، ودييغو يعتذر عن رمزية المكافأة، والطابور الطويل يحشرنا بين الطلاب والطالبات، وألثوثينا تظهر فجأة حاملة ثلاثة فناجين من القهوة، لنشربها وقوفاً، وهى تزقو.

ما كادت البيزيتات تستقر فى جيبى حتى نبق الدكتور على، وخطفنى إلى المطعم الصينى الذى خمّنتُ قربه من بيت مديحة، فتبسّم مشفقاً على ذاكرتى التى لا يبدو أنها حفظت من مدريد أثراً.

كانت مديحة وشفيع قد سبقانا. لهوتُ بشفيع ولها بى، لنفسح للعاشقين: أين سالم وراغدة لينشغلا ببعضهما عنا، كلما جمعنا مكان؟

أتينا على زجاجة النبيذ بسرعة، وبسرعة التهمنا الأخلاط

الصينية، ووقفتْ مديحة تأمرنى بالاستراحة فى البيت مع شفيع، وتأمر علياً بمرافقتها إلى النادى، وعلى الرصيف همستْ:

– على سيساعد فى اللمسة الأخيرة للمعرض.

– هل هو ماهر فى اللمسة الأخيرة فقط؟

همست غامزاً، فعاجلتنى:

– فى الأولى أمهر.

وقطعنا الضحكة، لأنه التفت مستفسراً. هل تراهنين على أنهما مضيا إلى خلوة، وليس إلى النادى والمعرض؟

من المطعم إلى البيت طفق شفيع يتغنى بعمّو على، ويتمنى لو كان بابا مثل عمّو على. وفى غرفته أصرّ على أن أتنقل معه من قناة إلى قناة من التيلفزيون الصغير.

هذه أول مرة أرى فيها بيت مديحة: غرفة تنزّج فيها كنبة عريضة ستصبح فى الليل سريراً، وأخريان صغيرتان وترابيزتان زجاجيتان، وتنفتح الغرفة الكبيرة المدججة على غرفة شفيع: سرير وطاولة وكرسى وخزانة، وذلك التيلفزيون الذى يتعذب بين أصابع شفيع. وهنا وهناك كتب ورفوف زجاجية صغيرة، وكاسيتات وفازات ومسجلة وعلاّقة ثياب عمودية، وخزانة أحذية تختبئ خلف باب صغير يفضى إلى المطبخ المتطاول المزدحم الذى ذكّرنى بموعدى مع نشأت رجب. ولأنه لم يعد يفصلنى عن الموعد سوى عشرين دقيقة، هتفت له راجياً أن يوافينى إلى موقف إيجليزا، وبالطبع تأخرتُ.

نشأت رجب هو مندوب جريدة الوطن. وحين كنا نجرى ـ ديبغو وأنا ـ إلى فرع البنك فى الجامعة، صادفنا، وصاح بدييغو:

– أين تخفى الأستاذ سعد أيوب؟

ثم انهمر عليّ:

– متى نجرى حواراً للجريدة؟ احسبْ حسابك: قبل الحوار أو بعده: جولة برفقة نشأت رجب فى خفايا مدريد، لا يوفرها لك دييغو ولا غيره.

قال دييغو:

– صحيح.

وقلت:

– الثالثة هذا العصر.

قال دييغو:

– ستتأخر عن افتتاح المعرض.

قال نشأت:

– طبْ بكرة.

خفتُ من ازدحام الوقت وضيقه، وفطنت إلى أن نشأت مصرى، وتذكرت بعض مقالاته فى (الوطن) عن خفايا سرقسطة وجيّان، وبعض حواراته مع كبارهم وكبارهنّ. وحين اختطفنى على القيرونى إلى المطعم الصينى ـ لا زلت مصراً على أنه قريب من بيت مديحة، مادمت وشفيع قد قطعنا المسافة بينهما مشياً ـ ظهر نشأت على الرصيف المقابل يهتف:

– الجماعة جوّه.

– مين؟

سأل عليّ متجاهلاً، وخُيِّلَ لى أن نشأت ازداد جحوظاً وصلعاً، وها هو يزداد خفّة، ويهمس غامزاً قبل أن تنطلق بنا سيارته:

– إزاى الجماعة؟

لعبتُ معه لعبة على، فقهقه، وراح يتقافز من مجاهدة مديحة إلى خسة زوجها، ومن أجزاء المقالات التى قرأها لى إلى عيشه المديد فى مدريد، وشوقه المشتعل دوماً إلى القاهرة. وحين غادرنا سيارته أمام البريد، تراءى لى أنه يخفى خلف كل هذه الخفة وكل هذه الحيوية، أسى عاشق على أهبة الفراق.

بين البريد والحديقة، كنت أتهيأ لأحدثه عن كاتبة هى أقرب إليّ من البشر أجمعين، بل هى أقرب إليّ من روحى، بل هى روحى: بسّ هيك يا سعد؟

أنتِ تسألين وتحتجين يا طمّاعة، ونشأت يتمسح بالشجرة التى ضاجع صديقة برتغالية تحتها منذ عشر سنوات، عندما انطلقت إسبانيا من أسر فرانكو إلى ديمقراطية أوروبا، كما قال وهو يشهر قلمه فى وجهى.

تحت الشجرة المقابلة سألنى عن الرواية التى ستعرّف قارئ الإسبانية بى، وعن ترجمة كريسبولا ومديحة، وعما حاضرتُ به فى جامعة أوتونوما.

كان يسأل وأنا لاهٍ عنك بكِ: أرانا محتشمين تحت شجرته ـ لماذا؟

ـ وهو وصديقته البرتغالية يرغطان، وبين أسراب الحمام التي تنقر حولنا ـ هنا أم في حديقة السبكي؟ ـ رأيتُ المسجلة تنتظر، ونشأت يلعن الصحف العربية الثرية والفقيرة المهاجرة والمقيمة والرسمية والمعارضة التي لا تكافئ من تحاور، لذلك قرر أن يكافأني بزجاجة نبيذ وطبق من الرخويات، ولكن بعد أن نفرغ من الحوار في هذه المقهى الصغيرة الفارغة.

* * *

وهو يدير المسجلة سألني:

– لماذا لا يشغل المستقبلُ الكاتبَ منا؟

أبهتني السؤال، فتمتمت بعسر:

– لست ناطقاً باسم أحد. وفيما يخصني، لولا المستقبل لا أظن أني كنت حرفاً، لا في رواية ولا في غيرها. تستطيع أن تقول: المستقبل هو محرك الأعماق في كتابتي وحياتي.

وأرجفني صدى عميق لطالب أو لأستاذ في مثل سني، وغير ملتح مثلي، ينقضّ عليّ ما إن فرغتُ من محاضرتي في جامعة أوتونوما، معدداً حروب القرن العشرين، فحروب الشرق الأوسط، ومتسائلاً بسخرية:

– أي مستقبل ينتظركم؟!

وما كاد الصدى يتلاشى حتى قال نشأت:

– بعد قليل ستكون في القرن الحادي والعشرين. هل يشغلك الرقم ألفين؟ أعني انتقال الكومبيوتر إلى العام ألفين؟

سأل كأنه لم يصدق كلمة لي. وزادني سؤاله بهوتاً، فتشاغلت بسيجارة، وبرشفة من فنجان القهوة، وإذا به يتابع:

– بعد قليل سيجد العالم نفسه مكبلاً بأرقى إنجازاته العلمية: حركة الطائرات، السفن الفضائية، البريد الألكتروني، الأسهم، حاضنات الأطفال، أسواق المال.. وهناك من أطلق الإنذار الأول منذ سنوات. خطأ بسيط وقع فيه الجيل الأول من المبرمجين، وبحسن نية، لكن الخطأ صار قنبلة موقوتة، مع أنه الآن يبدو بديهية. للأسف، حتى المستقبل القريب لا يعني أحداً منا. لا الرقم ألفين، ولا الكمبيوتر كله، يعني أحداً عندنا. الكومبيوترات الشخصية الحديثة مزودة برقاقة ذات اثنين وثلاثين بايت. عندي واحد منها. هذه ستنتقل إلى العام ألفين بسهولة. لديك كومبيوتر؟

وددتُ أن أقول: لدي هبة واحد، ووددت أن أحدثه عن إسبر فارس الذي أمّن لهبة الاشتراك بالإنترنت عن طريق بيروت ـ أم عمّان؟ ـ وما عاد يكفيه بيع كمبيوتر ولا إصلاح طابعة. لكنني، لأنتقم من حماسة نشأت، استحسنت الخطأ الموعود، فصمت هنيهة، ثم أسكت المسجلة، وراح يتغنى بنبوءة هكلسي منذ ستين سنة في رواية: شطر النطفة، كي يتسنى أن يكون من الأستاذ سعد أيوب كذا نسخة طبق الأصل.

راقت لي الفكرة، فابتسمتُ، فذكّرني بدولّلي التي وُلدتْ منذ حين، وبرواية لتشارلز إيريك ورواية لبول أندرسون، رأتا منذ أربعين سنة اليوم الذي يُستنسَخ فيه الأولاد من المرأة دون الحاجة إلى نطفة

من الأستاذ سعد أيوب، وهذا اليوم ما عاد بعيداً بفضل ..

ووجدتني أقاطعه:

– ارحمني يا نشأت.

فأدار المسجلة قائلاً:

– سأسافر إلى اليابان لأحضر توقيع معاهدة كيوتو. سترسلني الجريدة. هل تعنيك المعاهدة؟ أسألك ككاتب، وأسألك كإنسان على سطح هذا الكوكب.

– نعم، وإن كنت لا أعرف عنها الكثير.

قلتُ يائساً، فاندفع:

– هي أزمة كوكبنا بحق. أخطر أزمة تواجهها البشرية، على الرغم من تشكيك بعض الخبراء، وعلى الرغم من تداخل البحث العلمي بالمصالح. هل تتابع استفحال السرطان، وتآكل طبقة الأوزون؟ هنا تتابع ارتفاع حرارة الأرض وسطح البحر؟

– تركت كل هذه القضايا الكبرى لأمثالك.

قلت حانقاً.

– ما الذي يشغلك من المستقبل إذن، إذا كانت مشكلة العام ألفين لا تقلقك، ولا الاستنساخ، ولا مصير الكوكب ولا ..

قال ساخراً، فقاطعته:

– تشغلني حرب المياه مثلاً، الديمقراطية، الأسلحة النووية، إسرائيل، الوفاء، الحب، ألا يكفي؟

قال بهدوء مفاجئ:

– على الرغم من أهمية ما ذكرت، هناك ما هو مهم أيضاً، بل وأهم.

– إذا كنت تقصد ما تفضلتَ به، فهو يهمني. أقسم لك أنه يهمني جداً. والآن، وبما أنك كنت السائل والمجيب في هذا الحوار الصحفي العجيب، فأنا من سيكافؤك بزجاجتي نبيذ، بدلاً من واحدة، وبطبقين من الرخويات، بديلاً من واحد.

قلت وأنا أسكت المسجلة، واندفعت نحو باب المقهى، مترحماً على مظهر العبدون، ونشأت يقهقه.

* * *

من المقهى إلى بوابة الشمس لهونا بالفرجة على أسراب الجميلات. ومثل دييغو في حانة أنطونيو، بدا أن لنشأت مع مطعم لاكون ألفة حارة ومعمرة.

كان يغازل كأسه، ويرد التحية أو يحييّ. وبعد حين راح يتقافز من فضيحة مكتب الاستثمار الكويتي إلى مرجعيته في فضائح العرب هنا، وليس في فضيحة باب أوروبا وحدها.

أومأت مستسلماً، فأقبل على طبقه حتى حسبت أنه نسيني، لكنه باغتني يقسم على أن ما يُدلَقُ كل مساء من أصناف الكحول في هذا الكيلومتر المربع الذي نتوسطه الآن، يربو على ما يندلق في بلجيكا خلال أسبوع.

وددتُ أن أتباهى بالأحد الذي تهتُ فيه خلفكِ في هذا الكيلو متر المربع، لكنه التفت إلى الطاولة الميامنة مبربراً بالإسبانية

ومقهقهاً، ثم عاد إليّ يسخر من أكبر الجالسين سناً حول تلك الطاولة، لأنه شاخ وهو يتقمص شقيقه الذى تدرب على مصارعة الثيران الصغيرة فى مدرسة، ولأنه شاخ وهو يتباهى بنسخته من الصورة التى التقطها مصور لهمنغواى منذ ستين سنة. ولما ضبطنى أتلصص على الساعة، نصحنى بالمترو، كيلا أتأخر عن افتتاح المعرض، ثم اعتذر عن نقلى بسيارته، متعللاً بموعد هام مع راقصة روسية، فأومأتُ مستسلماً، وهممتُ بالنهوض، لكنه باغتنى بالسؤال عن غروب الشمس فى مدريد، ووجدتنى أتعتع ببله:

– لم أنسجم بعد مع غيابها فى الساعة العاشرة. الشمس فى الشام..

فقاطعنى:

– عليك أن تستقلّ الميترو مرة عند الغروب لترى ازدحامه بأبناء وبنات السادسة عشرة فنازلاً.

أومأت مستسلماً، فتابع وهو يربت على كتفى بمودة:

– هذه آثار القانون المنسى من زمن فرانكو.

هممتُ بالسؤال عن القانون، لكنه سبقنى إلى تحريم الخروج على فتاة بعد العاشرة، وانهال علىّ بأنواع المخدرات منذ ذلك العهد حتى الساعة:

– البوليس يحرس المدارس يا أستاذ سعد. ممن؟ من الذين يلقون بالدروبس المسموم. من الذين يلقون بالشوكولا المسمومة، ويجرون الزبائن من أبناء وبنات المدارس إلى جهنم.

والله خفت على قتيبة الآن أكثر من أى وقت مضى، مع أن سيجارة الحشيش فى اللاذقية بقلع الضرس. ولعل الخوف هو ما جعلنى أنتزع كتفى من كف نشأت وأجرى إلى محطة الميترو. ولم يغادرنى الخوف حتى أغرقنى زحام المعرض.

تاتيانا

"الكذبة الوحيدة التى تستحق التصديق
هى الحب" .

رياض الصالح الحسين

. . أى إننا كنا جميعاً نعلم أن إسبر فارس قد تعلق بفنانة روسية تزور الشام، بعدما توطدت القطيعة بينه وبين راغدة. غير أن أحداً منا لم يكن قد رأى تاتيانا، إلى أن دعوته ومطاع إلى العشاء فى نادى البجعات، احتفالاً باستلامى المكافأة الأولى من مركز الأبحاث، وعرفاناً بجميل مطاع.

بعدما استحلفنا إسبر على كتمان السر، مضينا صاخبين إلى ذلك النادى خارج المدينة. وبعد قليل انضمّ إلينا مظهر العبدون. وقبل أن ينتصف الليل، ظهرت تاتيانا فى بذلة الرقص.

مع التصفيق والتهليل ـ وقد بالغت ومطاع فيهما ونحن نتغامز، وإسبر يباهينا ـ كان ضوء القمر الشحيح ينضاف إلى الأضواء التى خفتت، لتكون لتاتيانا هالة فاتنة، يضاعفها المدى الأخضر الذى ينفتح عليه موقع طاولتنا: لطعة مما تتبقى من الغوطة حتى هذه السهرة.

كانت تاتيانا تتلوى بجذعها، وذراعاها تتموجان. كان بطنها ينتفض طيّةً فطيّةً، ووركاها يتباريان. كان ثدياها يتدافران، وساقاها تنطوحان، وابتسامتها ترشق الجميع. ومن حين إلى حين كانت تسرق من إسبر غمزة، فيلكزه مظهر، ويحمحم مطاع، وألبد كمن ينتظر حسن الختام.

اقترب خمسينى كهل ممتلئ وبالغ الأناقة ـ من قمة حذائه إلى أخمص رأسه ـ وأشار، فخرس العزف، ووقفت تاتيانا، وبدأ ينثر أوراق مئات الليرات ـ وربما الدولارات ـ ويأمر بالتحيات لجلساء

طاولته، ولغيرهم على غيرها، وربما لغائبين، فتردد تاتيانا خلفه بعربية أصيلة، وأخيراً: التحية لتاتيانا، والهمسة، والضحكة، وهذه الرزمة التى تحشر منها فى حمالة الثديين، والباقى تحت المنديل الذى يزنّر حوضها. ثم: عاد الرجل الذى ازداد كهولة وامتلاءً وأناقة إلى طاولته، بينما أشارت تاتيانا، فانطلق العزف أسرع وأعلى، وراحت تخلع.

أتيتُ على كأسى بجرعات متتالية وحانقة: هذه هى نهاية الاتحاد السوفياتى، وهذا هو فجر الديمقراطية والحداثة فى روسيا: تعا تفرّجْ يا سلام!

كانت تاتيانا الآن تمرق بين الطاولات، فتلهبها. وقبل أن تصل إلينا، استوقفها هذا الشاب الذى يصغر أخى قتيبة، وبذَّ فعل سلفه الخمسينى: خصّ طاولتنا بتحية، وحشر رزمته بنفسه فى المنديل الذى يزنّر حوض تاتيانا.

لأن عينى دمعتْ، ولأننى كنت أشيح عنها كلما اقتربتْ من طاولتنا أو صادفتنى منها نظرة ـ ستقول ـ قررتْ أن تدعونا إلى الغداء غداً فى بيتها: إسبر وأنا فقط.

وهذه هى الستائر مرخية، والشموع الملونة تملأ الزوايا. هذه هى الفودكا الروسية لإسبر الذى أدمنها منذ دراسته فى موسكو، والكونياك الفرنسى لى، والعصير لتاتيانا التى تخرجتْ منذ سنين من معهد اللغات، وستبلغ الثلاثين بعد شهور ـ كانت الآن تخاطبنى وحدى:

– لم أعد إلى كرسندار، ولم أر أحداً من أهلى منذ غادرتهم إلى موسكو. أجيد الفرنسية والإسبانية. عاطلة عن العمل، أرافق سائحاً أجمل من إسبر وأثرى منك ومنه. أصطاد من عربكم تجار الشنطة الذين ملأوا الأوتيلات والمطاعم والبارات بعد سقوط الشيوعية، ومن هؤلاء تعلمت العربية. لا تسأل كيف تتدبر أمرها بنت لا ترتوى من الدنيا، والرقص هو جنونها الأكبر، لكنه ليس الوحيد.

وكانت تاتيانا صغيرة إذن عندما ضاقت بالرقص المقونن ـ فى كرسندار ـ كما تسمى الرقص الغربى، فراح جسدها يبتدع رقصه، بعدما علمتها صحبة السوّاح من كل قطر أغنية ورقصة، ثم: مسّها الجنى فى بيليه أوبلاكا: لم يكن على عهدكَ يا إسبر، لكنك تعرف شارع باكروفكا، وعليك أن تسرع إلى الطابق الثانى: هنا التحف الثمينة والنادرة، امشِ. هناك الآلات الموسيقية، امش. هنالك الكتب، وتاتيانا باتت مدمنة على كتب السحر، قف: فى هذا الكوخ تجلس على هذا المقعد الدائرى لتتصفّح الكتب التى تكوّمتْ فى حضنك. امش الآن حتى تكتشف من أين يأتى هذا اللحن العجيب. قف: ثلاث صبايا يرتدين بذلات الرقص التى سترتدى تاتيانا مثلها فى القاهرة وبيروت، والبارحة فى نادى البجعات، والجنى هو من يوقّع للثديين والخصر والبطن والوركين والفخذين والساقين. الجنى يمسّ تاتيانا فتقلد الصبايا المتدربات، والتصفيق يعلو لها وحدها، وسيدة الصبايا تخلو بها:

– ستتعلمين بسرعة. نحن ننظم رحلات سياحية إلى مصر

ولبنان وإسرائيل والأردن والخليج و.. ونؤمّن لمن ترغب عملاً. هذا الرقص فن وعمل، والسماء تمطر دولارات على الراقصة.

كان صوت تاتيانا يأتى مندى بالحزن، كابتسامتها. وفجأة بدت تغالب حقداً دفيناً:

– صرت أتابع إعلانات الصحف عن فرص مجزية للعمل فى الخارج. وبفضل صديق قديم يعمل فى أوتيل اسماعيلوفا، طرنا إلى مصر: ثلاث بنات انضممنا إلى أربع وشابين فى القاهرة: عشرة أيام والشابان يدوران بنا من أوتيل إلى عوامة، ودائماً خمس نجوم على النيل، ودائماً الويسكى والغناء والرقص والسواح، ولكن أين الدولارات؟

بعد أن سافرت منا اثنتان إلى عمان واثنتان إلى تل أبيب، بدأت أخاف. وزاد خوفى لما اختفى شاب، وقال شاب: لا أستطيع أن أنتظر هنا أكثر. عليكِ أن تنفذى الاتفاق، والعمل الموعود ليس هنا. الدولارات ليست هنا.

لكن تاتيانا التى أنساها خوفها ما شاهدت من رقصنا وراقصاتنا، قررت ألا تفارق النيل. وعندما صارت الأكف تلتهب لها، والدولارات تمطر، جاءت إلى بيروت. وعندما صارت الأكف تلتهب لها، والدولارات تمطر، جاءت إلى دمشق. وإسبر يؤكد أن الحكاية غير مقنعة، وأن لتاتيانا سراً لا زالتْ تخفيه عمن أحبها وأحبته، فتنهض إليه حائرة ومحيّرة، تداعب أذنيه وتتلوى أمامه، ثم ترمى حذاءها قربى، وتنتظر الكاسيت الذى سيختاره إسبر بلا حماسة.

رويداً أخذت تاتيانا تتبأر فى بطنها وهو يتلولب إلى أعلى وإلى أسفل. وحين عقد إسبر المنديل على حوضها ـ بلا حماسة ـ بدا بطنها ثملاً، والمنديل ينازعه ليكون حوضها البؤرة الحارقة: ليست الآن راقصة فى نادى البجعات ولا فى سواه، بل خصوبة تدفق وتعنف وترقّ وتتوحش وتتسامى.

واختفتْ تاتيانا من الشام فجأة. ولا زال إسبر حتى الآن متعلقاً بها، وقلقاً عليها، وحزيناً. وكنت أسخر من استعادته فيها لزمنه الموسكوفى ـ أعنى: كنت أعينه على نسيانها ـ فكان يكرر بسخرية مدماة:

– زمنى فى موسكو ليس زمن تاتيانا. أنا ابن ثمانينات القرن العشرين السوفياتية، وهى ابنة تسعينياته الروسية. أنا ابن نهاية، وهى بنت بداية.

ثم يجرنى إلى نادى البجعات، حيث حلّتْ محل تاتيانا راقصة مولدافية أصغر سناً من تاتيانا، وأقلّ دربة، وأكثر تبذّلاً. وبعد حين صرت أتهرب من مرافقته، ونسيتُ تاتيانا.

مدريد ٦

"إيه أيها الحب
كلما جاء عصر، صار لك لونه".

سينة صالح

.. كذلك نسيتُ تاتيانا حتى دعتنى ألثوثينا ـ العصفورة بحق ـ إلى العشاء فى أوتيل منفيس. وكانت المفاجأة الأولى أنها حضرت مع ماريانو غونساليس الذى يعمل فى المكتبة الملكية، ويعدّ أبحاثاً فى التصوف الأندلسى، مفيداً من المنحة التى دبرها له دييغو، على ذمة الدكتور عليّ القيرونى.

غمزتُ ألثوثينا سائلاً عما إذا كانت أصغر أستاذةٍ فى جامعة أوتونوما لا تزال تخاف أن يطير مكتبها منها، فترابط فيه ليل نهار، فترفرفت ضحكتها، ثم زقت وغمزتها تشير إلى ماريانو:

– لم أقل لك إنه سيحضر، لأننى لم أكن قد دعوته. بل أنا لم أدعه. هو أصرّ على الحضور عندما علم أننى سأكون مع الأستاذ سعد أيوب، ليشمّ رائحة الشيخ الأكبر سيدنا محى الدين بن عربى، قُدِّسَ سرُّه.

– التقينا فى معرض الكتاب. اشتريت رواية لك، ووقّعتَ لى عليها.

قال ماريانو بمودة. ولم نكد نجلس حتى كانت المفاجأة الثانية: تاتيانا برفقة نشأت: هذا هو سعد أيوب ـ قال، فعانقتنى وهى تسأل:

– كيف حال إسبر؟

واختارا طاولة إلى يسارنا، وصوت أمى يداهمنى:

– الدنيا صغيرة يا ابنى سعد.

* * *

بعد قليل لم أعد أسترق النظر إلى تاتيانا، إذ جرّنى ماريانو إلى المباراة فى متصوفة الأندلس، وعندما قال:

– أنتَ لا تصدق أن أبا عبد الله محمد بن أشرف الرندى الأمى كان يغترف النار بيديه من الكانون، فيمسكها إلى ما شاء الله، ولا تعدو النار عليه.

أعلنتُ استسلامى، لكنه تابع:

– أنت لا تصدق أن أبا على الشكاز الإشبيلى كان يمد يده إلى ما وجد من نبات الأرض، من أعظمه مرارة، فيطعمه لمن معه، كأنه حلوى.

فاندفعت مخاطباً ألثوثينا:

– ما أصدقه هو أن الشكاز هذا كان مهووساً جنسياً، مثل صديق قديم له ـ وليس لى ـ اسمه مظهر العبدون.

وعدت ضاحكاً إلى ماريانو:

– كيف كان ذلك الشاب الأعزب يقضى وطره؟ أعنى الشكاز النكاح المنكاح وليس مظهر العبدون الذى تحسد كثيرات زوجته على فحولته وإخلاصه.

ولأنه خيّل لى أن ماريانو الذى أطرق يكاد يستسلم، تابعت:

– هل كان أبوعلى يزنى كل يوم مرتين مثلاً؟ أم كان يمارس العادة السرية صبحاً وظهراً، وربما عصراً وعشياً؟ هل كان يقتنى حمارة مثلاً؟

وضحكتُ، وضحكتْ ألثوثينا. لكن ماريانو انقبض،

فاستدركتُ:

- أعتذر إن كنتُ أزعجتك.

فزقتْ العصفورة:

- المتصوفة قديسو ماريانو.

- لكنكَ مسيحى.

خاطبته بحذر، فحدق بى ملياً، ثم تمتم:

- الإيمان هو الإيمان. أنت مسلم، لكنى لا أظنك مؤمناً.

- دعك منى. أظن أنى مؤمن على طريقتى الخاصة.

رددتُ ممتعضاً، فحدق هذه المرة بألثوثينا، ثم عاد لى:

- حدثنى عن طريقتك.

- ليست طريقة صوفية على أية حال.

قلت مستعيناً بالنظر إلى ألثوثينا على التملص، فألحّ:

- أرجوك.

فبدأت أتلعثم:

- فى سرّى الأمر أوضح وأبسط منه فى العلن. ربما كان مصالحات أو تواطآت، نسجتها على مرّ السنين.

وبعد صمت أحسبه طال، استطعت أن أتابع:

- هو خوف يداهمنى أحياناً. كانت مداهماته لى من قبل أكبر وأكثر وأمرّ. هو الآن خوف لذيذ، طمأنينة صغيرة ونادرة، أراها تكبر وتكثر، وربما كان أسئلة مكرورة، إلا أنها تظل كبرى: الخلق مثلاً، الموت، حتى الحب. وباختصار: هو احترام لما تؤمن به

وتعتقده، مهما يكن. وهو شكوك لا تنتهى. بالمناسبة: قمت منذ سنوات بالعمرة. أفترض أنك تعرف العمرة. والآن قلْ لى: هل تصدق معجزات المتصوفة والقديسين و..

- أنا نفسى صرت أصدق. كنت مثلك حتى رافقت ماريانو.

زقتْ ألثوثينا، فشكرتها على إنقاذى بمقاطعتها لهرفى. وأنشد ماريانو:

لقد صار قلبى قابلاً كلَّ صورةٍ
فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ
وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ
أدينُ بدينِ الحبِ أنّى توجهتْ
ركائبى، والحب دينى وإيمانى

هبة: تلفتّ أبحث عنك، فخفقت بين ضلوعى، وكانت قسمات ماريانو تضىء، وصوته يعذب ويخفتُ بعربية صافية. وحين انتهى زقتْ العصفورة:

- ابن عربى هو حقاً الشيخ الأكبر.

- قدس الله سره.

تمتمت، وتنهد ماريانو، ثم قال:

- بعد (ترجمان الأشواق) بدأت بحفظ (الفتوحات المكية)، وعندما أنتهى، سأزور ضريحه المبارك.

ورفع كأسه، وأنا أفكر فى أن له إذن ذاكرة مرعبة، وزقتْ ألثوثينا وهى ترمقه:

– كل هذا قبل أن نتزوج، كما اتفقنا.

فقلت:

– فى صحة العروسين.

وقال ماريانو:

– سأهديك كاسيت فيه من الفتوحات ومن الفلامنكو.

وزقتْ العصفورة:

– هذا الكاسيت محاولة جريئة للمزاوجة. محاولة ناجحة جداً تذكّر بالشيخ الأكبر أهله، أقصد نحن لا أنتم.

وتسللتْ دندنة نشأت من يسارنا، فالتفتُّ، فإذا بتاتيانا تزيح كرسيها وتتمايل بغنج، ثم ترقّص ذراعيها وثدييها وضحكتها، وصفقتْ ألثوثينا، ثم ماريانو، ثم صفقتُ، ثم صفق آخرون: أوليه أوليه.

عتمة

"غيم كثيف يغطى السماء هذه الليلة
وكثير من الشهب المتساقطة:
ما أكثرها من رغبات حارة، فُقِدَتْ".

كارين لينتز

.. لكنكِ يا غلوريا تبعثين فيّ موتين: وداد، شقيقتى التى لم أرها. بالأحرى: لا أذكرها. الموت الثانى هو سعدا.

كانت ودادًا تكبرنى بخمس أو ست سنوات، على ما تذكر أمى. كانت إذن فى السادسة أو السابعة عندما أصابتها الجدرى، وماتت بالنسبة للجميع، ما عدا أمى التى سمعتها - بعدما كبرتُ - تتحدث عن حملها مراراً بين ودادًا وبينى، غير أن حملها لم يسلم حتى كنت، ومن بعدى بسنين دون حمل، كان قتيبة.

ومثلما سعى أبى إلى الزواج ثانية بين موت ودادًا وولادتى، سعى بعد قتيبة، لأن حمل أمى عاد ينقصف فى شهره الثانى أو الثالث، حتى يئستْ، ويئس هو من الزواج بغيرها، لسرّ مات معه.

هبة: حماتك - بما أننا لن نتزوج - لا زالت تتحدث عن وداد، ولكن ليس كما أذكر أنها كانت تفعل فى زمن آخر.

كانت تبدأ حديثها دوماً مفترضة أن ودادًا صبية، وليست طفلة: وداد: لا تعقصى شعرك يا بنتى. دلّليه وارخيه على كيفه. بلا الحمرة والبودرة يا وداد. وأنت يا سعد: كيف نسيت وداد؟ كنت ما شاء الله عليك تكرج فى الحارة وحدك.

فى أمس غير بعيد صارت تتذكر ودادًا فقط كطفلة. وما عدت أماحكها بذاكرة ابن السنة أو السنتين - هى أيضاً غير متأكدة من عمرى عندما فجعتْ ببكرها، ولا ثقة لها بالتواريخ المثبتة فى دفتر العائلة.

وفى أمس بعيد، صرت أحن مثل أمى إلى الصبية المعتدلة فى

طولها وامتلائها: ودادًا التى أباهى بكحلة عينيها وقسوة رموشها وشوق الحاجب للحاجب فى جبينها. وصرت أضرب المثل بسمرتها ونضارتها وضحكتها، وربما كان ذلك ما جعلنى أميل إلى سعدا. ولكن لماذا أرى الآن فى غلوريا: مرة وداد، ومرة سعدا؟

* * *

ذات صيف - بالتأكيد لم أكن قد حملت البكالوريا - رأيت سعدا أول مرة. بالأحرى تنبهت إلى أن هذه التى أراها كل صيف، تشبه وداد. لكن ودادًا ماتت، وسعدا تسوق الحمار الأبيض المحمل بالحصيد على الدرب الملتف حول بيت جدى.

صرت أتابع مشوارها حتى البيدر. صرت أستوقفها وأمازحها، وهى تضحك. بالأحرى: صرت أدقق فى بياض أسنانها ودقة ذقنها، وأتشرب سمرتها وأسترجع ضحكتها، حتى صارت الضيعة تردد أن الأستاذ سعد - هو أستاذ ولو لم يحمل البكالوريا بعد - عشق سعدا، فصارت سعدا تنزل الجرة عن كتفها - مساء العودة من النبع - وتسقينى، وصرنا نرد التحية على من يعبر أو تعبر، ثملين بسرنا المفضوح، كأننا أغنية.

وحين سألنى جدى، فأبى، عما تردد الضيعة، أكدت الشائعة. وقال جدى:

- عليك إذن أن تتزوجها.

وقال أبى:

- بكير على الزواج. أمامك العسكرية والجامعة والوظيفة.

وقالت أمي :

– سعدا مثلي يا حسرة ، لا تفك الحرف . وأنت يا سعد ـ الصلاة على النبي ـ تحمل كم شهادة .

وكنا في صيف جديد ، وأهديتها بلوزة ، وقبلتها ، وضحكتْ ، وصرت أتردد على بيتها ، فيحتفي البيت بصهره ، وينام لنسهر وحدنا أمامه تحت العريشة ، أو على يمينه بين خيطان الدخان الشقراء الندية .

مرة واحدة استلقينا مبهورين بالقمر والنسمة الطرية ، ثم تقابل وجهانا ، ورويداً توحدتْ أنفاسنا . وربما كنا غافيين حين تعانقنا ، أو تداخلت سيقاننا وأفخاذنا ، أو حين شهقتْ وهمدتْ ، ولم أكن أعرف أن ذلك يعني رعشتها ، فخفتُ وهمدتُ حتى سمعتها تكتم ضحكتها ، وتوشوش :

– ما نعست ؟

وفي نهاية صيف آخر ـ أو في نهاية هذا الصيف نفسه ـ أخذ أبي باقتراح أمي :

– نخطب البنت ، وبعدين بحلّها ألف حلال .

وكلّم رفيق طفولته وصباه : أبا سعدا ، ولا أعرف إن كانا قد قرأا الفاتحة أم لا .

ومن بعد : لم أر سعدا .

* * *

من بعد ، عملت في مديرية الشئون الاجتماعية ، حتى تخرجت من الجامعة . وأسرتني الشام بفضل كثيرين وكثيرات : أولهم إسبر

فارس الذى أسرع إلى موسكو ، ليعود بعد سنوات ضابطاً ومهندساً ، وآخرهن راغدة التى أعياها التخرج من كلية الزراعة ، وهجرتُ الضيعة مكتفياً بعودة أو اثنتين إلى اللاذقية : أكثر من سنتين لم أر سعدا ، ولسنوات تلتْ تحاشيت الضيعة إلا فى ميتة جدتى ، ثم جدى ، ثم انتفضت وقلت للشام : وداعاً .

لا أدرى إن كان ذلك بسبب سعدا ، أم لأن الشام فاقمتْ أسرى ، أم لأن نداء الجبل مثل نداء البحر كان يتفجّر فىّ مثل نداء الكتابة .

لوّحتُ للشام غير آبه ولا نادم . ولكن عندما لوّحتْ لمديرية المرفأ ، خفت ـ وكان أبى قد توفى ، وقتيبة يلبط البكالوريا التى تلبطه ـ فليس لنا من إرث غير البيت الذى نسكنه ، وقطعة الأرض التى سأشيد فيها عزلتى فى القرية ، ولم يكن ما يصلنى من المجلات الرصينة التى أكتب إليها أو أترجم ، ليعوض الراتب الذى فقدت ، ولا الأمان .

ربما كنت بحاجة إلى مثل ورقة اليانصيب التى طارت بكِ من زقاق فى القانون ، واشترت لكِ بيتاً فى زقاق طالع الفضة . لكننى لم أشتر يوماً ورقة يانصيب . وصرت أكتب للصحف ـ طبعاً الخليجية والمهاجرة ـ وأدرّس فى البيوت الطالبات المتفوقات ـ بالضبط الطالبات المتفوقات ، لأنهن أقل رهقاً وأكبر أجراً وأحلى ـ وعوضت الراتب بضعف فوق ضعف ، لكن قتيبة استنزفنى ، فتنازلت له عن حصتى من إرث البيت ، مقابل حصته من أرض الضيعة ، وبعت الحصة لأشيد عزلتى .

هبة : لم أشبه امرأة بوداد إلا غلوريا . ربما كنت بحاجة لأن أراها أخيراً ، حيةً ، وهنا : في إسبانيا ، أما النسيان ، فلعلي نسيتها منذ سنين حتى الليلة ، كما نسيت سعدا حتى عمرتْ عزلتي بمن نقضتها : هبة عمار .

بسعدا أيضاً ، لم أشبه امرأة إلا غلوريا . وربما كنت بحاجة إلى أن أبدأ من السؤال المعشش : هل ماتت سعدا بسببك يا سعد أيوب ؟

لقد نسيتها حقاً منذ كتبتها في روايتي الأولى . لم أزر قبرها ، ولا أعرف أين هو ، وقد كان عليّ حقاً أن أبلغها بتراجعي وجهاً لوجه ، حتى لو لم أعلّل . كان عليّ أن أعودها في مرضها ، وكان .. ولكن هذا ما كان .

قبل الليلة لم أفكر في ذلك ، ولكن ها أنا أسأل : عادي ، وأقول : ابترد الحب ، تلاشى ، بل لعله لم يكن حباً . سمّه ما شئتِ . ولعل غلوريا وحدها ، أو أخيراً ، ستضيء سرَّ سعدا وسرَّ وداد ، كما أضاءت هبة عمار سرّ سعد أيوب : هل زدتني عتمة ، أم زدتكِ عتمة ، أم .. ؟

هبة : أحبك .

قرطبة

"وأنت على الزمان مدى اقتراحي .." .

ابن زيدون

. . سوى الطويلة الغيداء والرقيقة السمراء والعتيقة الأدماء والبربرية العجزاء واللعساء، ثم صرت لا أرى فى غيابها إلا القدود المهفهفة والألسن العذبة والأوساط المخصّرة والأصداغ المزرفنة والعيون المكحلة. وليست إذن غلوريا وحدها، حتى تقول مديحة:

– غلوريا صغيرة ومريضة، وأنت عابر سبيل. انتبه يا سعد.

– على كل حال أنا ذاهب إلى قرطبة.

قلت، لأخفف عنها أو عنى، ولم أذكر تاتيانا. وسرها أنى سأزور الأندلس أخيراً. وأخذتُ بنصحها تحاشياً لغلوريا، وليس فقط لأنى شُغْلتُ بتاتيانا.

لكن غلوريا ظفرت بى أخيراً فى الثامنة صباحاً، فى كافتيريا السكن الجامعى، وغبطتها تهزج:

– باركْ لى. قبلونى فى مركز التجارة والاستثمار. عمل ممتاز.

وراحت تترنم:

– متخصصون فى التجارة الدولية: الزيت الأندلسى، عصير الفواكه الأندلسية، البلاط والبطانيات والملابس والأحذية والجلود ومواد البناء، حتى الصابون. وفى أول الشهر سأبدأ. مطلوب وكلاء فى البلاد العربية للزيت الأندلسى. لماذا لا تكون أنت الوكيل الوحيد؟

– لأن الزيت فى سورية مثل الماء قبل سنوات الجفاف. وبعد مائة عام، عندما سنحسن التسويق، إن شاء الله، ستكونين الوكيلة الوحيدة فى إسبانيا للزيت الشامى.

قلت، وسألتْ كطفلة تتخابث أو تتآمر:

– ألا يستحق العثور على عمل احتفالاً؟ على الأقل لمثلى؟

فأخذتنى النخوة، ونسيت نصح مديحة، وصحتُ:

– سأقيم لك احتفالاً مشهوداً.

– بل أنا سأقيم الاحتفال، ولكن بحضورك.

قالت بصوتٍ عارم، ووضعتْ يديها على كتفىّ ـ كنا الآن واقفين ـ ودنا جبينها من جبينى، وهمستْ:

– ما الذى جعلك تتراجع فتزور كورتوبا؟

لقد أخبرتها مديحة إذن، ووجدتنى أقول:

– أنت.

وكنتُ أعنى تاتيانا التى ما إنْ لوّحتْ بسفرها إلى قرطبة، حتى صحت:

– نسافر سوية.

وعانقتنى غلوريا قائلة:

– سأرافق أمى غداً إلى غرانادا. سنبذل محاولة أخيراً للصلح بين أرتوريو وزوجته. فكرت فى أن ترافقنا. سأكون متفرغة لكَ أكثر مما كنت فى توليدو. خططتُ أن نحتفل بعملى معاً فى غرانادا. وإذا رغبتَ يمكن أن نترك أمى تعود

وحدها، ونتابع إلى كورتوبا، إلى سيفيليا، أو يمكن أن نذهب إلى البحر. يمكن أن نذهب إلى ماربيّا، وترى كيف يعيش العرب هناك.

ملصتُ من عناقها وفكرتُ: تاتيانا تلوّح بقرطبة، وغلوريا تلوّح بغرناطة. ومثل دييغو، حضّني ماريانو ونشأت وألثوثينا وآخرون وأخريات على زيارة الأندلس. وما من أحد هناك ـ وأولهم أنتِ ـ إلا سيقلب شفتيه: خسارة يا سعد! شهر في إسبانيا، ومارحت للأندلس؟

ويبدو أن صمتي طال، ونحن نحوم حول الشجرة العجوز المكلوخة، فأمسكتْ بكفيّ ضارعة:

– اتفقنا.

قلت مشفقاً:

– اسبقيني. سألحق بكِ بعد يومين أو ثلاثة. اكتبي لي عنواناً أو رقم هاتف.

وأسكتتني قبلتها. وليست تاتيانا إذن وحدها من سأرافق إلى الأندلس، حتى يوشوشني نشأت:

– تاتيانا رومانسية، وبئرها عميق. انتبه يا سعد.

* * *

وها نحن، تاتيانا وأنا ـ بعد أوتيل منفيس بليلة ـ في أوتيل جران فيا، ولكن وحدنا هذه المرة. وبعد أوتيل جران فيا بليلة، ها نحن في عتمة القطار ـ البئر: حبل أودلو هما أنا،

وتاتيانا ترخي، وإسبر يشد، وإسبر يملأ، وتاتيانا تكبّ، وتاتيانا تشد، وإسبر يرخي، وإسبر يكب، وتاتيانا تملأ، لتستوي الحكاية بسرّها: هذه الزبونة المعروفة في أرقى أوتيلات موسكو، يجتذبها الآن صديقها الأسبق إلى أوتيل اسماعيلوفا، ويمسد شاربيه: صيد ممتاز.

وتاتيانا ويوري يتهامسان الآن، ثم يلتقيان في صالون أو في مكتب مع غيليل أو مع بونفيلد: إسرائيليان، الأول من أصل داغستاني، والثاني من أصل تركي. وفكرتُ في غلوريا وفي ديفيد الذي صار إسرائيلياً من أصل إسباني، بينما تاتيانا توقّع عقداً بالعمل في ملاهي عمّان أو تل أبيب: نتكفّل بكل شيء، ونستعيد ما ننفق بالتقسيط: فقط ٢٠٪ من الدولارات الموعودة، وبعد التسديد أنت حرة. أما الدخل اليومي، فلن يكون أقل من مئة دولار!

صدقتُ مثل تاتيانا أنها خلال سنة ستكون قد سددت الدين مهما بلغ، وستصبح حرة: أنتِ تتكلمين الفرنسية والإسبانية، وتعرفين من العربية ما يكفي. ستتقنين العربية والعبرية بسرعة. وأنتِ جميلة وترقصين وتغنين، ويمكن أن يكون دخلكِ مائتي دولار كل ليلة. خلال سنة سيكون رصيدك أكبر مما ستحصّلين من أي عمل في روسيا كلها، طوال عمرك.

لكنّ مسّاً أصاب تاتيانا في القاهرة، لذلك تشاطرتْ:

خذوا ٣٠٪ من دخلى. وفى بيروت قلتُ لهم: خذوا أربعين. وبعدما هربتُ من إسبر قلت لهم: خذوا خمسين بالمئة، خذوا.. لكننى نمتُ فجأة، وحين أفقت وجدتُ نفسى فى الغردقة التى أغدقت علىّ أول مرة دولاراتها، واختطفتنى هذه المرة: لا جواز سفر ولا نقود. لا شيء سوى الصداع الذى يبكينى.

بكيت عندما أجبرونى على المشى فى الليل، وعندما ركبتُ رانج روفر فى الصحراء، وعندما قالوا لى : دخولك إسرائيل غير شرعى. وعندما نمتُ فى خيمة، ورأيت بدوياً لأول مرة، لم يكن قد بقى فى عينىّ دموع.

وحين أفاقتْ وجدتْ نفسها فى غرفة نومها فى شقتها الدمشقية، سوى أن الشقة صارت فى تل أبيب: أنتم عصابة - صاحت - وسأفضحكم فى تل أبيب، وفى الدنيا كلها، سا.. وضربونى، وبكيتُ، ونمتُ حتى أفقتُ على ألكسندرا: نفذى ما يطلبون يا مسكينة، واصبرى.

ونفذت وصبرتُ: علمونى المسّاج، ومن أدلّكُ له لا بد أن يتبعنى إلى الشقة. وبلغ دخلى فى اليوم الأول مائة وستين دولاراً، وصارت حصتى من الأربعماية أربعين، ومن الخمسماية خمسين، والخروج من الشقة دائماً تحت الحراسة. الهاتف نفسه تحت الحراسة. وتاتيانا صارت خلال أسابيع من أشهر وأغلى عاهرات تل أبيب. وبعد أسابيع صاروا يدللونها:

الإجازة الأولى - تحت الحراسة طبعاً - يوم بطوله فى القدس، والإجازة التالية يومان فى إيلات، بلا حراسة - ظاهرة على الأقل.

* * *

انقطع الحبل، وسقط الدلو فى قاع البئر - القطار الذى غدا هذه الغرفة وهذين السريرين وهاتين الحقيبتين وهذا الرهق وهذا التناوب على الحمّام، وهذا الصمت الذى تُلْغزه نظرة مباغتة أو ابتسامة مبتورة أو .. الحوصان.

لذلك - وربما لسواه - رحتُ أتعالم وأتحدث مما أرى رأى العين فى ليل قرطبة الأقمر: ابن رشد الذى شهد عليه مائة شهيد، منفى إلى أليشانة - كم تبعد عن هذه الكنبة؟ - مثل ابن يعيش، لكأنه ليس أول من تنبه للسفع الشمسية، ولم يكتب الكليات ولا فصل المقال، ولم يرد على الغزالى، ولم يكن قاضى إشبيلية قبل قرطبة، أو كأنه لم يكن معلم أوروبا، ولا بطلاً ليوسف شاهين.

ولا بد أنى صدعتُ تاتيانا بمتنبى المغرب ابن هانئ المولع بالمجون ولعه بالفلسفة - تراه أغضبَ الفقهاء بذلك؟ - وابن مسعود الغسانى الذى جاء من بجّان - بلد دييغو: كم تبعد عن هذه الطاولة؟

– لسعد تحريماته وتحليلاته على هوى إيمانه الخاص. هو مثلاً يحرم على نفسه حلال صديقه: صديقةٌ كانت أم زوجة.

وهممت أن أرد :

– تاتيانا الآن ليست صديقتك يا صديقى، ولا زوجتك ولا . .

لكنها جلستْ على حافة الكنبة التى ظللتُ مربوطاً بها، وقالت :

– دوختنى بحكايات أجدادك وبتمتمتك. لا تظن أنى جاهلة بتاريخ أسبانيا. لا تنس أنى أجيد الإسبانية أكثر من العربية بكثير. وعلى كل حال للحكاية والأجداد والتمتمة صلة وثيقة بالسحر.

ورنوت إلى أصابعها وهى تداعب الكأس، ثم رنوت إليها وهى تتابع :

– فى أوتيل منفيس، فى أوتيل جران فيا، فى القطار أيضاً، أخذنى السحر، ولولاه ما رقصتُ، ولا حكيت لك ما حكيت. لولاه ـ أنت نفسك ـ ما كنتَ معى الآن.

وأنامتْ كفها على رأسى، وخُيّلَ إلى أنها راحت تهدهد :

– لا تغتّر يا سعد بما أنت عليه. جرّبْ أن تكون طفلاً. الطفل ساحر عظيم. أنت غنيت مع إسبر فى غرفتى فى الشام. نسيت؟ غنيتَ مع نشأت. أنت تغنى وتكتب الرواية. هذا من السحر أيضاً، مثله مثل الحب، مثل هذه الكأس.

ونهضتْ ويممتْ إلى النافذة، وتبدل صوتها :

– أظن أنك ساحر فاشل ومسحور فاشل. ينقصك الكثير

من السحر. أنت أيضاً فاشل فى إبطال السحر. وكل ما تحاوله منذ خرجتَ من الحمّام لن ينفع. أنا الساحرة تاتيانا.

والتفتت نحوى آمرة :

– العبْ معى حتى تسلم.

* * *

هبة : قولى لإسبر : مثل السحر الحلال هو اللعب الحلال. لذلك ظلت تاتيانا تشرب حتى أغفتْ، وأنا مربوط بالكنبة. وفى الصباح الباكر كان كابوسها فى تل أبيب قد تبدد، لأن ألكسندرا كانت قد أسرّت إليها :

– سأقضى الليلة مع إيساك. لا تخبرى أحداً.

ولم يثنها تحذير تاتيانا من عقوبة هذا التمرد، وإن يكن الزبون المدلل هو إيساك الصحفى الذى أدمن ألكسندرا أو أدمنته، قبل أن يهاجر من موسكو إلى تل أبيب، وقبل أن تُختطف هى من موسكو إلى تل أبيب نفسها.

صباحاً لم تعد ألكسندرا. غير أن إيساك حضر ظهراً كعادته ـ كان حضوره فى الليل نادراً ـ وغمز تاتيانا، وألحّ فى طلب ألكسندرا، ثم رضى أن يستعيض عنها بتاتيانا المذهولة والمتشككة والمغتاظة. وبدلاً من أن يضاجعها، بشّرها بعودة ألكسندرا إلى موسكو، وقال :

– أخيراً تجرأتْ وأخبرتنى بكل شىء عنها وعنك، عن الجميع. وإذا أردت أن تلحقى بها فالقنصلية الروسية

تنتظرك. سأحضر غداً وأدعوكِ إلى العشاء. لا تقبلي إذا كنت تريدين البقاء.

بالطبع عادت تاتيانا إلى موسكو. لكنّ غربةً مبهمة أخذت تفتك بها يوماً فيوماً، فجاءت إلى مدريد. ولم تستطع منذ أعياد الميلاد ورأس السنة حتى الآن أن تعمل راقصة ولا عاهرة. ولولا نشأت لسافرت إلى باريس تجرب حظها، وهو من دبّر لها عملاً في فرع أحلام تور في قرطبة: أهلاً بك إذن في حمى ديفيد، وناديتُ غلوريا لتحذرها من فخ جديد يطير بها إلى تل أبيب: ستكون روحة بلا رجعة هذه المرة.

لكن تاتيانا الساحرة التي صارت خلال شهر أفضل دليل سياحي في قرطبة، ترميني الآن بسحرها تحت المطر، فأغرق مثل ذقن ابن حزم الرابض وسط هذه الساحة في التمثال، يعد الخطى بين بيته هنا والمسجد هناك ـ أين هما؟ ـ كما أعد الأحجار التي تبلط الساحة.

أشفقتْ عليّ تاتيانا، فأرسلت الشمس تجففني، مثلما يجفف ابن زيدون الآن شعر ولاّدة في هذا التمثال الذي يكذّب عشقهما، ويصدق الفصم. ومثل خوف تاتيانا المبهم، ركبني خوف مبهم، فرمحتْ بي ورمحتُ بها إلى جبل العروسة، وصرنا مثل الزهراء: معاهد تصافحها يد العبر، وتناوحها لعبات الطير، وبعد الزينة راحت سدى، وأسستْ مسرحاً للبوم وملعباً للصدى: بركة الزئبق ـ أين هو وأين هي؟

ـ وشعاعٌ فردٌ ينعكس ملء قاعة مكسوة بالذهب والفضة والعاج والأبنوس والرخام والزجاج، وتضيعني تاتيانا في غابة الأعمدة المرمرية الرشيقة مثل ساقيها، وأضيعها في الشمس البازغة من قوس مفصص مثل خصرها ـ أين ولّى المطر؟ ـ وتلاقيني في فسيفساء قبة، وألاقيها في عناقيد العنب ومراوح السعف التي تزخرف محراباً، وتضيعني في الرواقات المقنطرة والتوريقات والآيات، وأضيعها في بهو البرتقال، وها هو المطر قد عاد يرش بسحرها النهر والجسر، فتتخطفني بين باب إشبيلية وباب المدوّر، وتشلحني أمام القلعة الحرة، أو أمام القصر الكنسي أو في شارع سيسيندس: تاتيانا: المطر أغرقكِ أنتِ أيضاً كما أغرق ذقن ابن حزم وشعر ولاّدة ونظرات ابن زيدون: ناجيتها، فألجأتني إلى المنائر برجاً برجاً، وفي برج ديرسانتا كلارا أرسلت الشمس وجففتني، وفي برج سان خوان أشرعت ذراعيها وأدفأتني، وفي شارع جوستين مورينو صعدت بي إلى برج كنيسة سانتياجو وأمرت:

– أذّنْ لأجدادك، وبعد أن تنتهي اخفقْ بجناحيك. ستطير.

وقبلتني مودعة.

* * *

كان البرد يسكن عظامي وروحي، فملأت البانيو ماءً حاراً، وغطست. وتعرّق جبيني، وربما غفوت، والحمّام يوقّع

لتاتيانا بالدف والغربال والمصافق والأصف والمزهر والعود والكران والشاهين والرباب والمزمار والقيثارة والناى والكوس والكوبة والساقس والطبل والربط والصفار والطنبور والمعرف والشبابة والشيزان والكربج والروطة والقانون والزلامى والشقرة والغورة. وكانوا يدخلون واحداً واحداً، وكنّ يدخلن واحدة واحدة، يتسمّون جميعاً باسم زرياب، ويسحرون تاتيانا وتسحرهم، فلا يصيب السحر سواى وهذا الفضاء الذى غدا عشرات الآلات الموسيقية والحمامات والحدائق والمكتبات والمدارس والشوارع المرصوفة بالحجارة. وكانت الشمس ساطعة، فلما أعتمت، أضاءت قناديل المدينة، وأقبل شاب فى عمر أخى قتيبة أو فى عمر أخيك محمود يسرج زجاج القناديل، فيصير كريستالاً، ثم أقبلتْ كوكبة من الرهبان الآراميين الذين رأيناهم معاً فى مغارة يبرود، وربما سبقتهم أو تلتهم كوكبة من الأرجوانيين الذين تركتكِ معهم فى أوغاريت. وحين أقفر الفضاء واستوحش، أقبل زرياب، يوقّع على وتر جديد لتاتيانا، فتضاعفَ السحرُ حتى بطل، وجفّ عرق جبينى، وصار ماء البانيو فاتراً، فأسرعتُ إلى المنشفة، ثم أسرعتُ عارياً إلى السرير، ودعوتُ الله أن يبعد عنى تاتيانا الليلة أيضاً. ولكى يُستجاب دعائى، فكرتُ فى أن حكايتها غير مقنعة، وأن لها سراً لا زالت تخفيه ـ كما كان إسبر يقول ـ عمّن أحبها، مثلها مثل ألكسندرا أو إيساك،

وربما ديفيد نفسه، وقد يكون الموساد من نسج ذلك كله، فلم يبق لى إلا أن أغادر قبل أن تعود تاتيانا، متأبطاً خوفى عليها، كأنه الحقيبة، وقد كدت أن أفعل، لولا أن زرياب شرع يغنى بايلا، وساحرتين شرعتا تتلونان بلحنه وتتثنيان بصوته، فتهت بين فستان هبة الأرجوانى وفستان تاتيانا، وأخذتْ أزواج الحمام تحط على النافورة وسط الشارع. ولما تلاشى الغناء، تلاشى الرقص وتلاشت أزواج الحمام، ورأيتنى مفرداً أهتف: هبة: أحبك.

"كي أعرف الحب
خرجت من الحب"

وفاء العمراني

كان عبد الوهاب الآن قد انضم إلينا : الشورت ينفجر بفخذيه، وزوجته تدير ظهرها لترضع الطفل، وراغدة تغمز سالم مشيرة إلى جلباب المرأة، وسالم يزورّ، ومطاع يكرع البيرة الفاترة، ثم يسأل عبد الوهاب :

– بعلمي أنك لا تطيق البحر، ولا وقت لديك للاصطياف.

– كرمى للمدام.

قال عبد الوهاب، والتفتت المرأة إليه ممتنة، فخاطبنا مطاع ساخراً :

– صديقي العزيز الدكتور عبد الوهاب أنجز ردته. ولكن إذا كان حكم المرتد فى الإسلام هو القتل، فما حكم المرتد فى الشيوعية ؟

وقلت لأمتص سخرية مطاع :

– أنت لست شيوعياً، فما شأنك ؟

وقال عبد الوهاب مبتسماً :

– مزاح مطاع دائماً سمج. ليس الأمر ردة ولا من يحزنون.

فعاجلته راغدة :

– ماذا إذن ؟

فقال مطاع وهو ييمّ إلى البحر :

– ركوب للموجة. صار التأسلم موجة، فصار عبد الوهاب بحّاراً، مثلما كان مع البيروستريكا، ومثلما صار يلعنها بعدما هدت الهيكل.

– حلوة النطنطة. بسّ كمان لازم الواحد يرسى على برّ، لازم يقعد على خازوق.

قالت راغدة وهى تقف، وكأنما كنتِ تنتظرينها لتكشّرى وتهمسى :

– قعدة أصحابك ما بتتفوّت !

وركضتِ إلى البحر، فصحت بمطاع وعبد الوهاب :

– نحن هنا لنتشمس ونسبح.

وركضتُ وراءكِ. ولما ملصتِ من محاولاتى لغطس رأسكِ، ولحقتْ بنا راغدة، عدتُ إليهم، وكان مطاع يغرغر بما تبقى من البيرة، وأخذ سالم يلوح لراغدة التى كانت الآن تخرج من البحر. وفكرتُ أن هذه فرصتى للظفر بكِ وحيدة، فجريتُ نحوكِ، فلاقيتنى - حزرتِ ما بى - وجريتِ نحوهم، ولبثتُ ألملم خيبتى، وأبلع حنقى، حتى إذا عدتُ كنتِ تقولين :

– التاريخ مستويات، فى الزمان وفى المكان هو مستويات، وليس وقائع متسلسلة.

– الله الله !

هللتُ لكِ، وكبّر مطاع، ولحق سالم براغدة التى كانت الآن تلعب بالرمل، وتركتكِ تتابعين فى الطاقة غير التعاقبية للذاكرة، وعبد الوهاب يذكّرك بإدوار سعيد وبغيره، ولبثتُ أتهجّى القطرات اللائبة على جسدكِ، فلولاها ما استطعتُ أن أقول :

– للسلطة، أى سلطة، سردها الرسمى وسردها غير الرسمى،

ولا أستثنى الرواية. ولكن بالطاقة التى تذكرين، وبالملكة البصرية، كما يريد إدوار سعيد وغيره، يقوم سرد آخر ومعنى آخر. وتنكتب رواية مختلفة.

– الله الله!

هللت لى: واحدة بواحدة، وكبّر مطاع، وقال عبد الوهاب:

– أنتَ تعنى الفوتو مونتاج.

فقلتُ:

– أنا لا أعنى أسلوبية بعينها، ولا أحب عباراتك الفخمة. أنا أعنى الرواية التى لا تنكتب بروح سلطة، أى سلطة، لا سلطة نقد ولا سلطة فن ولا سلطة أيديولوجيا ولا ..

فقال مطاع مقاطعاً:

– سعد لا يمكن إلا أن يجر الكلام إلى الرواية.

فقلت:

– كما تجره أنت إلى الحداثة، وكما يجره عبد الوهاب إلى العقلانية.

ولأن صخب راغدة وسالم علا، التفتُّ نحوهما وتابعتُ:

– وكما يجره سالم إلى الفن، وتجره راغدة إلى الديمقراطية.

ثم دنوتُ منكِ وهمستُ:

– بل كما تجره هبة إلى الحب.

لكنكِ كنتِ لا تزالين حيرى فى أمرى، فانتظرتُ حتى غادر عبدالوهاب وزوجته، وخلت الشالية بنا أخيراً لحظة واحدة، ورأيتنى

أمسح برموشى قطر الماء عن الشامة والخد، آوى إليكِ وتأوين إلىّ، ونخرج إليهم، وفى اليقظة كما فى المنام، أزفُّ الأرجوانية إلى عزلتى ـ بيتى فى الضيعة: هذا مقام أبى الليث الكتانى، هذه سنديانته، هذا بيت سعدا ـ متى أجرؤ على أن أذكرها أمامك؟ ـ وهذا قبر أبى ـ متى أجرؤ على أن أرى قبر سعدا؟ ـ وهذا بيت جدى، وهذه مكتبتى، وهذه هى الشرفة التى سنتحلق على أرضها حول كؤوس العرق، بينما يمددك الرهق والنعاس، فتديرين ظهرك إليهم، وتتسلل أصابعى من عنقك إلى شفا نهديك: لماذا إذن ظل مطاع مرابطاً، بعدما اختفى سالم وراغدة؟

ستخمنين فى الصباح أن السكر جعله يتعتع لك برغبته ـ بينما كنتُ أهيئ سريرك ـ أو جعل كفه تمسح على شعرك عندما كنتُ أقترب منكما وسط الصالون. وستبررين ما فعل بأن لا أحد يجزم حتى الآن أن سعد وهبة باتا عاشقين، على الرغم من أنكِ لم تعودى حيرى بأمرى. وسأتواطأ لأنسى، وسأنسى، وسأظلَ ممعناً فى النسيان، لولا أنه فى لقائنا الأخير فى حلب، زعم أن ..

نعم، مطاع يغبُّ العرق غبّاً. وحين تنتصف الزجاجة يبدأ سكره. ومطاع لا يعد سكره حلالاً إذا لم يستوف ساعات عمله العشر، على الأقل. ومطاع لا يُعرَفُ هذره من جده، حين يتعلق الأمر بامرأة. وقد يذكّر بمظهر العبدون، لكنه نقيضه فى السياسة والثقافة والصداقة و.. وفى المرأة، وقد يفسر ذلك زواجه وطلاقه وصداقته مع مطلقته. لن أشرح، ليس فقط لأنك تعرفين مطاع جيداً، وتعرفين

مظهر جيداً، بل لأن مطاع زعم أن ..

كانت دعوتى إلى إسبانيا قد تأكدت قبيل لقائى الأخير به. وكنتُ منذ سباتك أجهر أمامه بعكر الحب وارتباكه. ولكنى منذ بداية اللقاء بالغتُ فى ذلك. وفجأة، أومض لى يقين بأن له سراً معك، فانتظرتُ سكره، لكن السكر عانده، فعدتُ إلى ثرثرتى عنك وعنى، وذكرتُ لأول مرة زَعْمَ مظهر عن علاقة معك، وزعمك عن العالم الأميركى، وكنتُ أعى وأنا أثرثر أننى أهيئه ليعلن سره معك.

كنتُ واثقاً من أنه سيرقّ ويسلس ويشفّ ويبوح. وهكذا زعم أنك زرته هنا فى بيته، وأنه كان لا زال يشكو من ذيول الطلاق ومن زكامٍ حاد، وأنكِ نمتِ فى هذه الغرفة، حيث سأقضى ليلتى، وأنه نام هنا على الصوفا، فى الصالون، وهو يقلّب فى جزء من ألف ليلة وليلة. وزعم أنه فتح عينيه فى التاسعة أو العاشرة ليراكِ حادبةً عليه، تطمئنين على صحته، وأنه أحسّ بالعافية، وأن الراديو أخذ يرسل أغانى بهيجة، وأنكِ جلستِ على حافة الصوفا، وأنت تقلبين فى ذلك الجزء من ألف ليلة وليلة، ثم أخذتِ تقرأين الحكاية التى ستلهب جنبيه وتلهب صوتك، وستجعل كفه تمسح على شعرك، وكفّكِ تمسح على شعر صدره، ثم تلاقين الأغنية التى سترفّ بفستان نومك الأرجوانى، ويغنج لها خصرك، لكأنك تطلعين من دفتى ذلك الجزء من ألف ليلة وليلة، وتسكبين أنفاسكِ على الرجل المسحور، تعرينه من ثيابه وتدثرينه بالفستان الأرجوانى، ثم ..

ثم زعم أنه هتف لكِ من حلب بعد يومين أو ثلاثة، يستعيد سحرك، لكنكِ قلتِ بجفاء:

- أنا أحب صديقك سعد. أنت تعرف.

- وذلك الصباح إذن؟

زعم أنه سألك، وأنكِ قلتِ ببساطة مريعة:

- كان يا ما كان.

ولأن بقية الليل والغرفة التى نمتُ ـ نمتِ فيها فغرتا مغارةً، لم أغفُ ولم أصحُ، مثلى الآن فى هذا الليل، وفى هذه الغرفة، وفى هذه المغارة المدريدية، ولعلى لن أغفو ولن أصحو حتى تزعمى أن ما زعمه مطاع قد كان حقاً أو لغواً، وعندئذٍ ..

ستنام أم ستموت؟

"أنا قصيدة حب
كانت سبباً
في سقوط العرب من الأندلس" .

نزار قباني

. . إذ استقبلتنى غلوريا بالأحضان فى المحطة، ومنها بدأت الاحتفال: غنتْ لخوسيه فيرناندز، وتغنتْ بنسب غجرى مشتهى، قبل أن نبلغ البيازين.

فى ظل نخلة مقشرة ولابدة خلف حائط مقشر، ويضيئها الفانوس، توقفتْ وأنشدتْ كقشتالية أصيلة:

لو تقبلين يا غرانادا

لتزوجتك

فلم أصدق أنَّ أحداً يمكن أن يحب مدينته مثل هذا الحب. ولكنى قلتُ أيضاً:

– لو كان القشتاليون يحبون غرناطةً كل هذا الحب، لكانت لهم غير هذه الأمنية.

وتذكرتُ ما غنته غلوريا فيما قرأتُ من مخطوطة ترجمة رفعت عطفة البديعة لرواية أنطونيو غالا: المخطوط القرمزى. وقالت غلوريا:

– رأيت غالا يوقّع على رواية (الوله التركى) فى لوسينا.

فخشيتُ أن ينغّص عليّ ذكْرُ ديفيد رفقتها، وكتمتُ ما كنتُ أود الإشارة إليه فى رواية (المخطوط القرمزى) من اجترار غالا للعبة العثور على مخطوط، ورحتُ أرمق النخلة، فقالت غلوريا كأنما تناجى نفسها:

– عاشقة. هى عاشقة مثلى، وأنا عاشقة مثلها.

ثم تهدل صوتها:

– انظرْ: كم هى بائسة، وأنا . .

ولم تكمل عبارتها، فوجدتنى أخرّف وأدعى أنها ـ النخلة ـ كانت فى البصرة قبل أن تبدأ الـ F52 بالقصف فى الساعة صفر وعشرين ثانية من حرب الخليج، فانقذفت النخلة إلى البيازين، وكانت فى غاية حسنها وطيب رطبها إلى صباح قريب، ثم فسدتْ حتى شيصتْ، فدعا صاحبها شيخاً من البصرة نجا من الـ F52، ويعرف النخل، فنظر إليها وإلى ما حولها من النخل ـ كذلك فعلتُ، وتبعتنى غلوريا حتى رأينا غير بعيد نخلاً كثيراً ـ فقال: هذه عاشقة لهذا الفحل ـ وأشارت ذراعى شرقاً ـ فلقحتْ منه، فعادت إلى أحسن ما كانت، أما أنتِ يا غلوريا . . ولم أكمل عبارتى، فالتفتت عنى، ثم جرتنى خطوة فخطوة، فأدركتُ أنها فهمتْ ما يكفى وما لا يكفى، فتعجلتها إلى الأوتيل، لكنها سبقتنى إلى بيت أرتوريو، وترقرق صوتها:

– هذا أخى ارتوريو، وهذا صديقى سعد.

وتمنيتُ لو أنها قالت:

– وهذا أخى سعد.

وباغتنى أرتوريو:

– لماذا الأوتيل؟ أنا وحدى فى البيت.

فأدركتُ أن ابنة خاله ـ زوجته قد غادرت البيت بلا رجعة، وأن أمه قد أخفقتْ فى رأب صدع الزوجين، وعادت وحدها إلى مدريد،

وسيلحق بها أرتوريو قريباً، كما جزمتْ غلوريا في لقائنا الأول.

والآن يا أرتوريو، سأغادر الأوتيل لأتظلل بالسرو الذي يسوّر بيتك، مثل السرو الذي يسوّر بيتي ـ عزلتي في الضيعة. سأندغم في الخضرة القاتمة ملء الشرفة والصالون. سنتعشى ثلاثتنا، ونشرب النبيذ حول الطاولة المدوّرة. سنتفرج على التيلفزيون مثل شفيع ابن مديحة، ثم تودعك شقيقتك، وأودعك، لتقضي الليلة لدى صديق أو صديقة، كي تفسح لغلوريا وصديقها.

لكنني يا أرتوريو شقيق غلوريا أيضاً، وهي شقيقتي وداد، وليست سعدا ولا أية امرأة أخرى إلا إن كانت غلوريا حقاً. لذلك سأهدهدها حتى تغفو. وسأحل محلك في غرفتك، وأسهد بانتظار أن تفصل بيننا باكراً جداً على تل السابقة، تتوسطنا وتدفعنا أمامك وتلحق بنا ونحن نمرق من باب الرمان أو من باب لاس جرانادس، ونلهث خلفك بين صفوف الحور والدرداء حتى البسطة أو النافورة أو الساحة، حيث يلاقينا كارلوس الخامس شخصياً في قصره، وماتشوكا شخصياً في فنائه، بينما يشير الشيخ الوحيد الذي بقي في الحمراء إلى مسجده الصغير.

هنا تتركانني وحيداً، فيؤمني الشيخ الوحيد وحدي، ثم يدور بي حول البركة، وسط صفي الريحان. وعندما يأخذني الدوار، تكون قد اشتبكتْ الدوارق والمباخر وسحائب العنبر بالأروقة وشعْر الأفاريز والمثمنات اللامتناهية والتهويمات والفراغات الفاغرة وبُسُط السيراميك، في صالة السفر، فصالة الأسرة، فساحة الأسود: هذا

هو أخيراً معبد سيدنا سليمان ـ يقول الشيخ ـ سوى أنني أبدلتُ الاثني عشر ثوراً التي تخرج من مزاردها الرياح، بهذه الأسود التي تجري المياه من أفواهها إلى جهات الكون الأربع، وجعلتُ نافورة الحياة هنا، فاشرب أيها الإنسيّ كي تخلد كما خلدتُ.

إلا أنني يا هبة لا أروم خلوداً سواكِ، كما لا أروم فناءً سواكِ. لذلك تركني الشيخ ـ كما تركتني أنتِ ـ أترنّح حتى حملتني غلوريا على جناح، وأرتوريو على جناح، وخفقا من صالة المقرنصات إلى صالة الملوك إلى صالة ابن سراج إلى صالة الشقيقتين. ولما ظهرت ضاحية دراكسا، خلْتُ أن تاتيانا تنفث سحرها وترسل الشمس مثل المطر، ثم تجففني في برج البينادوردي لاربينا، وتدفئني في برج لاس داماس، وتضيعني في برج لوس بيكوس، وتلاقيني في برج لاس أنفانتاس: ما الذي جاء إذن بغلوريا؟

كنا الآن على التلة المقابلة وسط جنة العريف: غلوريا ووداد وسعدا وأنا، وكان ثرفانتس يكتب رواية، ومحمود درويش ينشد قصيدة، وكان أرتوريو يجري مبتعداً، فرحنا ـ غلوريا وأنا فقط ـ نسابق الماء والسرو في هذا السبيل الطويل، ثم نعدّ الأصص التي تزنره، ونخطئ العد كلما صادفنا عليه معبراً، فنعبر من ضفة إلى ضفة، وأرتوريو يزمق بغتةً بين مستطيلات الورد، وهبّاتُ الهواء قد أخذت تبترد وتتسارع، فنشدتُ من ذراع غلوريا حمايةً ودفئاً، ورمقنا أرتوريو بغبطة من بعيد، وهتف:

– علينا أن نعود.

فحسبت أنه لا يعلم أننى سهدتُ ـ غفوتُ فى غرفته، وتيقنتُ من أن غلوريا لن تظل تتجاهل الليلة الفائتة ليلة أخرى. وربما كان النهار صار ليلاً أو الليل صار نهاراً حين عبرنا فى طريق العودة بدير سان فرانسيسكو أو بحمّام بانيولو أو بقوس الحدوة. وربما كنا أيضاً قد عبرنا باب الفيرا أو باب فاخالادونا، حيث تركنا أرتوريو، وشكوت التعب والجوع لغلوريا، فاندفعتْ تبحث وسط البيوت الشامية فى شارع أورو ـ أم فى زقاق طالع الفضة؟ ـ عن مستراحٍ وعن طعام.

وبعد لأى، ونحن نغادر البيازين، بحثت عيناى عن النخلة وفحلها، وأكدت غلوريا نسبها الغجرى المشتهى، فصلّتْ لعذراء الغجر الأندلسية، وهى تمشى بدَلّ، فتأخرت عنها، وكانت هبات الهواء تعنف، وقبل أن نصل إلى البيت كانت قد بدأت تسفعنا سفعاً.

* * *

كان أرتوريو قد سبقنا، وأعدّ العدة للاحتفال الموعود بعمل غلوريا. وكما بالأمس، شربت النبيذ، فتأكدتُ أنها تركت الدواء، وتمنيتُ ألا تعود إليه أبداً. وحين أرختْ كفها على رسغى، غدت وداداً حقاً، سوى أنى أكبرها بست سنوات أو بست عشرة، لذلك انتظرتُ منها سعدا، وطال انتظارى حتى اليأس، فسريتُ بها من هذا الصالون إلى برق التلال الخضراء، وصرنا أرجوانيين وعرباً وبربراً وقوطيين ورومان وقشتاليين و.. وصرنا أندلسيين، ورددتُ ما

حفظتُ منها أو من أرتوريو:

– من لم ير إشبيلية لم ير من روائع الحياة شيئاً، ومن لم ير غرناطة لم ير فى حياته أى شىء.

وأقبلت أتهجّى هذا المثل من الثلج الذى كلّلَ القمم وأدمت القصور ببياضه بحمرتها، ثم أويتُ إلى غلوريا، وضمتْ كفى ساعدها، وقبلتُ خدها، فانهمرت قبلاتها ودموعها على جبينى وعينىّ وشفتىّ وذقنى، وخجلتُ من الأخوة ومن الحب ومن وداداً ومن سعدا، فلجأت إلى أرتوريو الذى أعلن وصلةً جديدة من الاحتفال: هو يبارينى بأجداده، وأنا أباريه بأجدادى، وغلوريا تحكم بيننا:

– أنتما شقيقان.

– وأنت؟

سألتُ وَقد أرجأ أرتوريو بقية الاحتفال إلى الغد، وغادرنا، وعتمةُ البيت كعتمة الحب والموت، تفصل بينى وبين غلوريا، وتصل.

ونحن الآن حقاً فى المغارة، وأنا أتلهى عن أى جواب على سؤالى المدوّم، بمن يخطر أو تخطر فى البال، ريثما يضىء النهار لحمة روحينا وفكاك جسدينا، ويتواصل الاحتفال، فأدعو ـ مثلاً ـ حمدة الوادآشية إلى المغارة التى وسعت الآن غرناطة، فتهرع حمدة متأبطةً ذراع حبيبتها ـ ما اسمها؟ ـ وقبل أن أدعو سواها، تلتفت عن حبيبتها ـ أيهما أشهى؟ ـ وتهفو إلى غلوريا.

غرتُ من حمدة على غلوريا، واندفعتُ إلى حضن حبيبتها داعياً

رجالاً كثيرين، فلم يلبنى سوى صموئيل ابن نغريلة، فضحكتْ حمدة شامتة، واحتضنتْ غلوريا قائلة:

– لا يلبيكَ إلا اليهود.

ثم أمرتْ صموئيل، فراح يترنّم بما نظم من القرآن: قصيدة فموشحة فقصيدة، والمغارة ـ هى الآن بالضبط هذه الشرفة المزججة ـ تضطرم: يا غيرة الإسلام! وهوى سيف على عنق صموئيل، فخفت أن يبلغ ديفيد فى أى فرع من فروع أحلام تور أن يهودياً قد قُتِلَ، فلا يكفيه انتقاماً ما بين فلسطين وبلاد العرب والمسلمين والمسيحيين، إلى أن يبلغ غرناطة، وينتزع منى غلوريا. لذلك فضّ أرتوريو الاحتفال، وأمر:

– هيا.

فمشينا ـ فى البداية ـ على وجه الماء الراكد ملء الأحواض، ثم مشينا على وجه الماء الراغط فى نهر خيثيل كما فى نهر آدار: صوت المياه العميق هو صوت الغاب، وهذه الأسراب الخافقة فوقنا: السيتا ـ ماذا بينها وبين الأذان؟ ـ كما سيرتل لوركا لفصحٍ مجيد، والسيد حزين، والعذراء تئن:

في درب الآلام

وقع جلالته

ورفعه هؤلاء الكلاب

وتأوهت غلوريا كأنها صارت عراقية مثل تلك النخلة، فقطع لوركا ترتيله، وصاح بنا:

– هذا هو الأصل: السيتا، والفلامنكو بنتها سفاحاً.

وراح يرمى النهر بلوحة فلوحة فلوحة، وهو يصيح: هذه لبيكاسو وهذه لدالى وهذه لنيرودا. ثم والى رمى النهر بما كتب للقيثارة، فعصفت الريح، وخافت غلوريا كما يليق بالغجرية، لكنها ظلت تمشى على صفحة النهر المصطخبة، لأنها ليست غجرية البتة. واندفع لوركا يلاقى قيثارة ريخنيوسانيث دى لامازا، وقيثارة أندرياس سيجوفيا، وقيثارة بورسيل، وينادى للغناء شيخ من غنّى: أنطونيو شاكون، وبنت الأمشاط: باستورا بافون، وخوان بريفا، وسلفير بوفرانكونتى، وانبعث الجارجاس بالموريسكية، وتوحدتْ بأزجال ابن قزمان بالزرزويللا: الله الله أوليه أوليه، وهذا الجنى الذى مسّ تاتيانا لا يستطيع تكرار نفسه، تماماً مثل البحر أو السماء حين تجتاحهما هذه العاصفة ويصيران مغارة. لذلك صار لوركا هو الجنى الذى يطوحنا من ميدان سانتودومينيكو إلى كورال الكاربون، ومن شارع الملوك الكاثوليك إلى الميدان الجديد كاربرا ديل دارو، ويأمرنا بالانحاء أمام الدار الحرة: هذه مغارتك يا ستِّى يا أم عبد الله الصغير: إسبانية أنت أم عربية؟

دخلت الآن دار أم عبد الله فى دير سانتا إيزابيل لاريال. ولم يفسح الجنى لأحدٍ أن يكلم المرأة. وراح يبرق من شرفات وواجهات الدور البيضاء إلى بساتين البرتقال وكروم الزيتون وحواف الدفلى، حتى بلغ حلبة المصارعة: إلى هنا فقط تأتى وأنتَ متيقن من رؤية الموت المسحور بهذا الجمال.

قال لوركا، وحسبته يعنيني، فناديتُ دييغو، ورمقتُ غلوريا، ورمتُ أن أناديها: أختي، حبيبتي، لكنني خرستُ، وهي انكفأتْ، فبتنا متخاصمين، وصحونا ..

* * *

أعدّت الإفطار صامتة. وأكلتْ صامتة وأنا ألغو مداوراً الخصام والوئام، حتى إذا قلتُ:

– ستأتين إلى الشام، وستعرفين لماذا سموا باسمها غرناطة.

حدقت بي ملياً، ثم جاء صوتها نقياً وشجياً:

– لماذا يا سعد؟

تجاهلتُ مرماها، فكررتْ مبتسمةً:

– لماذا يا سعد؟

أمعنتُ في التجاهل، فنأى صوتها وابتسامتها، وهي تقول:

– أنتَ لم تذكر هبة أمامي إلا في توليدو أمام خالي. نسيتَ؟ أنا أقدر وفاءك، وأقرأ شوقكَ إليها في عينيك وأنفاسك وحركاتك. أرجو ألاّ تكون ظننتَ أني أحاول أن أحلّ محلها.

– لالا.

همستُ مبلبلاً.

– ربما أحببتكَ يا سعد. أحببتك وأنا أعلم أنك تحبها. أحياناً لا يحتاج الحب إلى وقت طويل حتى يولد أو يموت. أظن أيضاً أنك أحببتني، أو .. على الأقل، اشتهيتني. أنا واثقة أنكَ لم تضاجع امرأة منذ وصولك إلى إسبانيا.

– إطلاقاً.

قلتُ مندفعاً، فعادت إليها ابتسامتها، وعاد صوتها نقياً وشجياً:

– فكرتُ أننا يمكن أن نقضي معاً أياماً حلوة، أحلى الأيام، هنا في غرانادا أو هناك في مدريد. اسألْ مديحة. فكرتُ أن آلاف الكيلومترات بينك وبين هبة ستساعدنا نحن الاثنين. هل ضاجعت امرأة غير هبة بعدما أحببتها؟

– لا.

– ولم تشته؟

– بلى. اشتهيت كثيرات. في لحظة ما اشتهيتكِ أنت.

– ولجمتَ نفسك.

– لا.

– لا أفهم.

– ولا أنا. لا أظن الأمر يحتاج إلى فهم. هو يجري هكذا. في عزلتي في الضيعة يمور اشتهائي. وربما في حضور هبة يمور، ودائماً في غيابها، ثم أنسى. أحياناً أمارس العادة السرية كما كنتُ قبل أن أحلق ذقني.

– ومارستها بعدما جئتَ إلى إسبانيا؟

– لنفرضْ.

– استحلمتَ؟

– لنفرضْ.

– أنتَ مريض بهبة.

– لنفرضْ.

– هل هى مريضة بك ؟

– ربما. ليس مثلى على الأقل. لا لا. هى ليست مريضة.

– وهل هى فى غيابكَ مثلك فى غيابها ؟

– لا أظن. ربما. لكل إنسان حضوره وغيابه.

– على الرغم من حبها لكَ، قد تأخذها شهوتنا إلى غيرك. لا فرق بين الحضور والغياب.

– ربما.

– لأنى أكاد أعرفها كما صرتُ أعرفكَ، أنا واثقة من أنها فعلت هذه المرة، أو ذات مرة.

– وأنا واثق. محتمل. لا لا. الاحتمال أحياناً أقوى من اليقين. اليقين أقوى دائماً.

قلتُ، وطأطأت مرتبكاً، فوضعتْ كفها على كفى، وضغطتْ هامسةً :

– كما كنتُ مريضة، يمكن أن تكون مريضاً. لا أقصد بهبة فقط. أنتَ ساعدتنى حتى تخلصتُ من الدواء، وربما من المرض، على الرغم من أن مديحة خائفة من أنك قد تضاعف مرضى. وقد حذرتنى. هل حذرتكَ أيضاً ؟ بودى لو أساعدك حتى تتعافى. لكنى لا أعرف ما علىّ أن أفعل، وقد لا أكون قادرة.

وأسرعتْ إلى الغرفة التى نامت فيها وحيدة أمس. وأحسستُ أننى بالغ الهشاشة، وأن صدرى يضيق بخفق قلبى. ولبثتُ معلقاً

حتى عادت بضحكتها التى نسيت، وكانت تحتضن لوحة، فتنهدتُ ووقفتُ، ولما حاذتنى قالت :

– هذه نسخة عن لوحة الحب التى رسمها لوركا عام ١٩٣٤ . هل رأيتها من قبل أو سمعت بها ؟

– لا.

نشجتُ وهى تناولنى النسخة، وقالت :

– كانت هديتى لك. الآن هى هديتى لك ولهبة.

وغيبنى هذا الجسد الذى يونع بوجه هذه المرأة الجنية ووجه هذا الرجل الجنى اللذين أبدعا لوركا وأبدعهما : ما الفرق ؟

ولما صحوتُ، كان الجسد قد صار لإنسىّ من امرأة ورجل، وكان وجه الرجل قد صار قناعاً يسقط عن وجه المرأة، وكانت غلوريا قد اختفت.

هبة : أليست المرأة أيضاً قناعاً ينبغى أن يسقط عن الرجل ؟

هبة : أحبك.

كأنه سبات، كأنها أحلام أو كوابيس

"الرحابة المفتونة بأسى العقل، الهذر المنطقى، الحيرة كنسيج لمخاطبات هادئة، القنص الساهر على ثغور اللغة، الفكرة فى تدرّج من نعاس إلى آخر، اليقين الباحث فى دأب القوارض عن ثغراته، المُشْكِلُ المعلوم كعذاب - ذلك هو التأويل الذى يمنح الغيب سطوة باذخة فى التأكيد على غيابنا"

سليم بركات

. . بل تلك هى هبة مستلقية على الطراحة الملونة تبتسم كأنه ليس سباتها، وأنتَ تتهيب النظر إلى يسراها المرخية حرداً منها بل حرداً منك، وابن باز الثانى أبوها يدعو لابنته بالشفاء، وابن باز الصغير أخوها يقدم الشاى ويلبد بل، يتلصص عليك أو عليها فتصدّق أنه يفتش فى حقيبتها وأنه قبض يوماً على ورقة صغيرة ومدعوكة وقرأ ما كتبتْ لكَ على الوجه وما كتبتَ على القفا، ولما ضاق بسرّه رماها، به ثم رمى به أباه وشقيقه الأكبر وأمه وشقيقتيه فرماها سرٌّ أكبر فى هذا السبات الحالم المكوبس، واحتار طبيب فطبيب فى وجنة تختلج ووجنة تتيبس وذراع تحرد وروح ترتمض: ماذا أصاب هبة إذن؟

يسأل سعد طبيب الأمراض العصبية عليّ القيرونى، ويستنجد بمديحة عندما يتقمص على طبيباً فطبيباً من بداية صيف إلى نهاية صيف، وتقول هبة مطمئنة:

- بنعمة النسيان عوفيتُ.

ويقول سعد بقلق لا يبارحه:

- بالإرادة المستعادة عوفيت.

وكأن سباتها قد أصابكَ فهل تبدأ تحاول أن تتعلم منها ومن سواها كيف تبرأ، أى تبدأ كى يصدق نشأت أن المستقبل يشغلك، وأنك قرأت رواية صدقت نبوءتها فى تكنولوجيا المعلومات منذ بدأت التليسكرين تستقبل الصور وترسلها عن بعد كيلا يفوت أمر

من أمور هبة هذا الشقيق الأكبر وليد، بل هذا الشقيق الأصغر محمود، بل هذا الأب الرؤوم ابن باز الثانى نفسه، فيطبق السبات على المملكة الشمولية أسرة فأسرة وترتعش فيها وزارة الصدق ووزارة الحب وسعد أيوب مثل هبة عمار يكذب نبوءة جورج أورويل، ويصدق نبوءة هكسلى أو أندرسون أو إيريك بثورة التكنولوجيا الحيوية، فلا مرض من بعد ولا اكتئاب ولا جنون ولا وحشة ولا قراءة ولا دين ولا أسرة بيولوجية، أى لا أسرة لهبة، بل عقاقير تقوّم سلوك ابن باز الثانى وشبله الصغير، وتبدل فى إدراكهما وتشيع السعادة ملء الكون وطوال الحياة، فيحتار طبيب الأمراض العصبية المدعو عليّ القيرونى فيما إن كان قد بقى له شغل أم إنه وحده من له الشغل لذلك تقرأ مديحة مشروع الجينوم البشرى، وعندما تأتى عليه يمتلئ عليّ القيرونى بحبها وينسى أنه هارب من جحيم الجزائر وينسى نشأت رجب معاهدة كيوتو والكومبيوتر والانتقال من القرن العشرين إلى القرن الحادى والعشرين أى من الرقم ١٩٩٩ إلى الرقم ٢٠٠٠ كما ينسى الاستنساخ ولا يعيّر سعد أيوب بانصرافه مثل أى كاتب عربى عن المستقبل بل ينصرف هو تماماً إلى البحث عن تاتيانا التى تتمرغ على صدر إسبر فارس الشامخ بالبذة العسكرية مثلما كان فى حرب الخليج العالمية الثالثة وهو يواجه ٤٣٠٠٠٠ عسكرياً أمريكياً و ٢٨٠٠٠ عسكرى بريطانى و ١٣٠٠٠ عسكرياً فرنسياً و ٤١٠٠٠ عسكرياً مصرياً و ٢٥٠٠ دبابة أمريكية و ٢٠٠ دبابة

فرنسية و ٦٥٠ دبابة مصرية و ٢٥٠ دبابة سورية و ١٨٠٠ طائرة أمريكية وحين يعجز عن عدّ ما تبقى يلتفت قلقاً مرة وفياضاً بالحماسة مرة، ليعدّ على أصابع يديه مليون عسكرى من العراق و ٣٠٠٠ مدفع و ١٠٠ صاروخ أرض أرض و ١٠٠ بطارية سام ٢ و ١٠٠ قاذف صاروخ، وينتشى ببطاريات سام ٣ وسام ٨ وصواريخ هوك التى غنمها العراق من الكويت، وفيما هو يعدّ ترضع تاتيانا أصابعه وتمرق الصواريخ العراقية فوق رأسه لتضرب تل أبيب نفسها ويهلل، سعد أيوب فارقصى يا تاتيانا على صدر إسبر فارس الذى تعرّى من البذة العسكرية ونسى عهده فى موسكو ووفاء زوجته وصبرها طوال بعثته، وعاد ليعشق راغدة ويعلمها السلاطة الروسية، ثم نسى راغدة ليعشق الراقصة الروسية، ثم نسى تاتيانا ليعوض زوجته عما فات، لذلك لن يحدثه سعد عن ليلة أوتيل منفيس، ولا عن تاليتها فى أوتيل جران فيا، كى يصدق قسم تاتيانا على أنها أحبتْ إسبر فارس كما أحبها، وأنتِ إذن لم تقولى له الحقيقة، ليس لأنه كان ضابطاً بل لأنكِ كنت خائفة من الحب، فأنا لم أدرْ ظهرى لكل ما فى روسيا من كرسندار إلى موسكو من أجل قصة حب، مع إسبر فارس أو غيره: كم ستدوم القصة يا سعد؟

سنة؟

سنتين؟

ثم نتزوج ثم يبحث عن غيرى، كما بحث عن غير راغدة، ثم يتركنى كما ترك راغدة لهفان إلى زوجته، وتكون أنت قد شرحتَ

له فالرسائل لا تنفع، وأنا أئتمنك، فليطمئن مثلك ومثل نشأت، لأنى لم أعد أخاف كما خفت فى البداية، ولن، أهرب من مدريد أو من قرطبة كما هربت من القاهرة إلى بيروت، أى أدرت لهم ظهرى فعادوا واحداً واحداً وواحدة واحدة: عليكِ أن تنفذى العقد الذى وقعته فى موسكو، أى عليكِ أن تتبعينى إلى تل أبيب، لكنى تشاطرت وقلت سأفكر، وتجرأت وقلت لا أريد أن أذهب إلى تل أبيب تعالى إذن إلى عمّان العمل موجود، وإن كانت الدولارات أقل فتجرأت وقلت لن أترك القاهرة، وهربت إلى بيروت ونسيتهم إلى أن عادوا واحدة واحدة وواحداً واحداً، وهربت إلى دمشق ونسيتهم إلى أن أعادنى عشقك يا إسبر إلى بيروت، وهم ينتظرون وسعد يصفق: أوليه أوليه.

غلوريا أيضاً رفضت أن ترافق ديفيد إلى تل أبيب، فارقصى الآن كما رقصتِ أمس فى أوتيل جران فيا، أو أول أمس فى أوتيل منفيس، أو ذات أمس فى بيتك الدمشقى، وسأصفق لك كما صفق لك إسبر وكما صفق نشأت وألثوثينا وماريانو فمن التى قالت: الرقص هويتى؟

أنا أسأل وتاتيانا لا تجيب، فينفد صبر طالب السنة أولى هندسة كهرباء ـ إسبر فارس ـ وهو ينتظر البعثة العسكرية التى ستوفر عليه الخدمة الإلزامية، وترميه من حضن إلى حضن ملء موسكو، على الرغم من أنه تزوج فى الإجازة الأولى ـ بخلاف التعليمات ـ ممن كان يجب منذ سنة البكالوريا وقبل أن يعود ضابطاً ومهندساً ملء

اللاذقية كان قد صار أباً، غير أن إسبر ملول أو مصطخب أو طموح أو لا يعرف له مراماً لذلك ـ على الأقل ـ استقال من الجيش وليس فقط لأنه فوضوى أو غير انضباطى أو موسوس أو يعاشر المثقفين وبخاصة المعارضين، وهو الذى استعصى على الماركسية والشيوعية طوال عهده فى موسكو، كما استعصى على غيرهما من قبل ومن بعد، وربما كان ذلك مما مال براغدة إليه بعدما رأتْ من بكين ما رأت وقرأتْ عنها ما قرأتْ، مثلما قرأتْ عن موسكو أو رأتْ منها بعينى إسبر السوداوين المتقدتين، بخلاف عينى سالم البحريتين الساجيتين اللتين مالتا بها إليه وبلسمتا جرح أول رجل عرفته ـ إسبر فارس ـ فبلسمت عيناها الأقل سواداً وأكثر اتقاداً حيرة سالم بين إيمان وإيمان أى بين ماركسية أو قومية أو إسلامية، أو بين حب وزواج ،أو بين لوحة ولوحة: لماذا قضى فى السجن إذن ما قضى؟

كان مطاع أكرم هو الذى لا يمل من السؤال ـ كأنه راغدة ـ إلى أن ضاق بمركز الأبحاث كما ضاق بالجامعة، بل كما ضاق بمطلقته لكأنها هى لم تضق به، ولعله إن ترك مركز الأبحاث فستغدو علاقته به أمتن وأوضح شأنه مع الجامعة بعدما تركها، أو مع مطلقته بعد الطلاق الراضى المرضى لكن هل سيلفظنى مركز الأبحاث إذا لفظه مطاع؟

ما همَّ ما دمتُ قد سددتُ القسط الأخير من ثمن الكولت الغزالة التى تركتها مرابطة أمام بيت سالم، وما همَّ ما دامت غلوريا ستدبر لى الوكالة الحصرية للزيت الأندلسى وهى تسابق الميترو لتؤوب إلى

البيت قبل غياب الشمس ـ أى قبل العاشرة ـ تنفيذاً لقانون منسىّ من عهد فرانكو العربى فمن يستطيع أن يروى ما عاشه بلا زيادة أو نقصان؟

هل يمكن أن يكون ما سيعاش هو فقط ما قد يُروى بلا زيادة أو نقصان؟

أنادى هبة إلى جوابٍ فى عزلتى هنا، أو فى عزلتى فى الضيعة كما أنادى الكتابة لكن مواعيد هبة لى سائبة دوماً، كما باتت الكتابة وفى غيابها الوحشة والغربة، وفى غيابها يهدأ العكر ويفشو الارتباك وتلك إذن الجغرافيا طيب والتاريخ؟

إنتَ بتضحكْ على روحك ليه؟

يسألكَ محى الدين اللاذقانى الآن وأنت محشور فى ماكيت الرياض، ليسألك بعد قليل على شلش، أو أحمد صالح كأنهما لا زالا يحيطان بكَ فى المدينة المنورة وأنتَ تدّعى أنك ستُسْلِمُ نفسك للعمرة بلا حسيب ولا رقيب، كما تُسْلِمُ نفسك للحب أو للكتابة غير أن السؤال يطيشك الآن، إذ يتعلق بهبة، فَوَجْدُكَ على الأقل معتكر ومرتبك، وأنت على الأقل تخدع نفسك، والحق على الطليان أى الحق على الجغرافيا التى تباعدكما دوماً، طيب والتاريخ؟

إنتَ بتضحكْ على روحكْ ليه؟

منذ عمرتكَ المباركة فاض بك التاريخ، فما الذى فعلته بكَ قرطبة بل طليطلة، بل مدريد، وما الذى ستفعل بك غرناطة أو

إشبيلية أو سرقسطة أى ما الذى سيفعله بك الحلم الأندلسى أى الحلم الإسبانى الذى صار منذ خمسماية سنة الحلم الأمريكى، وأنت ترتعد من الحلم الإسرائيلى، وتعلن أمام جيزيل والدكتور أنسى ليعلنا أمام الـ B.B.C أنك ضد الحرب وأنك ضد الجميع وأنك تسأل عن تاريخ آخر عنوانه : هبة : ماضٍ وحاضر ومستقبل، فلو أبدلت كلمة ثورة بكلمة حب فى عبارة إلياس مرقص التى لن تنساها لغدت العبارة، أى غدوتَ وهبة حكاية حب من جهة أى ماضٍ وحاضر ومسألة حب من جهة أى حاضر ومستقبل لذلك صار التاريخ مثل الجغرافيا وحكما عليك بأن تتهجى وأنت تدحض سؤالاً بسؤال، وتجرب أن تبدأ من مغارة فى يبرود أو فى إيبلا أو فى أوغاريت أو أن تبدأ من العمرة، أو من الحرب، أو من عزلتك، أو من وداداً أو من سعدا أو من زهية أو من مظهر العبدون، وقد تبدأ من غلوريا بل من دييغو، بل من مديحة، بل من نشأت، بل من تاتيانا : من حيث تشاء ابدأْ.

من حيث تشاء ابدأْ.

فالبداية تُشكّل ما يليها كما هى درة هبة عمار التى عنونت الحوار الأول لمظهر العبدون معك ومعها، ولكَ وعليك إذن أن تبدأ دوماً، وبوسعك أن تُشكّل دوماً وتتشكل كما هى درّتكَ التى عنونت الحوار الثانى لمظهر العبدون معك ومع هبة عمار ولما يبدأ شهر عسلكما، فشهر العسل مثل الطلاق ليس وقفاً على المتزوجين، وهو للصداقة أو العلاقة الحرة كما تسمى عذراء الشام ما بينكما

مديرةً ظهرها للزواج وللطلاق منك، أو ممن سبقك إليها أو قد يكون رافقك أو قد يرافقك أو يزيحك أو سيزيحك كما أزحت مظهر العبدون أو مطاع أكرم، لأنك وقعتَ فى السبات الذى برئتْ هبة منه وتفاقم بك حيث نشدتَ العافية : فى غيابها.

إشبيلة- حمص

"ما ذنبي إذا كنتُ أعشقُ
كلَّ جميلة أصادفها؟
أريني فتاةً بمثل جمالكِ
لأعشقها وأنساكِ".

ناهيد كوجاك

.. التى كنتَ تحسبَ نفسك أخاً كبيراً لها ، بل أستاذاً ، فبتَّ أمامها هذا الصباح أخاً صغيراً ، بل تلميذاً ، وغمغمت :

– سأسافر وحدى إلى إشبيلية .

لا تقاومْ إذن . لن ينفتحَ جفناكَ بعد سهد ليلتين ، ولن ترى من هذا الفضاء بين غرناطة وإشبيلية إلا تموجات تحمرّ وتسودّ وتصفرّ وتضاعف وخز عينيك . ولن ترجّع أذناكَ إلا صدى لغلوريا ، يشفق عليكَ من السفر وحيداً ، ويكرر اسم الأوتيل ، أو يترك لمارتن ألونسو على الأنسر ماشين خبر قدومك ، أو يعدكَ باللقاء فى مدريد ، وأنت تداور قلقك : لأول مرة أسافر وحدى منذ وصلتُ إلى إسبانيا ، وتتعزى : هذا أهون من أن أكون وغلوريا بعدما كان على الأقل هذا الصباح . وسيكون عليك أن تواجه الساعات الطويلة قبل أن يوافيك مارتن ، فتنزوى فى اللوبى وفى المطعم وفى السرير . وسيكون عليك أن تواجه ساعات أطول ، ما دام مارتن لن يتفرغ لك حتى الثامنة ، فيومه مليء ، وكان عليك أن تعلمه بقدومك قبل أن تغادر مدريد ، فلماذا لا تتجرأ على الخروج ؟

* * *

لولا نداء النهر لَمَا خرج . وكان قد رآه أول مرة من نافذة التاكسى . ثم رآه عشرين مرة من نافذة الغرفة ، لكنه كان أصمّ ، أو لعل النهر نفسه لم يناد إلا الآن ، فاندفع سعد يسابق المصعد والرصيف وإشارة المرور حتى باتا وجهاً لوجه : نهر الوادى الكبير

وسعد أيوب : من تكون هذه إذن ؟

ملهوفين ـ سعد والنهر ـ تعانقا ، وراحا يخبطان معاً حتى الخيرالدا ـ كم هى قريبة إذن ! ـ وهنا حثَّه النهر : هيا ، فأسلم نفسه لهذه القصيدة : من المؤكد أن فى الهندسة أو العمارة شعراً ، وفى الشعر هندسة وعمارة ، ومن المؤكد أن القصيدة قد تكون من غير القول المسطور أو المشافه : حب مثلاً ، أو الخيرالدا ، أو هذه المرأة التى لا تفتأ تبرق منذ بات سعد وجهاً لوجه أمام النهر .

لعلها غلوريا وقد تخلّقتْ فيها وداد ، بل سعدا ، بل هبة نفسها : كتفان يتدوران ، وثديان يتكوران ، وشعر يقصر جداً ويطول جداً وعينان شهلاوان تغمزان مثل الوجنتين اللتين تتفتح فى كل منهما شامة ، وسعد يتشظى بين قلب يخفق وشهوة تحرق حرقاً ، لذلك راح يخب على الطريق الصاعدة من قاع الخيرالدا إلى سمائها ، كأنه الجواد الذى سيلحق بالمؤذن ، ليطلّ من بهاء القصيدة على سانتا كروث ، حيث لا يرى فارقاً بين الحى العربى أو الصليب المقدس ، أو مهندس ، أو مصعد ، أو شاعر ، أو سلالم أو ، ماضٍ ، أو حاضر ، أو الطريق النازلة من سماء الخيرالدا إلى قاعها ، كأنها المؤذن الذى سيلحق بالجواد ، فيمضيان إلى قصر أو خان أو كنيسة ، بينما سعد يومئ للنهر وللمرأة التى لا تفتأ تبرق ، ويلتقط أنفاسه ، فيما تبقى من المسجد ها هنا : فى فناء البرتقال ، ثم يستسلم للتيه بين المعينات الضوئية والظلال ، كأنه أىٌّ من هاته الأقواس الصغيرة أو الخطوط المقعرة والمحدبة ، أو الشرفات الخضر التى تتدلى منها عرائش

الياسمين: من تكون هذه المرأة إذن؟

فيتشظى قلباً يخفق وشهوة تحرق، فتهتف المرأة: صغنى أيها النهر؟

على وقع جيتار غجرى انبثق من لوحة لبيكاسو، توالتْ هتفة المرأة حتى غدت راقصات ثلاثاً فى لوحة أخرى لبيكاسو: أيّهنّ تاتيانا، وأيّهنّ هبة، وأيّهنّ تمخر النهر بسعد جسراً فجسراً حتى يبلغ اللاكارتوخا؟

أيّهنّ تصوغ النهر فرعين وهو يصوغ الجزيرة، والساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف، وسيارة مارتن ألونسو تغنج، وسعد إلى جانب مارتن يمعن فى التيه، وكارلوس دى باديلا ـ زميل مارتن فى الجامعة وصديقه الحميم ـ فى الخلف يدندن، ومن المسجلة تندفق أغانى السيتا الراقصة ـ يشرح الآن كارلوس ـ فيحسّ سعد أنه يصير ريشاً مزوقاً يتراقص فوق فرعى النهر والجزيرة، وملء حضن هذه المرأة، حتى تندفق ـ بطلب من كارلوس ـ أغانى السيتا الحزينة، فيثقل الريش بغصّات سعداً، وتوحوح نسائم الليل، ويتجهم النهر فرعاً فرعاً، وتبكى الجزيرة، وتنطفئ المرأة، ويتقوقع سعد فى جبّه طوال ما تبقى من الطريق.

* * *

رويداً يطلع سعد من الجبّ وبريق المرأة يتّقد، فيسعه أن يدقق فى مارتن: ما الذى تبدل منه عما كان فى جامعة أوتونوما أو فى معرض الكتاب؟

لكن مارتن قذَف سعداً بغتة بين انتصار الولايات المتحدة الأمريكية على الإمبراطورية الإسبانية قبل مئة سنة، وبين إعلان الجمهورية الإسبانية بعد ثلاثين سنة، والانتفاضة الفاشية قبل ستين سنة، وعودة الملكية بالأمس فقط، أو الآن تماماً، أو غداً بالتأكيد، لأن سعد أيوب هو الذى يعاين الآن فرانكو العربى الذى يتقلب بإسبانيا من الجمهورية إلى الملكية، أو من الجمهورية الملكية إلى الملكية الجمهورية.

وقبل أن يلتقط سعد أنفاسه، قذف كارلوس الروائىَ العربىَ بالرواية الإسبانية، وجاء صوته نقياً وواثقاً:

– ما تقدم من مارتن ضرورى لتعرف مفاصل تطور روايتنا.

فقال مارتن مقاطعاً صديقه:

– كانت الرواية الأولى التى قرأتها: (قلعة الثغريين). نصحتنى بها أستاذة التاريخ. كانت أستاذة رائعة، لكنها كانت كاثوليكية متعصبة مثل ريكاردو ليون صاحب الرواية التى صدرت منذ خمسين سنة، وظل الناس أربعين سنة يصطفون لشرائها.

– لا أحد يذكر الآن هذه الرواية ولا صاحبها الذى لم يكن أكثر من ناطق باسم الفرانكوية. ولم تكن كونستثا إسبينا أفضل.

قال كارلوس مقاطعاً صديقه، وكان انتظار الكؤوس المترعة بالنبيذ قد طال، فذكّر سعد بها. وبعدما تعالت خاطبه

مارتن :

– ربما كان الناس مشوقين للتاريخ. رواية (قلعة الثغريين) عن سقوط غرناطة.

ثم التفت إلى كارلوس قائلاً :

– لا تنسَ أن الجمهوريين أعدموا لإسبينا ثلاث روايات مخطوطة.

فقال كارلوس بحماسة :

– لأنها كانت خصماً عنيداً وشرساً لهم، مثل ريكاردو ليون. وعلى أهمية ما تذكر، فما مضى قد مضى، والآن لدينا الكثير الذى يتصدر الرواية فى العالم.

* * *

عد الآن إلى وحدتك فى هذه الغرفة الضيقة، وقارف السهد ليلة ثالثة : لا أحد إلا هذه المرأة التى لا تفتأ تبرق، لكأنك والنهر تعانقتما للتو، فالجأْ إلى مقاطعات مارتن وكارلوس : لماذا لم تلعب اللعبة نفسها، فتذكرهما بمديحة وزوجها وابنها، وبعبد الوهاب بديعة، بل وبديك الجن نفسه : هؤلاء أيضاً من مدينة حمص التى حملت مدينتك يا مارتن اسمها، منذ فتحها أجدادكَ الميامين يا كارلوس حتى طردهم أجدادكَ الميامين يا مارتن، والدفاع عن الجماعة لا ينبغى إذن أن يُخلَطَ بالدفاع عن الثقافة ـ من مهما خلط؟ ـ وانهيار البناء الثقافى لا يعنى بالضرورة انهيار الجماعة وتبدد الهوية ـ من منهما ابتدأ بالعكس حتى عزمتَ على أن تخالفه؟ ـ وغداً ستكون طوال النهار تقريباً وحدك، فمارتن لن يستطيع موافاتك إلا

ليشاركك الغداء بين الواحدة والربع والثالثة إلا الربع، ثم يدعكَ حتى العشاء فى الثامنة والربع، وكارلوس سيلحق بكما : إلى أين؟

اسأل المرأة التى انطفأ الآن بريقها، ليكون لك نهار مقبض آخر، حتى لو جدد النهر نداءه. فلْتعدْ إذن إلى مدريد، والقطار الطائر سيطير بك إليها خلال ثلاث ساعات ـ كما علّمتك غلوريا ـ ولكن عليك ـ على الأقل ـ أن تلبى دعوة مارتن وتودعه. وسيكون أمامك وقت مديد بين يقظتك المبكرة ـ هل غفوت؟ ـ والغداء.

فلْتخوّضْ إذن خلف المرأة التى شرعتْ تبرق وتنطفئ، ولْيتواصلْ تيهكَ بين هذه المراكز الثقافية التى آلت إليها أجنحة معرض عام ١٩٩٢، ولتدعُ كولومبس من قرونه الخمسة إلى الفرجة على أولاء الراقصات الثلاث اللواتى يخلّقهنّ بريق وانطفاء هذه المرأة فى لوحة لبيكاسو أو فى رقص تاتيانا فى أى من هذه الملاهى التى آلت إليها أيضاً أجنحة المعرض.

امضِ يا سعد خلف بحّة صوت هذه المرأة، رجّة أليتيها، فوح عطرها، ملوحة دمعها، ملاسة ساقيها، مرارة غدرها، نظرات شوقها، وعندئذٍ سيصدق وعد مارتن ألونسو وصديقه الحميم كارلوس، وتمتلئ بلا ثادى إسبانيا ـ أو أية ساحة تشاء ـ بالخيول الإيبيرية والأندلسية، وسيكون لك مع هذه المرأة عيد الربيع، وستواصلان السهر سبعة أيام بلياليها، وستمخر بكما النهرَ خيولُ أىٍّ من هذه العربات المزدانة بالزهر من كل لون، ومن بعدُ ستغيب المرأة، وسيكون لكَ فى غيابها أن تمضى إلى ما تبقى لها من برج

الذهب، أو ما تبقى لكَ من باب قرطبة، أو أن تمضى إلى ذلك الدير البعيد، كى تقرب السيراميك الإشبيلى من عينيك، حتى لو لم تدخل المصنع.

فإن أمعنت المرأة فى غيابها، فاضربْ فى التواء وضيق أىّ من الشوارع الصاعدة النازلة، كى تلتف بك من جديد حول القصيدة ـ الخيرالدا، وقعقعْ بحذائك على الحجر الأسود الذى يبلط أياً من هذه الأزقة، كما تفعل هبة فى زقاق طالع الفضة: هل تكون هذه المرأة التى يشتبه عليك بريقها بانطفائها بغيابها بحضورها، هى هبة؟

* * *

عن وحشة السؤال وعنائه ـ كما عن وحشتكَ وعنائك ـ سيجزيك مارتن ألونسو بالغداء فى البيت، وليس فى المطعم. وسيكون بوسعك أن تدقق فى مارتن، لتكتشف الشبه العجيب بينه وبين كارلوس: اللحية والحاجبان والشاربان والشعر الكثيف الأشهب المتموج، عقلات الأصابع وبروز الحنجرة وشحوب الصوت وسواد العينين والتدفق والمقاطعات. وقبل ذلك وبعده، سيكون بوسعك أن تدقق فى وصف هبة لبيتها، وفيما رأيتَ منه، لتكتشف بيت مارتن: البوابة الصغيرة التى تفضى بك إلى الفناء الظليل والنافورة ورسوم الزليج ونقوش جدران الغرف المصطفة حولك: إلى أى منها ستتفضل وتتناول الغداء؟

بين لقمة أو مضغة ومضغة أو لقمة، وبعدما يحك مارتن صدغه ويلعن النسيان، ستعينه أنت كى يجعل ذا الوزارتين يهجو اعتماد

الرميكية فى الغرفة الميامنة، أو كى يجعل المعتمد بن عباد يقتل الهجّاء الذى تجرأ على أن يقول:

ممـــا يـــزهّـــدنى فى أرض أنـــدلسٍ
ألـقـاب مـعـتـمـدٍ فيـهـا ومـعـتـضـدِ

فلْتتساءلْ كما تشاء عما إذا كان ذو الوزارتين قد عنى الزعيم المفدى، أو الخليفة، أو القائد الملهم، أو أمير المؤمنين ،أو صاحب الفخامة ،أو صاحب السمو، أو صاحب المعالى، أو الأمين العام، أو أى لقب نسيته ـ وإن يكن من زمانك ـ أو أى لقب من أى زمن لا تجرؤ على التلفظ به، لأنك لست ذا الوزارتين. ولكن هل مارتن يزجى الكلام فقط، أم يبطن السخرية، وربما الأسى؟

هو ذا المعتمد ـ ليس بشحمه ولحمه، بل بعظامه فقط ـ مشلوح فى بطاح المغرب أو المشرق، وهذه ابنته بثينة تُباع فى سوق العبيد، وهذه جاريته العبادية ـ الشاعرة مثله ومثل ابنته وزوجته ـ تُهدى له من سوق العبيد، فيغويها عن سيدها أبوعلى الشكاز النكاح المنكاح، سواء أصدّق ماريانو غونساليس تقولاتك عن المتصوفة أم كذّب، وسواء أشعلتك أم أطفأتك منحوتة سوزانا سولامو أو منحوتة خوان منيوث، اللتين ظلتا تطبقان عليك فى مكتبة مارتن حتى ناداك القطار الذى سيطير بك فى الثالثة واثنتين وأربعين دقيقة، بعد أن تكون قد أخذتَ بنصيحة مارتن، وتفرجتَ على الكتب فى أى ركن من المحطة. ولعلك تكون قد تيقنت من أن القراء فى إسبانيا باتوا يؤثرون الروايات الطويلة ـ كارلوس هو الذى أكد أمس ـ وقد

تكون عثرت على رواية (أنا والولايات المتحدة الأمريكية) لتشترى النسخة التى ستكون هديتك إلى رفعت عطفة، سواء ترجمها أم لا، فعنوان الرواية يغويك ـ كارلوس هو الذى ذكره أمس ـ وأنت تحسّ بالقربى مع الكاتب الصياد الذى لم تغوه مدريد، ولم يبرح بلدته، كما لا تبرح ضيعتك: أرأيت كم أفادت مقاطعات كارلوس لصديقه مارتن؟

وأخيراً: لم يبق لك سوى هذا الفضاء بين إشبيلية ومدريد، فأطبقْ جفنيك ولا تقاومْ، فبعد سهد ثلاث ليال لن ينفتحا، ولن ترى من هذا الفضاء إلا تموجات تصفرّ وتسودّ وتحمرُّ وتضاعف وخز عينيك، ولن ترجّع أذناك إلا صدى المرأة المعلومة المجهولة التى تغزل حلمك وتهدهدك:

ذبتُ اشـــتـــيـــاقـــاً ووجـــداً فى مـــحـــبـــتـــكم

فـــآه من طـــول اشـــتـــيـــاقى، آه من كـــمـــدى

فمن منكما يقدس سر الشيخ الأكبر، كى يصير الصدى فقط:

هبة: أحبك؟

رسـائل وتعقيبـات

"لا تصحّ المحبة حتى يقول كل واحد من المتحابين لصاحبه: يا أنا".

الكسائى

-١-

"صباح الخير يا سعد.

كيفما كان وقتك وأنت تقرأ هذه الرسالة: صباح الخير. يا ترى ليش؟

لأنى اكتشفت يا حبيبى أنك عودتنى عاداتك الحلوة. الآن لا أقول: عاداتك السيئة، وأولها: صباح الخير يا هبة.

فى نصف الليل تقولها وفى نصف النهار، وتقولها وأنت عبوس قمطرير، تقولها وأنت تضحك ومرات تضيف: والله بحبّ تكشيرتكْ. قولْها يا سعد. اشتقت أسمعها منك.

آه يا سعد.

غيابك هذه المرة توّهنى. أنا كنت بلا عقل لأنى وافقتك على اقتراحك العجيب. قال شو؟ لا رسالة ولا هاتف ولا إيميل طيلة الغياب! يا ترى ليش يا سعد؟ المراجعة والتهجئة وما بعرف شو، حسب اقتراحك، لا تكون إلا بالامتناع عن الرسالة وعن الهاتف؟

منذ ودعتك فى المطار وأنا أقول لنفسى: هذا ضعف. القبول باقتراحك ضعف، والعودة عنه ضعف. غيابك هذه المرة كشف لى ضعفى، وكشف لى قسوتك، وليس صلابتك. لا تتباه، وحياة عينيك وفداها عينىّ: ما نمت بعدما رجعت من المطار حتى أذّن العصر. بعدها، مثل القتيلة نمت لنص الليل. قمت جوعانة، وحمدت الله على أن الجميع فى سابع نومة. تحممت وأكلت وبدأت

أكتب لك حتى أذّن الفجر. تعبت يا سعد وبكيت.

أظنك قدّرت من غير شرح أنى خططت لأنتهى من روايتى فى غيابك. كانت خطتى أن أتابع الكتابة هنا فى الليل، وفى النهار فى غرفتنا، فى عشنا، إى وحياتك، كما سميتها أنت.

فى اليوم الثانى حاولت، وفى اليوم الثالث. لكن الحق عليك. كنت تشغلنى عن الرواية فى الليل وفى النهار. كنت تشغلنى عن الدنيا كلها.

أنا واثقة أنك ستمدد رحلتك الميمونة. ولكن لم أعد أستطيع المقاومة، لذلك أرسلت ما كتبته دفعة واحدة. أظن بعد هذا أنى أستطيع أن أعود إلى الرواية، ولكن خوفى ألا تنتهى مع عودتك، وألا أقدم لك الهدية التى طال وعدى بها لك.

طبعاً يا أستاذ كنت مضطرة أن أرسل الرسائل بالإيميل لعند مديحة، خوفاً من أن تسبق عودتك البريد، لو أرسلتها بالبريد. لا أعلم إذا ما كنت أخطأت باستخدام إيميل مديحة. هل يضايقك لو دفعها فضولها لأن تقرأ؟ أنا ما فارقة معى. وعلى كل حال أليس أفضل من أن أكون استخدمت إيميل دييغو أو الجامعة؟

صباح الخير يا سعد".

* * *

صباح الخير يا هبة.

والله بحبّ تكشيرتكْ.

فى الأيام الأولى قاومت غواية الهاتف، ثم ألفتُ الحال، ولم

يصعب عليّ تنفيذ الاتفاق أو الاقتراح العجيب، والسبب بسيط: أنا كل يوم أكتب لك وعنك. كل يوم أكتب لك وعنك ساعتين، وأحياناً أربع ساعات وخمس صفحات. الدفتر الذى اشتريته من مطار عمّان يكاد يمتلئ. أنت أرسلت عشر صفحات، وفضحتنى وفضحت هبة أمام مديحة وأمام الدكتور على، وأنا كتبت حتى الآن ستين صفحة لتكون الفضيحة بجلاجل. ما حكيت لديبغو وحده يكفى.

الأحد الأول لى فى مدريد قضيته كله فى الكتابة، ما عدا جولة قصيرة، وطبعاً كنت معك وحدك. على كل حال أنا أقرّ وأعترف بفضل المعلوماتية. وإذا عدت إلى كتابة الرواية، سأتعلم استخدام الكومبيوتر والأنترنت وما أدراك، مثل المتحضرة هبة عمار، وهذا سيرضى نشأت ويقنعه بانشغالى بالمستقبل. هل تعنيك مشكلة الرقم ألفين والقرن الحادى والعشرين؟

إياك أن تظنى أن كل هذه الصفحات التى كتبتها عنكِ ولكِ، تعنى عودتى إلى الرواية. قلت لك: دايمة، وغنيت لك: أنا هويت وانتهيت. الدور والباقى عليك. قد أتأخر هنا حتى أتأكد من أنك أنجزت روايتك. وإذا كان هذا سيساعدنى على أن أتابع الكتابة لك وعنك، فالأهم أن يساعدنا على أن يبرأ كل منا من الآخر، حتى نلتقى أصحاء، أى حتى نفترق أصحاء".

-٢-

"حبيبى سعد: هالمرة عن جد: صباح الخير. الساعة الآن ١١,١٥.

تصبحت بخالتى التى جاءت من القابون إلى طالع الفضة لتفطر مع أختها. طبعاً أستاذ، نحن نصل الرحم، ولا نفكك مثلك العلاقات الإنسانية الحلوة فى الأسرة والقرابة و.. لذلك استلمتنى خالتى وأمى ساعة، فلا عرفت كيف أفطر ولا كيف أشرب قهوتى وأدوخ بسيجارة الصباح.

خالتى يا سعد خلعت السوتيان لأنه حرام كما حفظ زوجها عن أبى.

قلت لها:

- انتبهى يا خالتى: صدرك ما شاء الله بيرجرج رجرجة بلا السوتيان. حتى فى البيت انتبهى.

أمى كانت تنظر لى بإعجاب وتقول لأختها:

- هبة عمرها ما حبتْ الكعب العالى ولا المناكير ولا الحمرة.

خالتى صارت علاّمة زمانها:

- المناكير يا بنتى يا هبة بيحرمْ أظافرك من الميّ وقت الوضوء.

أردت أن أقول لها إنى لا أطيل أظافرى ولا أتوضأ، لكن أمى غمزتنى. شو رأيك ترجع وتشوفنى: كعب عالى ومناكير وحمرة وأظافر طويلة وبلا سوتيان؟

أريـد أن أعـرف مـتى حـفـظت خـالـتى كل هـذه المـمـنـوعـات والـتحريمات والتعليـمات ؟ أشك فى أن شفاء ابـنها من الإدمان على الفاليوم هو الذى جعل خالتى هكذا . كم تمنيتك أن تسمعها وهى تعدد :

– البنطلون حرام على الحرمة منا . إياكِ بحياتك تسوقى سيارة يا هبة . حرام . التيلفزيون حرام يا بنتى . صوت الحرمة منا حتى بالتيلفزيون حرام ، كيف بقا الوظيفة ؟

أردت أن أقول لها : بنتك ستتخرج من معهد التمريض قبل نهاية السنة ، وتصير موظفة . أمى تحزر ما بى دائماً . غمزتنى فسكتّ . أنا لا أرى خالتى إلا من العيد للعيد . هى أصغر من أمى بسنين . هى خالتى الوحيدة ، ولا زالت حلوة ، ولم تكن هكذا قبل سنتين أو ثلاث .

أنا أعرف أن أبى يزور بيت خالتى دائماً . ولا بد أنه هو من غسل لها دماغها ، ثم ملأه كما يليق بسماحته . ومن المحتمل أن يكون سلّط عليها وعلى زوجها وأولادها وبناتها واحداً من أمثاله . هل تراه يعوض عندهم ما عجز عنه فى بيته إلا مع الشبل الصغير محمود ؟

سعد : أنت لا تعرف عن هذا البيت الذى أعيش فيه حتى يشاء الله ، إلا أقل القليل . لذلك تظلمنى وتقول : إنتِ نقاقة .

ببساطة أنت تقول : اتركيهم . عيشى وحدك . أنتِ مسكونة بهم . استقلاليتك ناقصة .

يا سيدى كلامك ذهب ، والغلطة غلطتى يوم اشتريت لهم بورقة

اليانصيب هذا البيت فى طالع الفضة . كان علىّ أن أشترى لنفسى ولو غرفة على سطح ، مثل غرفتنا وعشنا . ما كنا استأجرنا سوية فى المزة ـ جبل .

أنا شجاعة يا سعد . أعرف نفسى ، وتعرفنى أنت ، ويعرفنى أهلى وغير أهلى . أنا شجاعة ، ولكن سكنى المستقل سيخلق لى من المشاكل مع أهلى ومع غير أهلى ما أنا بغنى عنه . أنت تعيرنى براغدة ، وأنا لا أقبل هذا القياس .

أنا أحب أبى وأمى وأخوتى ، وأختلف عنهم ومعهم . أنت تحب قتيبة على الرغم من كل شىء . لم تكن معاشرتى لأهلى بمثل هذه الصعوبة . يا ترى لأنى اليوم غيرى بالجامعة مثلاً ؟ يا ترى لأن اللوثة السارية فى بلاد العرب والمسلمين أصابت أبى وجعلته ابن باز الثانى ، أو جعلت من أخى محمود ابن باز الصغير ، ؟هل تكون علتى الكبرى أنى عرفتك ، فما عدت أعرف كيف أعيش فى هذا البيت ، يا حبيبى ولا فى هذا العالم ؟" .

* * *

أنتِ وأنا يا هبة ، كلٌّ منا علة الآخر الشافية ، كيلا أقول القاتلة . أما ابن باز الثانى ، فما أعرفه منك أنه كان حتى دخلت الجامعة ، مثل كثيرين فى كل مكان : يصوم رمضان ويصلى الجمعة ويدخن الأرجيلة ويعلم أولاده وبناته . أعرف منك أن أمك كانت تشكو تبذير زوجها وفقره وولعه بالسيران وغضبه المفاجئ وكسله . وبعد ما أنعم الله عليه ببنت مرضية ومحظوظة ، وترك بفضلها القابون

إلى طالع الفضة، هداه الله، وأرخى لحيته، وحرم على وليد حلاقة الذقن، فتمرد الشبل الأول على الأسد الذى تقاعد، ولا يريد عملاً جديداً إلا العبادة.

أظن أن الخطأ بدأ هنا. لا أقصد الفراغ، ولا التدين أو المبالغة فى مظاهر التدين، بل أقصد أنك صرت تستفزينه مرة، وتطأطأين له مرة. الخطأ الأكبر أنك عوّدته وعوّدتِ البيت كله على أن تكونى البقرة الحلوب.

لأول مرة أقول لك: كأنك ترشينهم جميعاً بما تنفقين فى البيت، حتى يغضوا الطرف عن بنتهم المتحررة. كأنك تشترين سكوتهم، وأنت حائرة: هبة عمود البيت، كلمة هبة تمشى على الكبير وعلى الصغير، وفجأة: صلّى يا هبة، تحجّبى يا هبة، تزوّجى يا هبة، فضحتنا يا هبة.

أنت غير قادرة على أن تعيليهم وتعيلى نفسك. الشبل الكبير وليد تزوج وخرج من البيت. لكن الشبل الصغير محمود يسير على خطى أبيه. يعمل شهراً كما تقولين، ويمضى شهوراً بلا عمل. وصبيتان غيرك فى سن الزواج: واحدة تعمل شهرين ثلاثة، وواحدة بلا عمل منذ سنة، وأنت تندبين: ما حدا غيرى كمّل دراسته الجامعية. طيب، ليسوا أول الناس ولا آخرهم. قتيبة أيضاً لم يتابع دراسته الجامعية. أنتِ نفسك كم بقيت بلا عمل؟ أنتِ تبدين وتعيدين فى الأسرة والزواج وما أدراك، وتناقضين نفسك عندما يتعلق الأمر بأسرتك.

الآن أسمعك تكررين: لأنك ذكر لا تحسّ بى. حتى لو كانت ظروفك أصعب، تظل أهون مما تلاقيه المرأة، لأنك رجل. طيب يا هبة: إلى متى ستظلين تنزفين؟ ألن يزيدنا نزيفك هذا عكراً وارتباكاً؟"

-٣-

"يا أستاذ سعد: كالعادة ملأت أصواتهم البيت. هذه المرة: أصواتهن. وقطعن علىّ ما كنت أكتبه لك. نسيت ما كنت أريد أن أتابعه.

أمّا وصلة يا سعد!

جارة ورا جارة، وتعا اسمع: من قبل سفرك، حتى الجرائد كتبت عن الحيوانات الغريبة التى ظهرت فى دمشق القديمة. حضرتك لا تقرأ جرائدنا، ولا تعرف أننا من أسبوعين ونحن نصحو على حكاية وننام على حكاية. جارة تحلف أن الجن سكنت زقاق طالع الفضة، وثمن البيوت صار بالتراب. يعنى ورقة اليانصيب ذات المليون ليرة تشترى الآن بيتين مثل هذا البيت. وجارة تقرأ سورة الناس وسورة الفلق، وترخّم صوتها: وخلق الجن من مارج من نار، وتشرح لى وحدى: المارج يعنى النار الزرقاء. سألت: ونار السموم؟ وحياتك جاوبتنى فوراً: بلا لون. أظنها تحضر دروس النساء فى جامع، يعنى مثقفة مثل جنابك.

وعندك يا حبيبى جارة تريد حلاً: الأولاد صغار، ولا أحد يتجرأ

علـى دخـول الحـمّـام أو المـرحـاض. الذكـور يـقـضـون حاجـتـهـم فى مراحيض الجامع، فهمنا، والبنات؟

من طالع الفضة إلى مدحت باشا والبزورية ومأذنة الشحم وحارة بولاد، أينما درت فى دمشق الحضارة ودمشق التاريخ ودمشق الستة آلاف سنة، تسمع من يقسم لك أنه رأى الجردون أكبر من الديك، وتسمع من يقسم أنه رأى كائنات لا هى من الإنس ولا هى من الحيوان ولا هى من الجن: صرصور أكبر من الحمامة وليس بصرصور، ينبق لك فى الحمّام وفى المرحاض وفى البحرة وفى الزقاق وفى المجلى وفى المجارير وفى مجارى المدابغ وفى البيوت المهجورة.

ليست أسعار البيوت فقط ما تدهور. ما عدت ترى سائحاً. وإذا كنت تشك فى كلامى، اسأل الجارات، وتعال اسمع ذكريات تعزيل نهر القنوات وفروعه كل ربيع. تعال اسمع سيرة المصابغ ومياهها الملونة ومعامل السكاكر والفقاعات فيما تصرف، والخلاصة: كله من غضب الله على عباده المارقين.

أخى محمود انتهز المناسبة ليعطى أمى وأخواتى درساً جديداً قديماً من دروس أبيه الأولى. أنا متأكدة أنه كان يقصدنى وحدى عندما قال: الصلاة خلف المدخن حرام، مثل السلام على المسيحى واليهودى، اللهم إلا وقت الضرورة القصوى. والآن أنا فى الضرورة القصوى، لذلك أشعل السيجارة من السيجارة.

سعد: من حشا دماغ أخى بهذه الحشوة؟

محمود المؤمن بأن المرأة مذنبة حتى يثبت العكس، ربيته فى

حضنى يا سعد. أنا أعرف أنى مربية فاشلة. عرفت حضرتك الآن لماذا لا يهمنى الزواج؟ لأنى أعترف: سأكون فاشلة كأم وفاشلة كزوجة.

مثل شقيقك قتيبة رسب محمود فى البكالوريا سنة بعد سنة. وفى غفلة منى أداروا رأسه. لا أظن أن أبى وحده من أدار رأسه. من هم يا سعد؟ من المسئول؟

صار أخى الصغير يتمرد علىّ. صار يتأمّر على أخواتى وعلى أمى نفسها. حتى آية الكرسى المعلقة على صدر الصالون، أنزلها وأخفاها، لأن تعليق الآيات فى البيت حرام! وابن باز الثانى سعيد بشبله الصغير، والشبل الكبير وليد سعيد ببعده عنا وبزوجته وبنته، وأنا ماذا أفعل؟

صوت محمود يلعلع الآن. أقرأ فى عينيه خوفاً عميقاً وسراً أعمق".

* * *

لا أعلم إن كنتِ قرأتِ مثلى عن النساء اللواتى قلن: نريد فتاوى من الأزهر، لا من المقشات. ولا أظن أن هناك تشبيهاً أكمل وأجمل من هذا التشبيه للحى الأدعياء بالمقشات.

على كل حال يبقى أمر الأدعياء الصغار مثل أبيك ومثل محمود أهون من أمر الأدعياء الكبار. أحياناً لا أصدق أن السيتالايت وصل إلى بيتك.

أنا أيضاً أذكر عن المرحوم جدى وصيته كلما نهق حمار أو نبح

كلب فى الضيعة. كان يقول: تعوذوا من الشيطان الرجيم، فالحمار إذا نهق يكون قد رأى شيطاناً، والكلب إذا نبح يكون قد رأى شيطاناً. هل بقى فى زقاق طالع الفضة حمار ينهق أو كلب ينبح؟

المرحوم جدى سمعته مرة يوصى والد سعدا: لا تقتل الحية فى البيت حتى تقول لها ثلاثاً: أعاهدك بالله أن تخرجى دون أن نؤذيك أو تؤذينا. فإذا لم تخرج يا هبة، كانت جنياً غير مؤمن، أو ثعباناً حقيقياً. أما إذا خرجتْ فهى جنى مؤمن. وأنت يا جنيّة شو؟ مؤمنة ولاّ كافرة؟

-٤-

"يا سعدى ويا هناى:

اليوم اتصل عبد النور، والتقينا على الغداء فى مطعم الشرفة. سألنى عنك وعن المعرض، ولم يصدق أنك لم تتصل بى، وأنه ليس عندك حيث تنزل رقم هاتف.

صاحبنا أحضر لى كاسيت كله أنشودات وأهازيج وأغانٍ لحزب الله، وحفظت لك منها على وزن دلعونا:

مـــقـــاومْ إسلامى مـــقـــاومْ إسلامى
لـلـسـيـدْ حـسـنْ بـهـدى سلامى
نـحـنـا سـرايـا استـشـهـاديهْ
تـهـجم ع المـوت بـهـمـة قـويّهْ
والـسـيـدْ حـسـنْ وصّـانـا وصـيّه

دم الـشـهـيـد نـقـدسْ ونـصـونـا.

وحفظت لكَ من غيرها:

عـلـي عـلـي إمـامـى
عـلـي حـبـي وغـرامـى
الـسـيـد حـسـنْ نـور الـعـينْ
يـا عـنـوان الـكـرامى

أعرف مدى إعجابك بشخصية الإمام على وبالسيد حسن نصر الله وبحزب الله، ولذلك أسألك: بربك هذه أغنية مقاومة؟ ما لاقوا مؤلف أغانى أفضل؟ يا أخى أنا معقدة من هذا التضخيم للقائد، من هذا التقديس. كمان بالمقاومة يا سعد؟

أحضر لى عبد النور أيضاً ترجمة لرواية (حياة لاثاريودى تورميس) وقال: هذه أول رواية إسبانية صدرت عام ١٥٥٤، وكاتبها مجهول.

عبد النور يفكر فى طبعة جديدة من هذه الترجمة، أى يفكر بلطشها. وأنا قرأتها فوراً من أجلك. ليته أحضرها قبل سفرك. هى صغيرة، ولا أعرف إذا ما كانت رواية أم لا، لكنها ممتعة. مسكين كاتبها لم يجرؤ على أن يعلن نفسه، خوفاً من محاكم التفتيش. هم يا سعد خلصوا من محاكم التفتيش ونحن علقنا بها. تصوّرْ أنه حتى مئة سنة خلت كانت رواية (حياة لاثاريو) تظهر فقط فى طبعة رقابية!

من الواضح أن هذا الكاتب المجهول متأثر بمقامات بديع الزمان

الـهـمذانى أو بمقـامات الحريرى. ألـم تكن هذه المقـامات وغـيرهـا معـروفة فى الأنـدلس؟ وإذا صحّ هذا الكلام، ألا يـكـون لـنـا دور فى تـأسـيس فن الـروايـة، مـا دامت روايـة (حـيـاة لاثـاريـو) أول روايـة إسبانية، أى أول رواية أوروبية؟

الأهم أن هذا الكاتب المجهول ينقد المؤسسة الدينية نقداً لاذعاً، ويجعلك تضحك طوال الوقت. ليتنى أستطيع أن أكتب مثل هذه الرواية، وتكون شخصياتها أبى وأخى محمود وخالتى وو ..

وكرمى لك يا سعد لا أضع منذ أيام فى المسجلة إلا كاسيتات الموشحات التى يغنيها صباح فخرى وفيروز، فهذه الموشحات مثل تلك الرواية، تجعلنى أحسّ بالقرب منك. يعنى صرت إسبانية الهوى: والأصح صرت أندلسية الهوى. فاليوم قضيت قبل الظهر فى مكتبة الأسد. قلّبت فى طوق الحمامة، وسحرنى ابن حزم، فنقلت لك قوله: "لقد منحنى الله عز وجل من الوفاء كل من يمتّ إلىّ بلقيا واحدة".

سعد: هل أكون مدعية لو قلت لك إنى فى مثل هذا الوفاء طوال عمرى؟ أما أنت فأظن أن ابن حزم ما قصد غيرك عندما قال: "دعنى أخبرك أنى ما رويتُ قط من ماء الوصل، ولا زادنى إلا ظمأ". هذا لا يعنى أنك قليل الوفاء، فأنا أيضاً مثلك ومثل ابن حزم، لا أرتوى من ماء الوصل، ولا يزيدنى إلا ظمأ، ولكن بمعنى يخصنى وحدى، وربما على النقيض منك ومن ابن حزم. هنا، لكل رجل ولكل امرأة معنى خاص. لو تعلم من صادفت وأنا خارجة من مكتبة الأسد؟!

مظهر العبدون يا حبيبى. كان يضع بوكيه ورد فى السيارة. قال إنها هديته لزوجته فى عيد زواجهما، ما رأيك؟

سألنى عن سعد أيوب الأندلسى، وقال إنه قرأ مؤخراً قصيدة ناظم حكمت فى دونكيشوت، وإن دونكيشوت ناظم أفضل من دونكيشوت ثيرفانتس. ما رأيك؟

كان مظهر مستعجلاً، ولقائى العابر به أفادنى جداً. فهو الذى جعلنى أضيف إلى روايتى فقرة أو سؤالاً يتعلق بهذا الوباء المتفشى فى التيلفزيون والصحافة والنشر والشعر والفكر والمهرجانات والمؤتمرات.. وفى الحب والتحرر الجنسى.

لقد سميت هذا الوباء بالوباء الثقافى العربى، وربطته من قريب ومن بعيد بالوباء الثقافى العولمى، ولا تخف: ليس على طريقة المحاضرة أو المقالة فى الرواية.

لا أظنكَ نسيت كم كنت أتساءل فى لقاءاتنا الأولى عن التحرر الجنسى الذى يمكن أن تحمله ثقافة مأزومة، أنتجتها عقود من حالة الطوارئ والأحكام العرفية.

لقائى العابر بمظهر جدد لى هذا التساؤل. أليس مظهر ذلك المثقف العرفى بامتياز؟ أليس الابن النجيب لتلك العقود؟

قد ألتفت إلى هذا أيضاً فى الرواية، ولكن بدون مظهر. أنا أفكر فى الظاهرة، وليس فى الشخص.

أنتَ وأنا وسالم وراغدة وإسبر ومطاع وعبد الوهاب، أبناء تلك العقود أيضاً، ولكننا أبناؤها غير النجباء، أبناؤها العاقون. وإذا كانت قد لوثتنا

قليلاً أو كثيراً، فنحن نواجهها كما نواجه تلوثنا. ما رأيك؟".

رأيى أولاً أن تقدمى الكاسيتات التى أحضرها عبد النور لوالدك ولشقيقك محمود، عسى أن يذكّر كل منهما الآخر، والآخر يذكّر آخر، أن للتديّن معانى أكبر وأنبل من إرخاء لحية أو السماح بصورة (الحرمة) على جواز السفر فقط.

ورأيى يا هبة أن تنسخى لأخى قتيبة نسخة من الكاسيتات، فأنا أفكر الآن فى شباب وصبايا من لبنان أو فلسطين، هم فى مثل سنّ قتيبة ومحمود، لكنهم يحملون أرواحهم على أكفهم، ويخلعون أنياب الوحش الإسرائيلى. وحتى لا أذهب بعيداً، أفكر فى شباب وصبايا حولك فى طالع الفضة أو فى القابون، وحولى فى الضيعة أو فى اللاذقية، يتعلمون ويعملون، بلا السيمو والبالتان والبروكسيمول والفاليوم، وبلا هوس ابن باز الكبير وابن باز الصغير. صدقتِ أنى عجوز فى الأربعين؟

ليتنى قرأت رسالتك هذه قبل أن يجلدنى مارتن وكارلوس بالرواية الإسبانية. على أية حال سأنقل كلامك عن رواية (حياة لاثاريو..) وعن المقامات لديبغو ولسواه ممن سألتقيهم وألتقيهن فى الأيام القليلة الباقية لى هنا.

أما لقاؤك العابر بمظهر فهو ما استوقفنى فى هذه الرسالة. فمرة أخرى تجعلييننى ويجعلنى أفكر أن الصداقة مثل الحب: بللور يحترق، فيتشكّل، لكنه إن انكسر، لا يَنْجبر ولا يُجْبَر.

والغدر مثل الكسر يا هبة، لا ينفع معه جبر: فاتكِ وفات ابن

حزم أن تقولا.

عندما كنا - مظهر وأنا - نودع الجامعة، كان يترحم على ابن حزم، ويردد ما حفظ له من مقرر الأدب الأندلسى، وهو ما نقلته لى عن ماء الوصل والظمأ. وكنت أبتسم لمظهر مرة، وأنظر له نظرة حسد مرة. وفى كل مرة كنت أؤكد أننى أيضاً - وكما قدّرتِ - لا أرتوى من ماء الوصل، ولا يزيدنى إلا ظمأ، ولكن على النقيض منك يا مظهر. وها أنت تأتين بنقيض جديد لى ولابن حزم ولمظهر، فكيف يكون للقولة الواحدة نقائض شتى؟

أما الوفاء، فسأجرؤ الآن على أن أعترف: لا زلت أحب مظهر، وأحنّ إليه، بقدر ما أقرف منه. بالضبط يا هبة: لا أكره مظهر، بل أقرف منه، فهو، وكما يليق بالمثقف العرفى، قليل الوفاء، وهديته لزوجته فى عيد زواجهما: مكر، مهما يكن فيها من الوفاء. وعلى كل حال: سبحان مغيّر الأحوال.

أما ما أخذتِ من مصادفته لروايتك، فيجعلنى أفكر فى أن نكتب - أنتِ وأنا - مقالة أو مقالات، وربما كتاباً - فى وصف الكاتب العرفى، الأكاديمى العرفى، الفنان العرفى.. أى فى وصف المثقف العرفى والثقافة العرفية. ويمكن أن ندعو غيرنا إلى أن يشاركنا فى هذا المشروع، فعبئه كبير، وضرورته تكبر، ولا ينبغى أن نغفل عما أصابنا من التلوث، كما ذكرتِ. لا ينبغى أن نستمرئ دور الضحية، ولا الهجاء، فهمّنا هو تحليل ما أصاب المثقف والثقافة، أى ما أصاب المجتمع. ما رأيك؟

هبة : أحبك .

مدريد ٧

"أحذف اسم شفتيكِ
دموع الخطأ
نوبة التأوه
والتقلّب على.."

جليل حيدر

.. حتى كدتُ أنجو بعزلة يوم آخر، لأتابع لملمة نثارى وأوراقى، ولأقرأ رسائلكِ، وأكتب إليكِ.

كانت غرفة السكن الجامعى مثل مكتبتى فى الضيعة ـ تبارك العزلة ـ لكن دييغو داهمنى قبل الثانية. وبعدما صبّ غضبه من اختفائى تدفّق:

– ما دمتَ بدأت الكتابة، فزيارتك لإسبانيا قد أثمرت. أظنها زيارتك للأندلس. تستطيع أن تمدد إقامتك. هل ترغب فى مكان آخر؟ هذه الغرفة ليست مناسبة. لن أقاطعك إلا هذا المساء. أمامك مفاجأة كبرى، فاستعد.

من مارتن علم دييغو بعودتى، ولكن من أنبأ نشأت أيضاً، حتى داهمنى فى الثالثة وقد ازداد جحوظاً وصلعاً، وملأ صوته الغرفة:

– تاتيانا ستأتى. خيبتَ أملها وأملى. طاولتك تقول لى إنك تكتب. شكلك يقول، ولكن الأحد فى مدريد ليس للكتابة. يبدو أنك ترفض العاهرات. تاتيانا ليست عاهرة، وإن كانوا فى تل أبيب جعلوها أشهر وأغلى العاهرات. أنت جائع بالتأكيد. أنا أقرأ الجوع فى الوجه، كما أقرأ الشهوة فى العينين. تاتيانا كانت تريدك. الحق علىّ. كان ينبغى أن أنبهها إلى أنك عربى معقد. أرنى ماذا تكتب. تعال إلى طبق البقايا. قل بلهجتك الشامية: البائيه، ولن تنسى بعده نشأت رجب.

ومضينا إلى الرز والفاصولياء والفلفل والبصل ـ مع هذه الخلطة، ما الذى تفضله هبة عمار: السمك أم الدجاج؟ ـ وبعدما نظفنا الصحون، استغرق نشأت فى مديح طبق نهاية الأسبوع، ثم أمر بالمشى، واستغرق فى مديح شارع سيرانو والكورت انجلز والكورت فيل ومارك اند سبنس: كلها تفتح السبت والأحد: وأنتَ بم تتفاخر؟ بالأحد الذى ضيعك فى مدريد أم بجهلك؟

قلت مستسلماً:

– بالاثنين.

وزادتنى تخمة البائية استسلاماً، كما زادت نشأت ضخامة، فازددت بجانبه تقزماً، وربضتُ أمام هذا الفنان الذى لم أجرؤ على أن أتركه يرسمنى، بعد ما رأيت ما فعل بنشأت لقاء مائتى بيزيتا.

كان سالم برهوم ـ هكذا سميت هذا الفنان ـ قد جلح، وتشعثت لحيته، وغارت عيناه وخداه، ونتأت حنجرته، وكان صوته يسحج:

– أنا جزائرى.

ونشأت يسأله عن غياب جاره المصرى، وأنا أنادى علياً القيرونى إلى مواطنه، وأنادى سالم برهوم إلى بلاثا مايور، لينزجّ بين أولاء الذين يتكسبون هنا: كاريكاتير برغيف: يا بلاش يا سالم. ما الذى تحلم به أكثر من ذلك بعد سجن أربع عشرة سنة وخمسة أشهر وأربعة عشر يوماً؟ بصحن السلاطة الروسية أم بالشيوعية أم براغدة أم بالهجرة إلى بلاثا مايور مثل هذا الفنان الجزائرى وذاك الفنان المصرى؟

* * *

حاولت التملص من نشأت، لكنه أصر على أن أرافقه إلى أى من محلات الـ vipsالتى يعدها من نعم الله عليه شخصياً، لأنها تفتح طوال أيام الأسبوع حتى الفجر، فتيسّر له ـ متى شاء ـ مؤونته اليومية من الحلويات والصحف والمجلات. وها هو، لم يكد يحيّى الفاتنة التى صادفتنا فى المدخل الفاتن للمحل الفاتن، حتى أسرع بالخروج، فتبعتهُ كما أمرتْ إشارته، وبانتظار التاكسى طفق يردد:

– إزاى تفوتكْ دى يا نشأت؟!

ثم استغرق مع سائق التاكسى الأكبر قلقاً وسخطاً منه ومن فاتنة المحل: ما الذى يجرى؟

كتمتُ السؤال حتى تذكرنى نشأت، وشرح أننا الآن فى حى بروسييريد شمال مدريد، وهذا تقاطع شارع كوراسون دى ماريو مع شارع كردينال سيليسيو: قفْ.

حواجز الأشرطة الحمراء وعشرات الخوذات والبنادق وصافرات سيارات الإسعاف والبوليس وعشرات المتفرجين والمتفرجات: كوماندوس مدريد التابع لمنظمة إيتا فجّر سيارة مفخخة منذ ساعة، ستون جريحاً حتى الآن، لا قتلى، والحمد لله، والحمد لله على اعتقال البوليس فوراً لرجل وامرأة يتخفيان بالشعر المستعار وهويتى البوليس المزورتين: متى ينتهى هذا المسلسل الباسكى؟

همهم نشأت، وكانت التاسعة قد أخذت تذكّر بالغروب، وأنا أتعجله لأوافى دييغو أمام بيته، وقد باخ فضولى لمفاجأته.

فى التاكسى لبد نشأت طويلاً قبل أن يعلن:

– هذا جنون. هذا انتحار.

ثم خاطبنى محتداً:

– كم كلفنا هذا الجنون وهذا الانتحار فى بيروت أو الجزائر أو مصر أو سورية أو فى فلسطين نفسها؟

– هل هذا كله سواء؟

تساءلت بحذر، فقال:

– كله زىّ بعضه.

– وفى دبلن؟

– كله زىّ بعضه.

كرر والتفت عنى، فانطويت أفكر فى أن لفلسطين وحدها ما يفردها، كما كان للجزائر قبل الاستقلال، أو لمصر فى قناة السويس قبل ثورة **١٩٥٢** أو فى حرب **١٩٥٦**. وفكرت فى أن قتل المدنى حرام، ولكن ماذا لو كان هذا المدنى مثل العسكرى، محتلاً؟

ضقتُ بالسؤال كما ضقتُ بجهلى بالباسك وإيتا، فبربرت بالسؤال عن جبروت المحتل وضعف المقاوِم ويأسه: علىّ وعلى أعدائى يارب، فغمغم نشأت بحيرته بين حق تقرير المصير والاستقلال والتحرير فى نهاية القرن العشرين والألفية الثانية، وبداية القرن الحادى والعشرين والألفية الثالثة. عندئذٍ جهرتُ بخشيتى من أن يكون الاستعمار مؤبداً مثل الحرب والقتل، مهما تعددت الأسماء وتجددت، وقاطعنى نشأت، والتاكسى تتباطأ:

– هذا هو دييغو ينتظر.

* * *

مضى نشأت، وسرني أن ديغو اكتفى بإشارة عابرة إلى الانفجار، وظل يحدثني عن الفلامنكو طوال الطريق.

كانت زخّات المطر قد أخذت تعنف قبل أن أغادر ونشأت موقع الانفجار. ولم ينفعني الجرى من سيارة دييغو إلى مدخل هذه الصالة، ليس هرباً من المطر، بل من تقريعك يا بنت ابن باز الثانى، وأنا أفتقد المعطف: "ليش اشتريناه إذا ما بدكْ تلبسه؟". وحين ألجأتنى الصالة الدافئة الفسيحة العامرة، أومأتُ لك مناكداً، فسبقتنى إلى الطاولة، وهفا إليكِ - بدلاً منى - ماريانو وألثوثينا وإيلينا والدكتور زبير الذى التقيته فى معرض الكتاب، وهو من ترجم ما تتغنين به من شعر نيرودا، عدا عن أنه شاعر معروف.

لماذا جلستِ مطرحى مناكدة؟ تعالى إلى حضنى. تعالى فالصالة تغيم هنيهة، وتسفر هنيهة عن بيتِ جدى الطينى الفسيح الدافئ، وأنا أقعى لصق هذا الساموك العتيق الذى يحمل السقف العتيق: أعرق صالة فلامنكو فى إسبانيا، على ذمة الدكتور زبير.

والآن دعينى لمفاجأة دييغو، كى أندغم فى هذه المصطبة الخشبية العتيقة، وهذه الطاولة الخشبية العتيقة، وهذا الشعر الفاحم السارح، ما دام شعركِ قد وفّى النذر وطال، مثل فراقنا الأول: الأول يا هبة والأخير.

الآنَ أنتِ تحلين فى الراقصات الأربع - ماذا حلّ إذن بلوحة بيكاسو؟ - وفى عازف السيمبالوم وعازف الكونترباس وعازف

الكمان وعازف الكلارينيت، وتنتظرين هذا الكهل البدين الذى توسط المصطبة، وانداح فى مواله الإشبيلى - كما يهمس الدكتور زبير - ليندلح الموال فى أغنية، والأغنية فى ربلة صدرك الغامضة، وأنا أتلفتُ بحثاً عن غلوريا كى تنادى خوسيه فيرناندز، أو أى غجرى تشاءين، ويتنحى الكهل، ويصمت كالعازفين.

الآن تبدأ بلانكا ترقّص روحى على رؤوس أصابع قدميكِ، وعلى رؤوس أصابع يديكِ، فيوقّع قلبى نبضه على هوى رقصكِ: انقرى على خشب المصطبة، وارشقينى برموشك السود، وأسرعى، أسرعى يا هبة حتى يدرو بى صوتك الغامض أيضاً مثل ربلة صدر بلانكا: سحر هو: غناء أم موسيقى أم رقص أم جسدك أم روحك أم كتاب للمائدة لا يفتأ يتجدد: حب؟

* * *

وهذه إذن هى الوصلة الأولى من مفاجأة دييغو، للسياح الذين يحفون بنا، كما قالت إيلينا، وأنا أتقراكِ فى ذهول اليابانيين واليابانيات والصينيين والصينيات، حتى يخيم علينا ظل مانويل: مدير الصالة - يقول الدكتور زبير - وهو يقدمه لى، ويعانق صديقه منذ وطئ مدريد، بعدما احتلت بيت أبيه فى حيفا تلك الأسرة الليتوانية اليهودية، فنزح أبوه إلى رام الله، ونزح هو إلى هذه الصالة.

حين وشوشنى:

- بلانكا زوجة مانويل.

دوّم فيّ السؤال :

– من هو زوج هبة إذن ؟

فهتفت : هبة زوجتى ، سواء كنتُ زوجاً أم لا . هبة حبيبتى وصديقتى وأمى وأختى وهذه أنا وأنا هذه . وغارتْ هتفتى فيّ وأنا ألحق بهم إلى الطاولة الجديدة لصق المصطبة : الآن إذن سأكون أقرب إليك من حبل الوريد . وريثما تعودين من سرّك ، سأصدق الدكتور زبير أن من حلَّتْ بكِ أو من حللتِ بها هى بلانكا دى ريل التى طيّرت لتوّها خمسة عشر ربيعاً من قرية قرطبية ، وحطتْ فى أى تابلاو تشاءين ، ومانويل يقرأ ما خُطَّ فى الجبين ، مثل كل من سحرته الغجرية .

سأنادى تاتيانا من قرطبة ، وغلوريا من غرناطة ، وامرأة معلومة مجهولة من إشبيلية ، فمانويل لا يستطيع أن يدع بلانكا تطيّر ربيعاً آخر ، وتاتيانا سترقص فى هذا العرس ، وغلوريا ستغنى نسبها الغجرى المشتهى ، ومانويل وبلانكا سيتزوجان وينجبان .

غير أن ابنة العشرين ربيعاً ، المعلومة المجهولة مثل ابنة الخمسة والعشرين ، لن تكون زوجةً وحسب ، ولن تكون أماً وحسب ، كما لن تكون هبة ، وكما لن يكون أمام مانويل المسحور مثلى إلا أن يسلّم أخيراً : بعد انقطاعك يا بلانكا كل هذه السنين ، سترقصين فى كورال دى لاموريريا .

كان مانويل يمكر ببلانكا . وقد ينزلق الحب بالأنانية ـ هبة عمار من قالت ـ فتنزلق به إلى الوسخ . ومكرُ مانويل وسخ ، لكن بلانكا

رقصتْ حتى عادت عذراء ، كما تقول نظرية عذراء الشام هبة عمار : بلا زوج ، فتطهّر مانويل أيضاً ، لكى ينجو من التجربة .

هبة : هل سنتزوج ؟

لماذا نتزوج ؟

لن نتزوج ،

فبلانكا دى ريل آبتْ من سرها ، كأنها ـ أو لأنها ـ لم تنقطع لحظة عن الرقص طوال تلك السنين . وبعد الانفصال صار مانويل مدير أعمالها وصديقها الأثير ، وراحت تشعّ فى الكورال دى لاموريريا كما فى البولشوى ، وفى القصائد كما فى الحكايات . وسيكتب لها لوركا نفسه ـ من يصدق موته ـ مصححاً نسب الفلامنكو ، فلا سفاح من بعد .

وفى هذه القبعة التى تضحك ، والقدم التى تنقر وتضرب ، والخصر الذى يتموج ، والكفين اللتين تصفقان ، يقوم سحر الفلامنكو القرطبى ، كالغناء الشامى يا عذراء الشام . ولذلك يوالى الدكتور زبير وشوشاته الشارحة ، ولذلك تدعين الفلامنكو القادشى لأى عاشقين أرجوانيين قادمين من أوغاريت ، ولذلك أترنّح لهذا الشال المسحور بكتفيكِ ، ولعطش عينيك ، ولهاتين الساقين السامقتين ، ولهمس القيثارة وانفجارها ، لذيل فستانك ، لوحشة حزنك : ما السيغريا إذن ، وما الدويندى ؟

هبة : أحبك .

الرسالة رقم ٨

"منتصبة فى حاضرى
الماضى والمستقبل أزهار فصولى
كان يمكن أن لا أكون
وأن أتجاهل هذه القصة
ومصير الحب
مغامرة من دون أى سبب كان" .

أندريه شديد

"فى الأيام الماضية والرسائل الماضية كنت فعلاً أحوم حول ما يجب أن أكتبه لكَ وحدك. كنت أؤجله وأتحاشاه. هل نسيتَ الورقة الصغيرة المدعوكة التى تراسلنا على وجهيها، واكتشفتُ ضياعها فى الحسكة؟ قلت لك فيها إننا بحاجة إلى ما هو أكبر من الوقفة والمراجعة. واستسخفتُ كلامى فى سرى حتى بدأتَ تلمح إلى العكر والارتباك. واستسخفتُ كلامكَ - لا تزعلْ - حتى صرت تصرح بالتهجئة والتهجى والمواجهة والفحص، فقلقت.

الأمر جدى إذن يا سعد. وقلقى كبر جداً عندما سمعت اقتراحك العجيب الذى ليس إلا شكلاً للقطيعة - لا إيميل ولا هاتف ولا.. - غلفته أنت وغلفته أنا بالسيلوفان، ووفرتْ له رحلتك والجغرافيا إخراجاً عجيباً.

لا أنكر يا حبيبى أننى ملخبطة. لا أنكر أن الأمور غامضة. هل من المهم أن أرتب ما ستقرأه الآن؟

أنتَ ورقة بيضاء أمامى، وورقة ياسمين كما صححتُ لك، لكنى مصرة على غموضك. ليتنى كنت قادرة على قراءتك وقت أشاء، وكما أشاء، كما تقول. أتمنى فعلاً لو أنه ليس فيك مثلاً يا حبيبى سر واحد تقدر على أن تكتمه عنى، كما تقول.

إيمانك مثلاً سرّ. العمرة المباركة سرّ. عزلتك فى الضيعة سر. أخوك قتيبة، صداقاتك، عزوفك عن الزواج وأحاديثك فى الحب وتعدديتك فى الجنس.. جرّة مرصودة من الأسرار أنت، وتأتينى بعد

ذلك مغرداً: الرحابة يا هبة، الحرية يا هبة، لسان طليق وخيال فالت يا هبة. يا سلام يا أخى.

على كلٍ أنا أفكر فى هذه الأيام أنك ابتدأتَ معى هكذا، أى: عَلَن. ابتدأت معى حراً وعلنياً. أفكر أننى المسئولة عن تراجعك عن هذا. وفى البداية ساعدنى هذا كثيراً على أن أكون أنا أيضاً ورقة بيضاء. يا حبيبى وحياتك أنا حرة. وحياتك أنا علنية، حتى أكثر من اللازم. وأنت المسئول عن الشرنقة التى صرتُ أحبس نفسى فيها، وصرتَ تحبس نفسك فيها كمان، وكما تقول حتى قبل أن أكذب عليك كذبة عبد النور. لاحظْ: ما قلت أنك المسئول الوحيد.

من الممكن أن يكون الغداء مع عبد النور يوم الثلاثاء قد ساعدنى على أن أبدأ بهذه الرسالة. وما تعلمه يا سعد، وما لا تعلمه، أن عبدالنور ساعدنى فى نشر مجموعتى القصصية التى لم تعجبك، ربما أفضل من أفضل ناشر نشر لك رواية. دار عبد النور قدمتنى تقديماً باهراً كما قدمتْ روايتك الأخيرة. ولكن ما لا تعلم بعضه أو كله أنه كان علىّ أن أرد الجميل. صرت أساعده فى معرض الكتاب السنوى، وفى بعض أعماله الأخرى هنا. أصلاً نحن تعارفنا فى وزارة الإعلام، وكانت أمور داره مع الرقابة معقدة، فيسرتها له، وأنا حلالة العقد وقت الجد، وأحببت عشرته كما أحببتها أنت وسالم وراغدة وإسبر وكل من التقاه، حتى مظهر العبدون.

عندما عرض علىّ التعاون مع داره راقت لى الفكرة. بتعرف ليش؟ فقط لأن فيها سفراً دائماً بين بيروت والشام. صحيح أن

العمل كان متابعة لأمور الدار فى الشام، وأحياناً فى بعض المحافظات، إلا أنى صرت أسافر إلى بيروت مرة كل شهر أو شهرين. صرت أملأ عطلتى الإسبوعية، وأتعرف على جوّ الأدباء والصحافة، أحضر مسرحية، أسهر سهرة صباحية، أكشّ الدبابير التى تتكوم حولى آخر الليل.. وكان عبد النور يصرّ كل مرة على أن يدفع عنى أجرة الأوتيل. كان يهدينى هدية كلما حضر إلى الشام أو سافرت إلى بيروت. وأنا ما زرته مرة إلا حملت هدية لزوجته. والحقيقة أننى لم أر ولم أسمع بزوجين متفاهمين ورائقين مثل عبد النور وزوجته. أنت لا تعرف. لو رأيتهما لظننتهما شقيقين وجارين وصديقين وقريبين ورب عمل وعاملة وربة عمل وعاملاً، وعاشقين، وكله دفعة واحدة.

كان عملى سهلاً ولذيذاً، وتضاعف دخلى. والحقيقة كل ما كان يأتينى من عبد النور كان يذهب إلى البيت، تقريباً. طبعاً صار هندامى أفضل. ثم جاءنى الشبل الكبير وليد. وكان قد خطب من سنتين، ويرفض أن يأخذ غرفة من البيت ويتزوج. الحقيقة أنا رفضت هذا الرأى لأمى. ولأول مرة أسمعها من أبى: يعنى إذا كنتَ اشتريت لنا البيت، ولاّ إذا كان البيت مطوّب باسمك، بدّك تستعبدينا؟ وأكلتها كفين يا سعد.

صنعة وليد ممتازة. مساعد مهندس فى الكهرباء، بسّ بيعجبك. رفض الوظيفة، والورشة التى يعمل فيها تدرّ خير الله، لكن الخير كله يذهب إلى صاحب الورشة، ولا يبقى لوليد ما يحقق أحلامه فى

ورشة مستقلة وسكن مستقل وفى الزواج، حتى بعد عشر سنين.

يا أختى يا هبة ساعدينى. ما لى غيرك يا هبة. يا أخى يا وليد أختك قاعدة على كنز؟ أهل الخطيبة أحرجونى يا هبة. أهل الخطيبة أنذرونى يا ناس. ووليد وفّر كم ألف، وعلىّ أن أستدين كم ألف، وبعد العرس نبحث عن حل. وكما عرفتَ يا أستاذ سعد بطريقة بوليسية وسخيفة، كان عبد النور قد أعطانى ألفى دولار، يعنى مئة ألف ليرة، لأشترى له مراجع جامعية وعسكرية بسعر لا يُذكر، وسيبيعها بأضعاف مضاعفة. وكل أسرار نشر الكتب وتوزيعها كنت قد عرفتها. وعدنى بربع الربح.

أجّلتُ الشراء، وعملنا العرس، وعزمتك، واعتذرت بلباقتك المعهود ساعة ما تحب. من أين لك بالله عليك غلاظتك المعهودة ساعة لا تحب؟

عجزتُ وعجز وليد عن تدبير المبلغ، وأنا أماطل عبد النور. نعم يا سيدى: كذبت عليه، وكذبت عليك فيما بعد، ويمكن طمعت بنصف الربح، بل بالربح كله، ليش لأ؟

صار عبد النور يلح وصرت أتهرب. جاء إلى الشام كذا مرة، ولم أقابله، وتحركتْ ظنونه، وساءت، فاشتكى لك ولغيرك.

لا أريد أن أرجع إلى الوراء. لا أريد أن أتذكر كلامك: من يكذب مرة يا هبة يكذب كل مرة. على من كذبت أيضاً؟

راغدة سمعت بالموضوع، وسالم، وإسبر، ومن أيضاً لم يسمع؟ إما من عبد النور أو من سعد أيوب أو من فلان وعلان.

باعت العروس الذهب، واستدان وليد ما استدانه وجاءنى بستين ألفاً. وليد ممتاز فى كل شىء كما أقول لك دائماً، وأنت مصرّ على أنه الشبل الكبير. بكيت عندما جاءنى بالمبلغ. وليد غير محمود يا أستاذ، وما أكثر ما غطى علىَّ أمام أبى، حتى بعد زواجه وخروجه من البيت. مرافقتى لبعثة التنقيب الأميركية إلى مغاور يبرود، وليد هو الذى نجّانى من شرها، وليست الدولارات وحدها كما تقول. ليست الدولارات وحدها على الأقل.

اشتريت الكتب لعبد النور، ولكن بعد شهور سميته فيها عبد جيبه. وأرسلت الكتب مع رسالة: لكَ بذمتى ٨٠٠ دولار، ولا أريد حصتى من الربح. وكان حبيبى درى بالكذبة التى لن يغفرها.

للرجل بذمتى حتى اليوم مئة وخمسين دولار. يجب أن تعلم وإن كان هذا سيزعجك. ولأنه سيزعجك كتمته عنك، أم إن عبد النور لا يخفى عنك أمراً يخصنى؟

وأنا أكتب لك أفكر فى أن هذا الموضوع لم يكن وحده سبب ما حلّ بى: خدى ويدى طوال تلك الشهور المرّة.

أنا عصبية، نعم، وعصبيتى زادت فى تلك الشهور ولم تنقص بعدها. ولكنى أتساءل: هل كنت أنت السبب؟ لا أقصد وصمك لى بكيت وكيت: كذابة ونصابة. يا حيف عليك يا سعد. ما أقصده أن يكون السبب حبك الذى ظل يدفق فى شرايينى حتى فجّرها. فى كل لحظة يا سعد حبك يدفق فى شرايينى، ويا ويلى إذا فجّرها، ووقعت مرة ثانية. المرة الماضية كانت هينة وعابرة والحمد لله،

وأنت ساعدتنى على أن أنهض منها. لا توقعنى فى غيرها يا سعد.

أنا بحبك يا سعد. وأنت سبحان من رزقك بهذا العقل فجأة: الحب وحده لا يكفى يا هبة. يا حبيبى أنا لست طالبة زواج. كم أذيتنى وأنت تمثل دور المحقق لتكتشف كذبى على عبد النور وعليك، ولا تقبل بمعالجتى للموضوع، وبعدها، لتكتشف ما إذا كنت كذبت عليك فى أى أمر، حتى مما عشت قبل أن أعرفك، وبعدها وقبلها لتكتشف ما إذا كنت كذبت على أى إنسان!

سعد: أنا لست قديسة، وجنابك لست قديساً. أنا كذبت وأكذب وقد أكذب، وأنت أيضاً. لماذا تجعل من الحبة قبة، ولا تقبل بالكذبة الصغيرة أو العابرة أو البيضاء، وتعذب نفسك وتعذبنى؟ لماذا هذه المبالغات، حتى لا أقول المزاودات؟

وحياتك أعلم علم اليقين أن شكوكك ما وقرتنى فى شىء. صرت تستذكر مظهر العبدون والعالم الإميركى، وحتى مسحة كف مطاع على شعرى كم قرعتنى بسببها؟ لذلك كنت أموت وأنا أطلب منك أن نتوقف. ماذا يعرف الرجل عن المرأة؟ حتى أنت يا سعد، ماذا تعرف عن المرأة؟ ماذا تعرف عنى؟

ألا يمكن أن تكون للرجل إلا عين رجل؟

أنا لا أعلم ماذا تفعل فى مدريد مع فلانة أو علانة. يا ترى لو علمتَ أننى كدت أستجيب ـ فقط كدت ـ لفلان أو علان، ماذا ستفعل؟ حتى لو كان مطاع أكرم مثلاً، ماذا كنت ستفعل؟

كل هذا لا أعلم ما قيمته الآن. سيادتك فرضتَ علىّ وعلى

عبدالنور أن نتجاوز ما كان، ولكَ الفضل. فهل تجاوزته أنت؟ ما الذى تخبئه ولا تستطيع أن تتجاوزه؟

خبأت عنك الكثير، وسأخبئ. ولكن قل لى، بربك، ألا يكفى بعض ما أعيش حتى يجعلك لا تعرف كيف تكتب مقالة؟ ما بالك بمن تكتب رواية؟ بل أول رواية؟

حتى الرواية صارت عقدة جديدة لحبيبتك، وليس فقط بسبب ما أعيش فى البيت وخارج البيت، بل بسبب حبيبى.

عزوفكَ عن الكتابة شلل لى وليس لك وحدك. حضرتك يا خفيف الظل تقول: أنتِ شُللتِ من الخارج وأنا شُللتُ من الداخل. أنتِ عوفيت من علّتك، وأنا علتى تكبر وتزمن. يا هناى فيك ويا سعدى.

كما أنقذتنى يا سعد سأنقذك. استعد للمرحلة القادمة بعد عودتك بالسلامة. حتى لو رجعت لى معافى، استعد للمرحلة القادمة، وكفانا فذلكة. قال شو؟ قال تهجئة ومراجعة وفحص ومواجهة ووقفة و..

الحب وحده يكفينى يا سعد. الحب وحده كفيل بكل شيء. الحب وحده كفيل بالموت، يأتى واحدَنا به ويرجعه منه، فكيف بالشلل، سواء كان برانياً أم جوانياً؟

دوّخنى حبك يا سعد وأنا ..

نسيت أن أنقل لك هذا الخبر: راغدة وسالم تزوّجا على سنة الله ورسوله، والتحقت الزوجة ببيت الزوج، وهما ينتظران عودتك

بفارغ الصبر.

سعد: حضرت دورية قبل ساعة وأخذوا محمود ونبشوا البيت وشرشحونا شرشحة. عمرى ما فزعت مثل هذه المرة.

تعال يا سعد .."

مدريد ٨

"للحكاية سحر كبير، والبقية ما تزال في القلب"

واسيني الأعرج

.. مردداً ما روى سيدى الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه : كنتُ أستحى من أن أنظر إلى وجهها وحمرة خديها وحُسْن نعتها وجمالها، وهى تزيد على الخمسة والتسعين، وأنا فى خدمتها لسنين.

فكرتُ فى أن محى الدين بن عربى، مهما شطح، فقد جمعته إشبيلية زمناً مع فاطمة بنت المثنى. ولو أن مارتن ألونسو أو كارلوس دى باديلا قالا ما يقوله ماريانو غونساليس فى العجوز الإشبيلية المعجزة، لظل الأمر أهون مما يزعمه ماريانو، الذى تابع بحماسة أكبر :

– كان عليكَ أن تزورها ما دمتَ زرتَ إشبيلية. وأنت لم تزر إشبيلية ما دمت لم تسمع هزجها : لقد أعطانى حبيبى فاتحة الكتاب تخدمنى، فوالله ما شغلتنى عنه. أنت لم تزر إشبيلية ما دمتَ لم ترها تضرب بالدف وتنشد : والله إنى أفرح حيث اصطفانى لنفسه. وعزة ربى لقد يغار علىّ غيرةً ما أصعبها. وأنا ماريانو غونساليس رأيتها رأى العين، وسمعتها تخاطبنى كما خاطبت سيدى الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه : أنا أمك الإلهية. وسمعتها تخاطب أمى كما خاطبت نور أمَّ سيدى الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه : يا نور هذا ولدى، وهو أبوك، فبرّيه ولا تعصيه.

وما كان ذلك إلا خاتمة ما استبد بماريانو طوال زيارتى وألثوثينا له فى مكتبه الضائع فى المكتبة الملكية، دون أن تنفع نظراتى إلى الساعة، ولا غمزات ألثوثينا له مذكرةً بالوقت. ولأنه كان جاداً جداً فيما استبد به طوال

الزيارة، ولأننى لم أعد أحتمل، خاطبتُ ألثوثينا :

– ماريانو مولع بالعجائز فيما يظهر، ويقال إن الواحدة منهن فى الستين تمصّ خير الرجل مصاً وتشلحه كالخرقة، فكيف إذا قاربت المائة مثل غريمتك الإشبيلية ؟

فالتفت ماريانو عنى ممتعضاً، وقال :

– سامحك الله.

واستجابت ألثوثينا لمزاحى فَزَقَتْ :

– قليل من الصوفية ينعش نفس الإنسان.

هل يمكن أن تحلّ العقاقير محلها فتغنى الإنسان عن التجربة ؟

سألتُ ماريانو ساخراً، وأنا أفكّر فى حديث نشأت رجب عن المستقبل، لكن ماريانو حدق فى ألثوثينا لائماً، ووقف، فهللتْ للفرج الذى حلّ أخيراً، واندفعتُ أسابقها إلى سيارته.

* * *

أمام الجامعة فارقتنا ألثوثينا وأنا أسألها عن أصغر أستاذة فيها تخشى أن يطير مكتبها منها. وأصرّ ماريانو على أن يوصلنى إلى أمام بيت نشأت، خوفاً من أن أتوه عنه. ولأن نشأت بدا مكموداً، ولأن طقس بيته الغامض لفعنى، رجوته أن يعجّل بكأس ـ أى كأس، فجاءنى مع الكأس بمغلف كبير، وقال :

– فى هذا كل ما تحتاجه لزيارة سرقسطة.

أزحتُ المغلف والكأس متسائلاً عما به. وكأنما كان ينتظر ذلك، لتعصر راحتاه كأسه، قبل أن يزفر ثم ينوس :

– لم تحضر تاتيانا .

– ربما تنتظر حتى أسافر .

قلت ممازحاً ، فتنهّد ودفع كأسه بعيداً ، فقلت مشفقاً :

– تحبها ؟

– الأهم من مزاحك ومن حبي أنها لم تحضر ، وليست في عملها ، ولا في بيتها ، ولم يرها أو يسمع صوتها أحد من أصدقائنا المشتركين منذ ثلاثة أيام .

كان صوته يرجف ، ولم أصدق أنه يطوى كل هذا القلق والألم . وقربتُ كأسه إليه ، فهمس :

– أخشى أنها في خطر .

ولم أجد ما أقوله إلا أن أتساءل عما إذا كانت قد وقعتْ من جديد في شرك عصابة من عصابات الدعارة الدولية ، لكنه قال :

– أخشى أن الأمر أكبر . لا تنس أن تاتيانا كانت في تل أبيب .

عدتُ إلى المزاح لأخفف عنه :

– الموساد هو من اختطف تاتيانا . احذرْ يا نشأت .

– ما لا تعرفه أن تاتيانا لم توقر إسرائيل ، كما لم توقر عصابات الدعارة ، منذ عادت إلى موسكو حتى اليوم . طالما قلت لها : بدلاً من عدو واحد لك عدوّان ، وكل واحد منهما يهدّ موسكو نفسها على من فيها .

كان صوته يأتي من بعيد ، ونظراته تذهب أبعد . وداهمني الخوف عليه وعلى تاتيانا ، ومنها ، وفكرت في غلوريا وديفيد ومؤسسة أحلام تور هنا أو في قرطبة أو في تل أبيب ، وتساءلتُ :

– هل تكوت تورطتْ مع الموساد ؟ خصام ، غرام ، لا فرق .

– أمس بلّغت رسمياً عن اختفائها . أنا مواطن إسباني أيضاً . وإذا طال اختفاؤها فسأثيره في الجريدة . ليس أمامي إلا الاحتمال الأسوأ ، حتى يثبت العكس .

قال وقد عادت راحتاه تعصران كأسه .

– أرجوك أن تخبرني بأي جديد ، خصوصاً إذا ظهرتْ . لا تدعني أنتظر جريدتك .

همستُ مستسلماً للكدر الذي جلّلنا ، وتعلقتْ عيناي بالباب الذي جحظ مثل عيني نشأت .

***

ولا ريب أن ذلك ما جعلني أملص من اللقاء مع الدكتور علي القيروني في بيت شقيقته السمراء المعجعجة التي تحمل اسمكِ يا هبة ، والتي عرضت إعارتي كاسيتات المسلسل التيلفزيوني (لوركا : موت شاعر) للمخرج خوان بارديم ، لكني تجاهلتُ عرضها . ولعل لعثمتي أمامها وأمام علي بأعذار واهية ، هي ما جعلني أُخلفُ موعدي مع الدكتور زبير بلا اعتذار ، لآوي إلى غرفتي ، وأفرّ أو أَلجأ من سرّ تاتيانا إلى مغلف نشأت ، فأرى المدينة البيضاء ، كما سمى سرقسطة أجدادُكِ الميامين ، على الرغم من اندثار القبرين اللذين ظلاّ يضمخانها بدخانَ أبيض مئات السنين .

لماذا نسب الأجداد الميامين القبرين لصالحين ، وليس لرجل وامرأة

- بالضبط : ليس لعاشقين ؟

غيّب غيابُ الشمس السؤالَ والقبرين . إلا أن الأحجار الناصعة ظلت تفجّر البياض ، فلا حياة إذن فى سرقسطة لأفعى ، أى أفعى . ولذلك يسع تاتيانا أن تخرج من الخفاء ، لنمضى معاً : هى وأنتِ ونشأت - أو إسبر - وأنا ، نتراشق ملء نهر إيبرو أو نهير أويربا ، ونهتف مع موسى بن نصير - بعظامه ، لا بشحمه ولحمه : لم أذق أعذب من مياه سرقسطة .

بلا قطرة تبل الريق ، سأتأبط مغلّف نشأت ، وألعب مع تاتيانا فقط لعبة التخفى فى قصر الجعفرية أو فى قصر السرور ، ثم نتلصص - هبة : أنت وأنا فقط هذه المرة - من أية شرفة على البساتين الخضر المنداحة .

إلا أن أشباحاً مروعة ستطلع لنا جميعاً ، وتتقاذفنا من غرفة - زنزانة إلى غرفة - زنزانة ملء هذا السجن الفسيح الذى يغصّ بنقوش حبيبات من سبقوا ، وبأعداد أيامهم المنقضية هنا : تعالوا ندقق إذن فى حساب سالم برهوم : ١٤ سنة × ٣٦٥ يوم +٥ شهر× ٣٠+ ١٤ يوم = ٥٢٧٤ يوماً .

كيف كانت سرقسطة إذن ملجأ المثقفين أثناء حرب الطوائف ؟

غيّب شروقُ الشمس السؤالَ والسجن ، ونحن ثملون بغناء أولاء الجوارى المحسّنات اللواتى لم يزل ابن باجة يعلّمهن . وفيما يتوحد الغناء الإسبانى أى النصرانى بالغناء البغدادى أو الشامى - أى العربى الإسلامى أو المشرقى - ليتخلق الغناء الأندلسى ، سيكون

علينا أن نكحل نوافذ وأبواب وأسطحة المدينة كلها بالجصّ الأبيض ، ليتأكد نسبها اليمنى . عندئذٍ تستطيع تاتيانا أن تقود جوارى ابن باجة إلى ملتقى الديانات الثلاث فى لوسينا : الفرقة السرقسطية للألحان الأندلسية الكلاسيكية ، وما إن يُسْكِر الاحتفال غلوريا حتى ينازع ديفيد تاتيانا على قيادة الفرقة ، فينبعث ابن باجة من الدخان الأبيض لقبرى الصالحين العاشقين ، وتبكى غلوريا ، ويهاجر ديفيد إلى إسرائيل ، وتصلب تاتيانا نفسها على هذا العمود ، ونحن نلونها بالأزرق والأحمر ، وهى تندغم فى زخرف طائر فريد : من قال إذن بتحريم التجسيد فى زخرفتنا ورسومنا وعمارتنا وأى فن من فنونا المسلمة ؟

غيّبكِ السؤال يا هبة ، وغيّب تاتيانا ونشأت - أو إسبر - فلبثتُ وحيداً أنتظر فى المطعم المغربى - أى العربى المسلم ، وليس الأندلسى - قرب كنيسة اللاسيو ، أى قرب الجامع الكبير . وسيطول انتظارى ، مثل مغلف نشأت ، ريثما تلفظ قواربُ الموت المهاجرين سراً ، فيهرب ميت منهم من المدرسة ، ويسرق حىٌّ سائحاً ، ويشيد حىّ قاعة مسيحية للاحتفالات فوق قاعة مسلمة ، ويرقص ميت وسط صالة الذهب - على تاتيانا أن تظهر الآن وهنا - ويقرأ ميت (شجرة الحكمة) على يدى فصحون السرقسطى ، ويقرأ حىّ (كنز الفقير) على يدى ابن الفوال الذى ينادى : غلوريا : أنا يهودى وأندلسى وعربى و . . ولست صهيونياً ، ولن أدمغ أو أزاوج أو أقايض إسبانيتى بالجنسية الإسرائيلية ، كما فعل عاشقكِ ديفيد . وبينما كان نداء

ابن الفوال يتلاشى، شرعت أعيد البروشورات والخرائط الصغيرة إلى مغلف نشأت. وحين انتهيت ناداني أبو الفضل بن حسداى اليهودى الأندلسى العربى الإسبانى، لأشهد على الجارية التى ذهبت بلبّه، فخلع إليه دينه، وعلم بذلك صاحبها، فزفّها إليه، فتجافى عن موضعه من وصلها، أنفةً من أن يظنّ الناس أن إسلامه كان من أجلها.

* * *

ما الذى جاء بمنظّفة الغرف الآن، وأنا لم أغف بعد؟
ستنام أم ستموت؟

تعقيب على الرسالة رقم ٨

"إنك عينى، فكيف أضحك وأنا أرى عينى تدمع"

عبد الرحمن الجامى

صباح الخير يا هبة :

وحدها رسالتك الثامنة ـ هل ستكون الأخيرة ـ جعلتنى أقرر أن أقدم لك الأوراق التى سوّدتها هنا . افعلى بها ما تشاءين .

أقلقنى اعتقال محمود ، ليس كرمى لك فقط . يبدو أن شقيقك ليس متديناً وحسب ، بل يلعب بالنار ، أى بالسياسة . أخشى أنه قد تورط مع جماعة إسلامية ممن يكفّرون سواهم ولا يتوسلون إلا العنف . بالطبع ستكون جماعة سرية ومعارضة ، وهذا وحده لم يعد مهماً ، فليس من جماعة معارضة علنية ، حتى إشعار آخر .

وأقلقنى زواج راغدة وسالم ، ربما لأنه قد يجدد السؤال عن مستقبلنا ، أو لأننى أشفق عليها وعليه من أمثولة مطاع أكرم وزوجته : إذن سيعجل الطلاق قبل أن ينجبا ، وقد يظل العزاء بصداقة المطلقين قاصراً .

وأشفقُ على راغدة وسالم من أمثولة إسبر فارس وزوجته ، فقد انقطع سالم عن الدنيا أكثر من أربع عشرة سنة ، وعلق راغدة وعلقته فور خروجه : كيف سيعوض إذن من النساء ما فاته طوال سجنه ؟

سؤال سخيف . كشّرى إذن : والله أحب تكشيرتك .

سأدع أمثولات الزواج ، متمنياً لراغدة وسالم ـ على الأقل ـ ما وصفتِ به عبد النور وزوجته . لكنى أسأل جاداً : أما كان يمكن أن يتزوجا ، وتظل راغدة فى بيتها وسالم فى بيته ؟ ماذا ستفعل راغدة

إذا رجعتْ حليمة لعادتها القديمة وانخرط سالم من جديد فى أى شق من شقوق الحزب الشيوعى أو فى سواه ، ورماه ذلك بجانب شقيقك محمود ؟

أعلم أن راغدة ما كانت تريد من إسبر إلا الحب ، وما أرادت من سالم إلا الحب . هو أيضاً كذلك . ولم ترد كلمة زواج على لسان أحدهما حتى ليلة سفرى . ما الذى حصل ؟ هل ألفتْ راغدة إطلالة بيت سالم على بردى الأنحل من المنشاناريث ، و . . ولم تعد تقوم له قائمة دون الزلّوع ؟

لقد جعلتنى فى رسالتك العتيدة مثل محمود محققاً ، وجعلتِ طريقتى بوليسية وسخيفة . ولا أشك أنى كنت وأنها كانت أسوأ من ذلك . ولكن ما سرّ ما أصابك وما أصابنى فيما كتبتِ ؟

وددت أن أقول لديبيغو البارحة وهو يهنئنى بصدور ترجمة روايتى : حرن قلمى منذ عرفتها . فى غيابها فقط كتبت . معها صرت كاتباً شفيوياً . فى غيابها فقط كتبت . أعجزنى الحب عن الكتابة مثل العكر والارتباك . فى غيابها فقط كتبت ، وأنا أحبها ، وأنا عكر ومرتبك .

من منهم قال إن كلاً منا سَحَرَ الآخر ؟

هل أعيد عليك لغط تاتيانا بالسحر ، كى تعيدى علىّ لغطك بسحر القبلة وسحر النظرة : بوسْتكْ لخدى ونظرتكْ للشامة كانت الدوا ؟

سأعيد عليك فقط لغطك بسحر الكتابة فى ضحى أوغاريت ،

وأنت تطبعين الكون بالأرجوان: هى ابتداع واقع لا وجود له، علاقات وعلامات وإشارات وبشر وأفكار وأحداث وأزمنة وفضاءات وأفعال فى اللاوعى وفى الوعى: سحر اللغة يا سعد، سحر اللعب، تماماً مثل سحر الجنس أو الموسيقى أو العشق. هل نسيتُ كلمة من كلماتك؟

لنكنْ مسحورين بالحب، شو يعنى؟

ليكنْ الحب سحراً، أو لا، المهم أنه نحن، وبالضبط: أنت. فلْتشتبكْ كلماتنا الآن كما اشتبكت أنفاسنا، وكما اشتبك عيشنا.

ليكنْ الحب وهماً، شو يعنى؟

ليكن حقيقة أو خديعة، شو يعنى؟

كان مظهر العبدون يردد إبّان انكسار صداقتنا:

– الحب القائم على الجنس هو الأقوى. الحب ليس إلا رغبة على هامش للجنس.

وقد ناكفته مراراً:

– الجنس والمال والسلطة ثالوث غير مقدس، لا يرتوى، وإن كان الجنس يشيخ، والمال والسلطة لا يشيخان. وأنت يا مظهر مبتلى بالأدواء الثلاثة التى لا برء منها، وليس لذنب صاحبها اغتفار.

هبة: رسالتك الثامنة، بل رسائلك جميعاً، وكل ما تهيأتُ بكتابته للقائك، يفتت الكلمة ـ الحب، فإذا بها الغيرة التى تفاقمت براغدة وإسبر ـ مثلاً، فانظرى إليهما الآن ـ وإذا بها التديث يُسْكِتنى عن مطاع أكرم ـ أو مظهر العبدون أو من أجهل ـ معك، وإذا بها

البَهْت كلما لقيتكِ أو جاء ذكركِ، وإذا بها اشتهائى واشتهاؤكِ، وإذا بها الألفة والوحشة والبتر والقلق والتحدى والتباعة والندية والحوار والملل والاختلاف والنفار والغدر والبين والهجر و.. وكثير أيضاً يمور فىّ وتقصر عنه عبارتى: أين كان هذا كله فى البداية؟ وإلى أين سيمضى؟

هل استوفت حكاية الحب حاضرنا وماضينا؟

هل بدأنا ـ نبدأ مسألة الحب: حاضرنا ومستقبلنا؟

هل آن لنا أن نفترق؟

مدريد ٩

"كل شيء مكتوب بالضوء
لا شيء مكتوب"

خوسيه مانويل كابابييرو بونالد

.. أصرّ دييغو على أن يحتفل فى بيته بصدور ترجمة روايتى، كما أصرّ على أن نتكوم فى المكتبة، على الرغم من اعتراض زوجته. وسرعان ما ضاقت بنا المكتبة التى يضيع فيها الجمل، مثل مكتبه فى الجامعة: إيلينا التى لا زالت تماحك دييغو فى أن دارها التى نشرت الترجمة، هى الأَوْلَى بالاحتفال الأول، كريسبولا التى ترجو أن تظل مديحة شريكتها فى الترجمة، مديحة التى تطالب بالعصير ـ على الأقل ـ فوراً لأنها لن تمكث سوى نصف ساعة، بعدما أنذرتها المدرسة العراقية بالفصل ـ تحمّلنى وتحمّل عبد النور وزر تكرار غيابها.

توسطتُ ماريانو وأنطونيا: هو يحوص لأن ألثوثينا تأخرت، وهى: عسل الملكة: همستُ بالعربية، فلم تأبه. كررتُ بالفرنسية، ثم بلغة اللالغة، فلم تأبه. استنجدت بدييغو الذى قهقه، وفضح بالإسبانية همستى، فشهق الجميع إلا أنطونيا، فاستسلمتُ، وقد بدتْ لى عازمة على أن تغتصب أحداً، الآن وهنا. وعلى الرغم من أننى كذّبتُ أن أكون غايتها، فقد جرؤتُ أخيراً على أن أرمقها، وإذا بنشأت يملأ الباب، وإيلينا تسألنى:

– بدّلت موعد الطائرة؟

أشرتُ نافياً، فقالت:

– حتى لو لم تؤجّلْ سفرك، ستحتفل الدار بصدور الترجمة، ولن تكتفى بصحفى عربى واحد.

وأومأت إلى نشأت الذى شارك فى الضحك، فوشوشته:

– أراك اليوم أفضل. لا بد أن تاتيانا ظهرت.

فأشار نافياً، وكان ماريانو يسألنى:

– لن تذهب إذن إلى سرقسطة؟

– بفضل نشأت ذهبت ورجعت.

قلت، فخاطب دييغو الجميع:

– سعد أيوب يظن أن الأندلس فى الشمال وليس فى الجنوب، لكنه سيبدل رأيه لو أجّل سفره، وزار سرقسطة.

ثم التفت إلىّ حادباً:

– لا عذر لك. إذا رغبت يمكن أن أدبّر لك مخبأً فى سرقسطة. اكتبْ هناك على كيفك.

حصتُ بتخمتى الأندلسية، وبرهق السفر خمسمائة كيلو متراً بالسيارة، كما يرتب للرحلة هو وماريانو، وكدت أن أصرح بأن علىّ أن ألبى نداء هبة وأعود فوراً، وعلا لغطهم، وضاعفه حضور ألثوثينا وذهاب مديحة، وفجأة هدأت المكتبة، وزالت آثار الاحتفال: متى قامت زوجة دييغو بذلك؟ ومتى رحلوا؟ أين بروسّه؟ ألا تقيم ابنتك الوحيدة فى هذا البيت يا دييغو؟

غصصتُ بوداعهم وأصابعى تحضن الهدية المشتركة لدييغو وإيلينا ـ كاسيت لعزف لوركا على البيانو ـ وغصصتُ برجاء مديحة الذى لا يُقاوَم كأنه حسم لا يُقاوم:

– لأنها ليلتك الأخيرة، سنمضيها معاً. تبيت عندى إذا نمنا،

وأوصلك إلى المطار.

ووقفت لاجئاً إلى الرفوف التى تواجهنى من المكتبة، وقال دييغو:

– الجناح الأندلسى بالعربية والإسبانية والإنكليزية.

دارت نظراتى فى أرجاء المكتبة، ولم أصدق أنها تكبر ثلاث غرف كبيرة، وهى التى غصّتْ للتو بعشرة أشخاص، والتفتّ إليه، وظلال الوداع تحاصرنى:

– أشعر كأنى لم أزر الأندلس. كأنى لم أقرأ عنها حرفاً. أشعر كأنى لم أزر إسبانيا.

وتهالكت بجواره، فربّت على كتفى قائلاً:

– الأندلس هى إسبانيا. كررت هذا أمامك مراراً. الأندلس حلم.

– كانت حلماً وكانت كابوساً.

– ربما. الماضى مهم، لكن الحاضر والمستقبل أهم. الأندلس حلم الحاضر وحلم المستقبل.

– الحلم تبدد. لا أقصد تقويض ما كان للعرب أو للمسلمين. أريد أن أقول: الحلم تبدد على يد كولومبس.

– إذا كنت تقصد على يد الحلم الأمريكى، فأنت محق. الحلم الأمريكى لم يبدد الحلم الأندلسى وحده. لا تنس حلم الهنود الحمر. الحلم الأمريكى بدد الحلم الأوروبى أيضاً، بدد الحلم اليابانى، الحلم الروسى، قل: الحلم الشيوعى. الحلم الأمريكى يبدد جميع الأحلام ليبقى وحده.

– والحلم الصهيونى أو الإسرائيلى؟ لن أقول: الحلم اليهودى.

– هو والحلم الأمريكى واحد. للأسف، ما عدت أستطيع أن أميز بينهما.

– وأنا ما عدت أستطيع التمييز بين الأحلام والكوابيس، من قبل الأندلس إلى ما بعد أمريكا، لم أعد أستطيع.

– إذن هناك ما هو بعد أمريكا؟

– ربما. من كان يصدق البارحة أن هناك ما هو بعد الاتحاد السوفياتى؟

– ألا تصدق أن هناك ما هو بعد إسرائيل؟

– بالتأكيد.

– لذلك قلت لك منذ البداية: الماضى مهم، لكن الحاضر والمستقبل أهم: هذا هو الحلم الأندلسى، وليس الحلم الأمريكى أو الإسرائيلى، ليس الحلم الشيوعى مع احترامى لنوازعك الماركسية أو الشيوعية.

أحسست بالامتلاء، ووقفت راغباً فى احتضانه، وقلت:

– الأندلس هى إسبانيا على ذمة دييغو. قل إذن سعد أيوب تَأَسْبَنَ.

فقهقه وسرت بخطى فسيحة إلى أقصى المكتبة، حيث تطل صورة إيجناثيوسانشيث ميخياس، وإلى اليمين تطل لوحة لفنسنت كولوم، وصحت به:

– مصارعة ثيران أيضاً؟

– ماذا تتوقع من دييغو ؟

سأل وهو يقترب، واستدرتُ إليه فحالت دونه صورة كبيرة له شاهراً قبضته وسط جمع، ولا بد أنه كان يهتف، وجاء صوته أسيان :

– هذا ما تبقى من المظاهرة التى قمنا بها هنا ضد مجازر إسرائيل فى صبرا وشاتيلا .

كنا الآن متقابلين، وغصصتُ وأنا أقرأ فى عينيه وداعاً، وتهت بين الفرح به والبكاء، واستسلمت لعناقه، وتلقفتُ القبلة التى حملنى إياها لهبة، ولو كنت قادراً على النطق لرددت خلف إيلينا : دييغو ليس أستاذنا فى الجامعة فقط . دييغو معلم للمجتمع، ولا بد أنى كنت سأضيف : لو جئت إسبانيا فقط من أجله، فهذا يكفينى، ولو عدت من إسبانيا بصداقته فقط، فهذه تكفينى .

* * *

لم أكن قادراً على احتمال الوحدة بعده، لذلك أنقذنى هاتف مديحة :

– بعد ساعة ستحضر غلوريا . تأخذان حقيبتك إلى بيتى، ثم نلتقى قرب المركز الثقافى الإسلامى . أرجو أن تضاعف زيارتى لهم برفقتك ما سيشترون من الكتب . بعد ذلك أنا تحت أمرك .

هبة : سيكون شفيع بجوارنا يقظان . اطمأنى . ولا يعقل أن يتركنا الدكتور على . اطمأنى . ولكن ماذا لو تبادلنا، وكانت ليلتكِ الأولى مع .. مع من ؟

من نظراتك الملتبسة هربتُ . وبانتظار غلوريا أودعت فى الحقيبة الكبيرة الفاز الذى حملته لك من مطعم منية الأطرش، ومنشورات معهد الدراسات النسائية، ولوحة لوركا : الحب ـ تذكرى دائماً أنها من غلوريا ـ والكاب، وطبق الفلامنكو الذى خصّك به خال غلوريا .

ولأنى لم أحمل شيئاً إلا لكِ، أودعت فى الحقيبة الصغيرة البروش الطليطلى أيضاً، وكاسيت ماريانو وكاسيت دييغو وإيلينا والقرطين : هداياك التى أودعت أحلاها فى صدرى : عيد عذراء مدريد وعيد طليطلة وعيد إشبيلية . أما أوراقى، فكنت لا زالت حائراً فى موضع لها عندما حضرت غلوريا : لماذا هى متجهمة ؟

إلى موقع من شارع سلفادور دى ماداريا وافينا مديحة . ومشينا صامتين إلى موقع آخر، ثم تقدمتنا مديحة إلى الرصيف الآخر، فإلى الدرة القرطبية ـ همستْ ـ بينما كان شاب فارع وقاتم السمرة يلاقينا مشرقاً، ثم يقودنا بشروحه، من بوابة المركز إلى زخارف صحن المسجد الخضراء الكامدة، فإلى النوافير التى جعلتنى أهمس لغلوريا :

– كأنها نوافير الحمراء .

فهزتْ رأسها، فتباطأتُ لأنأى عنها، ومضى الشاب بنا إلى مخبر اللغات وقاعات الدرس راجياً الله أن تساهم فى تربية أبناء الجالية الإسلامية . ورأيتنى أكاد ألتصق بغلوريا، فارتددتُ وتشاغلتُ بالآيات المحفورة على الخشب المحروق، وكان الشاب يخاطبها باعتزاز :

– هذا كله أُنْجِزَ فى قرطبة.

فهزّتْ رأسها دون أن تنظر إليه، وربما كان ذلك ما جعله يسرع بنا من الأقواس المزدوجة فوق الأعمدة الرخامية إلى الموضئات فالمكتبة، وأنا أتحاشى النظر إلى غلوريا أو الاقتراب منها، لكننى رأيتنى فجأة أكاد ألتصق بها، وتنبهت فجأة إلى غياب مديحة منذ غادرنا صحن المسجد، وكان الشاب يخاطبنى باعتزاز:

– إن شاء الله ستستوعب المكتبة خمسين ألف عنوانٍ.

أمّنتُ على دعائه كرمى لمديحة وعبد النور، وظللت أنأى عن غلوريا حتى التصق مقعدانا فى الكافتيريا، قبالة الشاب الذى كان يفيض منذ حين بأصله التونسى وجنسيته الفرنسية ـ لم يكن إذن بين من رأيت من حمولة قوارب الموت إلى سرقسطة ـ ودراسته الجامعية فى أوستن. وعندما مسّ ذراع غلوريا ذراعى، ولم ينأ أى من الذراعين، أخذ الشاب يعدد مراكز بيع اللحم الحلال فى مدريد ـ ومنها واحد فى هذا المركز ـ والمراكز الإسلامية فى إسبانيا، وفجأة حدق فى غلوريا، وقال:

– ملامحك أندلسية.

– بفضلكم.

قالت، وبدا الشاب حيران مثلى بين الهزل والجد أو الفخر والاستفزاز فى صوتها. وأخذتْ جلسته تتبرم مثل نظراته وحركات يديه حتى ظهرت مديحة ضاحكة: هل نفعتْ زيارتى للمركز؟ وأيهما أكبر مهارة فى التجارة: مديحة أم عبد النور؟

* * *

عاودنى السؤال عندما سلمتنى مديحة حصة عبد النور ـ كنا الآن فى بيتها ـ وكشفاً بالمبيعات والنفقات والكتب المتبقية. وسرعان ما اختلطت شكواها من ضآلة حصتها بما ترسم منذ الآن، ليس لمعرض قادم وحسب، بل لتسويق الكتاب العربى فى إسبانيا. وقد يصل ذلك بقوة بين مديحة وعبد النور ـ فكرتُ ـ وقد يسعّر التنافس بينهما، وقد يكون بينهما ما كان بين هبة وعبد النور. وما كدت أُلْمِحُ إلى ذلك حتى وقفت غلوريا، والتقتْ نظراتنا لأول مرة منذ غادرنا غرفة السكن الجامعى.

كانت عيناها مترقرقتين وشفتاها مزمومتين. ووقفت مكذباً أن تكون موشكة على البكاء، بل الانفجار. وتجرأتْ كفاى على كتفيها، وربما احتضنتُها أو احتضنتنى، وقبّلتُ شعرها، ولما خرجتْ أدركت أننى مسافر حقاً قبل شروق الشمس.

وفى غرفة شفيع غابت مديحة طويلاً. ولما عادت كان يموج بها فستان من السماء: زرقة صافية يفجؤها اربداد غيمة، بل يشقها وميض برق أو التماعة عينين. ودارت مديحة حول نفسها دورتين، فصغرت عشر سنين، بل عشرين، وتدافرت كلماتها:

– كدتَ أن تسافر دون أن نلتقى وحدنا ولو ساعة. أرجوك اغفر تقصيرى معك. رأيتَ بنفسك كيف ألهث طوال الأسبوع. أنتَ أيضاً انشغلت عنى.

وقفتُ مشتتاً بين مقتى للوداع وقرب لقائنا وفتنة مديحة الطاغية

ـ أين كانت هذه الفتنة كامنة منذ رأيتها أول مرة فى كلية الآداب فى حمص حتى هذا العشاء الأخير الذى اختارت له مطعم باليار فى شارع بلباو ؟

كى يتوه الجواب قلت :

– ليت غلوريا سهرتْ معنا .

– أردت أن نكون وحدنا ، ولو ساعة .

رّدتْ متظاهرة بالغضب ، وتساءلتُ مدارياً :

– والدكتور عليّ ؟

– ما به ؟

سألت متجاهلة ، أو لا مبالية .

– هل يعرف أننا وحدنا هذه الليلة ؟

غامرت بالسؤال بعد تردد ، وربما كنت أفكر بما سنكون عليه بعد عودتنا إلى البيت ، وقالت :

– نحن صديقان : عليّ وأنا . لسنا زوجين . هل من الضرورى أن يعرف ؟ سيكون وداعى لك امتحاناً له ، إذا ما تزوجنا .

لستُ بحاجة إذن إلى أن يكون الإعلان أكبر عما تنوى لهذه الليلة . ولكن ، أليس من الخسة أن تضمر أو تعلن ، كأنْ لا شأن لى بالأمر ؟ أليس من الخسة أن يكون على موضع امتحان ؟ أليستْ خِسةً أكبر أن أؤول قولها على هذا النحو ؟

ربما بالغتُ فى كرع الكؤوس فراراً من شتاتى المتفاقم منذ الأمس ، وكانت مديحة تكرع كأنها تبارينى ، وتارة تتغزل بعليّ ، وتارة

تفيض أمومة : شفيع هو عالمى ، فلا زواج إذن ، وهى على أية حال قد جرّبت ، فلماذا لا يجرب الأستاذ سعد ؟ لماذا لم يجرب الدكتور عليّ ؟

كانت ثرثرتها الضاحكة ترمينى بزيجات محتملة ـ سالم وراغدة مثلاً حتى غادرتهما ـ وبزيجات مستحيلة ـ أى هبة وسعد ـ ومتقوضة مطاع ومطلقته ـ وهانئة ـ عبد الوهاب بديعة وأم البنين ، أو عبد النور المربع وأم البنين والبنات ـ وملتبسة : إسبر وزوجته ، بل مظهر العبدون وزوجته . لذلك لن أتعرف على الدكتور جوزيف حواش الذى تخلى عن أبوته لشفيع مثلما تخلى عن شيوعيته وعن مديحة .

وحين أعلنتْ أنها تخلت عن الحلم بالدكتوراه ، وخيبتْ أمل دييغو الذى لا زال يحثها على الدراسة ، لم آبه ، إذْ كنت أدقق فى وقدة وجنتيها ـ اختفى نتوء النحول ـ وما أسبغ الفستان السماوى على كتفيها من استدارة ممتلئة . أما ثدياها فلا زالا صغيرين ، وربما لا يزال عظم عانتها يدقر دقراً ، وربما لا زالت تتقصف جرّاء أية هصرة أو عصرة . ولكن مالى ولذلك كله ، وأنا مسافر بعد ساعات ؟ وما هذه الوحشة التى بددت الشهوة ، ليفاقمها ، بعد صخب مطعم باليار ، صخبُ شارع بلباو : شبان وصبايا يتماوجون منذ مساء الأمس ـ الجمعة ـ على ذمة مديحة ، سكارى ومهتاجون ، وبخاصة : مدمنون ، ومدريد ـ على ذمة مديحة أيضاً ـ تستهلك من المخدرات ما لا تستهلكه باريس أو لندن ، مع أنها لا تعادل نصف هذه ولا ثلث تلك ، لذلك قررتْ فرارنا إلى تفرعات الشارع الهادئة وشبه الخالية ،

وتشابك ذراعانا حتى قالت :

– وصلنا .

هبة : فاجأتنى مديحة بقميص النوم، لكأنه كان عليها أن تظل تتموج فى الفستان السماوى، أو أن تعود إلى بنطال الجينز الذى لا أذكر أنى رأيتها فى سواه منذ عانقتنى فى المطار. وشئت أم أبيت هى الآن تقطر شهوة، مثلما كانت أنطونيا.

أما المفاجأة الأكبر فكانت الكاسيت الذى ردد نشيدنا الوطنى فى أصله غير المحرَّف : ولا مرة جمعنا الهوى ولا مرة. الآن هبة هى التى تتموج فى الفستان السماوى أو ترفل فى قميص النوم وتهيئ كأسين، فما الذى كان بوسعى أن أفعله إلا أن أحدثها عن التى سألاقيها غداً؟

ابتدأتُ باعتقال محمود، بل بشراء المعطف من الصالحية، بل بالغرفة ـ العش فى المزة ـ جبل، واستنقعتُ فى عكر الحب وبدده، بل فى الجنس ـ هل كنت أتبذل عامداً؟ ـ بل فى فعل الغياب، وبأقلّ فى فعل الكتابة، لذلك أرانى مقبلاً غداً على أفق جديد، فيكف ستكون هبة؟

هل آن لنا حقاً أن نفترق؟

أجابتنى مفاجأة أخرى لمديحة : أتى عليها الرهق، ولا بد من النوم ساعتين أو ثلاثاً قبل الانطلاق إلى المطار : هل ملّتْ أم خابت؟ أياً يكن فسأتكور على هذه الكنبة الصغيرة، وليس على الكنبة الكبيرة التى انفتحت الآن سريراً يفحّ، ومديحة تصرّ على أنه لى، وعلى

أنها هى التى ستتكور على الكنبة الصغيرة. وكى لا يتحول العناد والإيثار إلى شجار اقترحتْ أن يجمعنا السرير. وحين أضاءت العتمة وجهينا، كان صوت يصدعنى :

– ستنام أم ستموت؟

وكنّا متقابلين، ننسج خديعة ـ حقيقة أخرى لرجل وامرأة. كانت مديحة قد غدت غلوريا التى غدت وداداً أو سعدا، بل راغدة نفسها : صديقة، كما يليق أيضاً لرجل وامرأة، إذْ لا يعقل ألا يليق بهما غير العشق والجنس، فهل كان ذلك ما صاغ كلماتها الأخيرة فى المطار :

– كنت واثقة أنك أخى وصديقى، وأنك تحب هبة وتشتهى النساء. وكنت واثقة أنى أحب عليًا.

ثم حبست الدمعاتُ الكلمات.

الطائرة

«أنا وأنت حبيبان
لم يعرفا الحب
ما يحزنني حقاً
أننا حبيبان أزليان
لن يعرفا الحب
ما يسعدني حقاً
أننا حبيبان
دون حاجة للحب أبداً»

علي حسين الفيلكاوي

سأمعن فى غيابها خوفاً مما أصابنى مع تاتيانا فى قرطبة، أو مع غلوريا فى غرناطة، أو مع مديحة منذ ساعات: خصاء هو أم امتلاء بهبة أم وفاء؟ تحليل وتحريم هو بحسب إيمان سعد أيوب ـ كما يقول إسبر فارس ـ أم نشدان لصداقة أخرى، يمكن أن تُنْعَتَ أيضاً بالأخوة، وليس فيها مضاجعة، وقد يعتورها الاشتهاء؟

هبة تَعِدُ بالعون على البرء مما بى، وغلوريا تَعِدُ. مِمَّ أشكو؟

* * *

بجراب فارغ أعود إليك، أى بجراب نظيف. سيكون ممتلئاً بغير ما انكبّ فيه منذ التقينا، بل قبل أن نلتقى: ممتلئ ونظيف، على الرغم من النسيان، أو بنعمته.

من أجل ذلك ـ ولأسباب أخرى غامضة سنتبينها معاً ـ ومن على هذا المقعد الضيق فى هذه الطائرة الضيقة، أرى بدايات تشتبك، ومسارات تشتبك، ولا أرى نهاية، أية نهاية، من نهاية التاريخ إلى نهايتنا، لتكون آفاق بنا أو من دوننا. وبالطبع، فى ذلك استعادة، وكل استعادة منقوصة، ومختلفة: بناء جديد، أسوأ وأفضل، ولست أعنى نوستالجيا ولا سيرية.

* * *

هم يسدلون الستائر على الكوى ليدرأوا شموسهم. وأنت ترفعين أستارى، وتبدعين من كل كوة أفقاً، فألاقيكِ: شمسى.

* * *

هذه بقعة ساطعة تمخرها الطائرة بلا مبالاة أى: هذه شمس كاذبة، وربما زوائد مشرقة لشمس ما، أى: جسد تشكله على هواها غيمة وسط السماء الصافية.

* * *

بلا الحكى أموت يا من سمّتْ: حكى الصمت، ثم علّلتْ: حتى تستوى الكتابة مع المشافهة، والسر مع العلن، والمكتوب مع المعيوش.

سأترك لك الكتابة والسرّ والمكتوب، ولى الباقى: قسمة ضيزى. ما خَرْجَكْ تبادلى.

كشّرتِ؟

والله أحب تكشيرتك.

* * *

فى غيابها ـ الشمس الصادقة أم الكاذبة؟ ـ تفضضت الغيمة، بل أزرقّ بياضها، بل صارت غواية مذهّبة، وتصير الآن غيمة من ريش، وكل ريشة من لون، فأشهد من هذه الكوة نسيجاً يتشكل بالاشتباك، ودوائر ناقصة أو مفرغة، تتلاحم مثل فوهات داكنة ومتقدة: جسد لا يفتأ يحيا ويموت، سوى أن حياته عابرة، وموته مقيم، وربما هو أيضاً روح مخلدة: هذا ما أعلم حتى الآن.

* * *

وفى غيابها يشق السؤال عن الكتابة كوى الطائر طرًّا: سترٌ هى أم نبش؟ ردمٌ أم حفر، دثار أم كشّاف؟

في غيابها سيكون لعب، سيكون تاريخ، ستكون هي: شكل ضد ومفتوح، حدوث وحدوس، جذور وسوق، تفرد وشهوة وتغيّر وتعدد وتناسل وتكثير ومحايثة ومفارقة.

في غيابها ستكون مصادفة وتخطيط وتناص، ولن يكون قصد ولا اكتمال، لا مركزية ولا تراتبية، لا نمط ولا بلاغة ولا تعالٍ. ستكون حرية، كأننا معاً نقرأ رواية، أو نكتبها.

ستكشرين وتقولين:

– هذا من الحداثة ومما بعدها، وهذا ..

والله أحب تكشيرتك.

وإنني لأسمعك الآن تتساءلين قلقة على عتبة مغارة مثل هذه الطائرة، عن غياب الثقة والوفاء والتضحية والصدق والعطاء، بغياب الغايات والمثل الإنسانية الكبرى، وقيام الأنانية والشهوانية والاستهلاكية.. وثمة من يقاطعك ساخراً:

– علاكْ، حكى فاضى، أكل الزمان عليه وشرب. خلّى عينيكِ ع المستقبل.

لكنَّ صوتاً يملأ الكون:

– هذا هو غياب الحب.

هبة: أحبك، وإن يكن قد آن لنا أن نفترق.

اللاذقية ٢٠٠١-٢٠٠٢

عرفان

لبيدرو مونتابث، فلولاه ما كان ديبغو في هذه الرواية. ولملك صهيوني، فلولاها ولولا مونتابث - بخاصة - ما كانت هذه الرواية.

ولرفعت عطفة الذى تكرّم بتدقيق المسميات الإسبانية.

الكـاتب

* **نبيل سليمان**

- روائي وناقد من سوريا

* **صدرت له في الرواية عدة أعمال منها :**

- ينداح الطوفان : الطبعة الأولي ١٩٧٠ ، الطبعة الثالثة ١٩٩٤ .
- السجن : الطبعة الأولي ١٩٧٢ ، الطبعة الخامسة ١٩٩٩ .
- جرماتي : الطبعة الأولي ١٩٧٧ ، الطبعة الثالثة ٢٠٠٣ .
- مدارات الشرق «في أربعة أجزاء» .
- مجاز العشق : الطبعة الأولي ١٩٩٨ ، الطبعة الثانية ٢٠٠١ .
- سمر الليالي : الطبعة الأولي ٢٠٠٠ .

* **كما صدرت له عدة أعمال نظرية في النقد والثقافة منها :**

- الأدب والأيديولوجيا في سوريا «بالاشتراك مع بوعلي ياسين» الطبعة الأولي ١٩٧٤ ، الطبعة الثانية ١٩٨٥ .
- أيديولوجية السلطة : الطبعة الأولي ١٩٧٨ ، الطبعة الثانية ١٩٨٦ .
- وعي الذات والعالم : الطبعة الأولي ١٩٨٨ ، الطبعة الثانية ٢٠٠١ .
- فتنة السرد والنقد : الطبعة الأولي ١٩٩٤ ، الطبعة الثانية ٢٠٠٠
- أقواس في الحياة الثقافية : الطبعة الأولي ٢٠٠١ .
- كتاب الاحتفاء : الطبعة الأولي ٢٠٠٢ .

المحتوى

صدر مؤخراً فى سلسلة
آفاق عربية